



الجمهورية العراقية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة الشهيد محمد نوح الوائلي  
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية



# مجلة المعارف

## للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة



Issn 2437-0584

الرئيس الشرفي: عمر فرحاتي - مدير الجامعة  
المدير الشرفي للمجلة: عبد الرحمان تركي - عميد الكلية

العدد  
05

رقم الايداع القانوني 471-2015



# مجلة المعارف

## للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية

العدد الخامس - ماي 2016

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مجلة المعارف  
للبحوث و الدراسات التاريخية  
ص - ب رقم : 789 . ولاية الوادي 39000 . الجزائر -  
الهاتف / الفاكس 032223005  
العنوان الالكتروني:  
el-maaref@univ-eloued.dz

## إدارة المجلة

الرئيس الشرفي:

**الأستاذ الدكتور عمر فرحاتي**

مدير جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادني. الجزائر.

**recteur@univ-eloued**

المدير الشرفي :

**الأستاذ الدكتور محمد الرحمان تركي** ، عميد كلية

العلوم الاجتماعية و الإنسانية.

**adab -- @39@hotmail.com**

مدير المجلة :

**الدكتور محمد السعيد محقوب** ، نائب عميد الكلية

المطلوب بال علاقات الخارجية و التعاون و التنشيط و

الاتصال و التظاهرات العلمية.

**maguieb@yahoo.fr**

رئيس هيئة التحرير :

**الأستاذ عمار غرايسه** ، عضو هيئة التدريس بالكلية ،

**gheraissa-ammam @univ-eloued**

هيئة تحرير المجلة

أ. رابع رمضان . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادني

أ. الطاهر سبفاق . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادني

د. حنانة البشير . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادني

أ. محلال بن عمر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادني

د. رشيد قسيه . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادني

أ. الجباري عثمانني . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادني

أ. محمد الحميد العابد . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادني

### التعريف بالمجلة

من وحي الثورة الجزائرية المجيدة  
و في إطار الاحتفالات بالذكرى

الستون المخلدة لها ، جاءت

فكرة إنشاء هاته المجلة الموسومة

بمجلة المعارف للبحوث و

الدراسات التاريخية التي حازت

على موافقة المجلس العلمي

لكلية العلوم الاجتماعية و

الإنسانية لتكون فضاء متميزا

للمعرفة . إذ المعرفة هي بلا

شك الطريق الأنسب لمحاولة

الاقتراب أكثر من الحقيقة التي

هي أمل السالكين دروب العلم

على أمل ملامستها في ظل

أحواء الفكر الإنساني الحر و

الذي لا يلتزم بغير ضوابط

الموضوعية و الحقيقة المستندة

للقائع و الحقائق الثابتة.

إن مجلة المعارف تسعى لأن

توجد لنفسها مكانا بين

الدوريات التاريخية المتخصصة

لتسهم بفضل جهود الأعلام

المتألقة في فضاءها في الغوص

في مجال البحوث و الدراسات

التاريخية لتخرج بما نحو أرحب

الأفاق الدالة على مدى قدرة

التاريخ في الإسهام إلى جانب

العلوم و المعار الأخرى في

صناعة واقع الأمة انطلاقا من

فهم واقعها و محاولة لرسم

مستقبلها. و تبقى المعرفة التي

جاء بما أول غيث الوحي

السموي خير ما تستهدي به

البشرية في دروب الحياة .

## الهيئة العلمية الاستشارية

أ. د. إبراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية.	أ. د. إبراهيم بن محمد بن محمد المزيني . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المملكة العربية السعودية.
أ. د. أحمد شريقي . جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	أ. د. أحمد صاري . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة
أ. د. بن يوسف تلمساني . المركز الجامعي خميس مليانة .	أ. د. جمال حجر . جامعة قطر . قطر
أ. د. صالح بوسليم . جامعة غرداية . غرداية.	أ. د. عبد الوهاب شلالي . جامعة العربي التبسي . تبسة.
أ. د. علي آجقو . جامعة محمد خيضر . بسكرة.	أ. د. محمد حسن . جامعة تونس الأولى . تونس.
أ. د. علاوة عمارة . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة.	أ. د. عمر حاج الزاكي . جامعة أم درمان السودان.
	أ. د. وجدان فريق عناد . جامعة بغداد العراق.
أ. د. بوبه مجاني . جامعة قسنطينة 2 . قسنطينة.	أ. د. جمال يحيوي . جامعة أبو القاسم سعد الله . الجزائر.
د. أحمد الباهي . جامعة القيروان . تونس.	د. العمري مومن . جامعة قسنطينة 2 قسنطينة.
د. الوفي نوحى . جامعة محمد الخامس . المغرب.	د. أنور عوده عواد الخالدي . جامعة آل البيت . الأردن.
د. بشير فايد . جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين . سطيف.	د. بلقاسم ميسوم . جامعة محمد خيضر . بسكرة.
د. جمال بلفردى . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.	د. خير الدين شترة . جامعة محمد بوضياف . المسيلة.
د. دلال لواتي . جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	د. رضوان شافو . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. طارق لعجال جامعة ملایا . ماليزيا.	أ. د. عاشوري قمعون . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. عبد الحكيم أروغى . جامعة فريبورغ . ألمانيا.	د. عبد الكريم الماجري . جامعة منوبة تونس.
د. علي بن سعد آل زحيفه الشهرياني . جامعة ملایا . ماليزيا.	د. علي غنازبية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. عليان عبد الفتاح الجالودي . جامعة آل البيت . الأردن.	د. لزهو بديدة . جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.



د . لمياء بوقريوة . جامعة الحاج لخضر . باتنة .	د . محمد الأمين ولد آن جامعة نواكشوط . موريتانيا .
د . محمد السعيد عقيب . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد السعيد قاصري . جامعة محمد بوضياف . المسيلة .
د . محمد رشدي جراية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد عبد الرؤوف ثامر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
د . محمد فرقاني . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية . قسنطينة .	د . محمد وادفل . جامعة قسنطينة 2 قسنطينة .
د . نواف عبد العزيز الجحمة . الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب . الكويت .	د . هبوا عزيز سعيد . جامعة السليمانية . العراق .
د . ودان بوغفالة . جامعة معسكر . معسكر .	د . يوسف نبي ياسين . جامعة قطر . قطر .
د أحمد عبد الدايم محمد حسين . جامعة القاهرة . مصر .	د علي الريامي . جامعة السلطان قابوس . سلطنة عمان .
د مبارك جعفري جامعة أحمد دراية . أدرار .	د نجيب بن خيرة . جامعة الشارقة . الإمارات العربية المتحدة .
د . ناصر بالحاج . جامعة الحاج لخضر . باتنة د . اسماعيل وارشيد EH SS ismail warscheid فرنسا . أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه براتالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .	أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه براتالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .
د . Augustin Jomier أوغسطين جوميهيه ( fondation thiers – cnrs/ce rhio) جامعة لومان . فرنسا .	

## قواعد النشر بالمجلة

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

- 1- أن تكون المادة المرسله للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.
- 2- أن لا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وأن لا تقل عن 10 صفحات.
- 3- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.
- 4- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والفاكس والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني بالغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية.
- 5- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع **simplified Arabic** مقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي **simplified 16 Gras** العناوين الفرعية **simplified Arabic** مقاسه 14.
- 6- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 بحجم الورقة عادي (A4).
- 7- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية **Not de fin** على أن تعرض في نهاية المقال.
- 8- المقالات المرسله لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- 9- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.
- 10- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.
- 11- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : [el-maaref@univ-eloued.dz](mailto:el-maaref@univ-eloued.dz)



## على مختبات العودة

مع بزوغ فجر هذا العدد نقف أمام ذكرى مرور مائة عام على تلك المؤامرة التي حيكت خيوطها بأنامل فرنسية وبريطانية، فكانت سايكس بيكو أول مشرحة توزعت فيها أطراف العالم العربي في تاريخه الحديث ، أين وجد نفسه ضحية واقع حضاري أدرك معه حقيقة أنه ربما افتقد مناعة المقاومة له وعرف أنه قد أصيب في مقتل لاتزال الكثير من تجلياته بادية الملامح في أرض الشام الجريحة.

وبالمقابل من ذلك يستحضر العالم العربي مآسي انغراس ذاك الكيان الغريب في قلبه عام 1948، وما قد انجر عن ذلك من استيطان وتهجير ومصادرة الممتلكات، ليجد أهل أرض كنعان أنفسهم بين الخلائق مشردين يعانون فوق كل ذلك التخاذل والنكران .

كما مرت بالجزائر ذكرى فقدتها لأحد أبرز أعلامها الذين كرسوا جهدهم خدمة للوطن وأهله انه الشيخ البشير الابراهيمي رحمة الله عليه الذي نذر حياته فداء للوطن وخدمة للعلم واشتغالا بمحوم الأمة العربية الاسلامية في قضاياها الكبرى

أمام هاته الذكريات المتزاحمة على الوعي العربي، يتجدد انبعاث الأصوات المنادية بضرورة أن تعمل الأمة على الوصول لاستعادة أوارها الريادية وتبوء ما كانت تحتله من مكانة ضمن التاريخ لها فيها أن تكون من بين أرفع الأمم

لكن ذلك لن يكون الا بإرادة حقيقية تستشعر هموم الواقع العربي وتدرك حجم التحديات التي تواجهه، و تكون مستعدة بعد فهم الواقع وما يحيط به لتتجه نحو العمل على تغيير الوضع على أمل بلوغ ما هو أفضل وبما يحقق للأمة العربية استمرارية الاسهام في الفضاء الانساني الذي تنتمي اليه على أساس احترام الحقوق الأساسية لجميع الأطراف المعنية

ويبقى الأمل يلوح في الأفق يضيئ سناه مشرقا من بين أعلى القمم.

رئيس التحرير:

الأستاذ/ عمار غرايسة

## المفهرس

الصفحة	الموضوع
06	كلمة العدد
10	التعليم الديني البدوي في صحراء شنقيط، دراسة في التاريخ والمناهج ✻ د/حسنة الغامدي / جامعة الملك عبد العزيز/ جدة. طارق لعجال/ جامعة عفت/جدة
51	قراءة في تاريخ ودوافع البرنامج النووي الإيراني ✻ د/ شريفة كلاع /جامعة الجزائر 03
75	"الخطف" كأحد المخاطر التي تواجه الحجاج ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام ✻ د. د. خالد حسين محمود/ جامعة عين شمس/ مصر
98	بسفارة محمد البوحميدي خليفة الأمير عبد القادر إلى السلطان المغربي سنة 1847 ✻ د/ محمد السعيد قاصري / جامعة محمد بوضياف - المسيلة.
145	خصوصية امكانية المرأة في حكم الشرق الادنى القديم ✻ أ/ شاكر محمود اسماعيل/ جامعة ديالى/ كلية التربية للعلوم الانسانية/ العراق
173	تأثير الثورة الجزائرية على السياسة الفرنسية في إفريقيا السوداء(1956-1960) ✻ أ/ عيسى ليتيم /جامعة الحاج لخضر / باتنة.
198	المقريزي خلدوني يكتب عن الخطط والملوك. ✻ د/يسري عبد الغني عبد الله - باحث وخبير في التراث الثقافي
215	معاهدتا الجزائر مع إسبانيا 1786 و 1791 ظروفهما وانعكاساتهما على العلاقات بين البلدين ✻ د/ عبد القادر فكاير/ جامعة الجليلي بونعامة/ خميس مليانة.
242	الفقه و القضاء المالكي في الجزائر خلال العهد العثماني قراءة في مخطوطة للشيخ أبي راس الناصر المعسكري "نظم عجيب في فروع قليل نصها مع كثرة الوقوع" ✻ أ/ تقي الدين بوكهر / جامعة أحمد بن بلة وهران 01/ وهران.
263	التراث العربي المخطوط قراءة في قواعد التحقيق وثقافة المحقق. ✻ د/ عبد الكامل عطية/ جامعة حمه لخضر/ الوادي.
286	الهجرة العلمية للجزائريين نحو تونس خلال الحقبة الاستعمارية ✻ أ/ عبد النور فييحة/ المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة/ الجزائر
307	دور الوعي التاريخي في تشييد ثقافة المقاومة الجزائرية والحفاظ على هوية المجتمع الجزائري -قراءة في فلسفة التاريخ لأبي القاسم سعد الله- ✻ أ/ سامية مرايطين/ المدرسة العليا للأساتذة/ قسنطينة

تخلى أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية  
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي المجلة  
يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لامتحانات فنية لا ترتبط برتبة الباحث ولا  
مكانته العلمية

**"التعليم الديني البدوي في صحراء شنقيط، دراسة في التاريخ والمناهج"**

الدكتورة: حسنة الغامدي. جامعة الملك عبد العزيز بجدة

الدكتور: طارق لعجال. جامعة عفت بجدة

المملكة العربية السعودية

**ملخص**

تعتبر المحاضر الموريتانية ظاهرة فريدة وغاضمة في تاريخ مدارس التعليم الديني في العالم الإسلامي، حيث تعتبر من أقدم الانماط التعليمية التي صمدت أمام تغيرات التاريخ والمجتمعات واستطاعت عبر القرون التي عاشت فيها أن تجد لها مكاناً بارزاً في صيرورة تطور التعليم الديني في غرب العالم الإسلامي، وعلى الرغم من قدمها الزمني وإنجازاتها الكبيرة المتمثلة في المستوى العلمي لخريجها إلا أنها ظلت مغمورة، ومجهولة في عند العلماء والمؤرخين المسلمين والغربيين، وذلك لجملة أسباب لعل أبرزها العزلة الجغرافية والسياسية والاجتماعية للمنطقة التي نشأت فيها. تحاول هذه الورقة الوقوف على حقيقة هذه المؤسسة التعليمية من خلال تتبع مراحل ظهورها تاريخياً وتطورها، ومناهجها والإشكاليات التي تواجه وجودها وبقائها. عرضت الدراسة الكثير من الحقائق المتعلقة بهذه المؤسسة من حيث تعريفها، وتاريخها، وهيكلتها ومناهجها وإنجازاتها وختمت بتصور لمستقبلها.

**Abstract**

The bedouin Mouritanian schools of Mahdara is a unique phenomenon in the history of religious education in the Islamic world, it is considered as one of the oldest

educational styles that withstood changes of history and societies over the centuries, the uniqueness of this institution comes from different aspects such as, its old educational systems, educational structure, and curriculum, in addition to its preferred isolated geographical areas. Despite of its great achievements which can be traced through the quality of its graduates. This paper attempts to determine the truth of this institution by tracking historical appearance and development stages, the curriculum and problems facing their existence and survival. The study seeks to offer an academic understanding to this institution, through digging in its history, development stages, structured curricula, achievements and challenges that face its future.

#### أ. مقدمة: البداوة وقيمة العلم

يعود ظهور موريتانيا وقبائلها على مسرح الأحداث في شمال وغرب إفريقيا إلى ظهور دولة المرابطين بينهم، والتي نجحت في بناء أول وحدة سياسية فكرية بين قبائل المنطقة المتناحرة، إلا أن اختفاء دولة المرابطين سنة 1147م ترك فراغا سياسيا ودينيا، لم يحاول الموحدون الذين جاؤوا من بعدهم (1121- 1269) ملئه نظرا لتركيزهم على شمال الجزائر والمغرب والأندلس. وفي غياب القوة السياسية الموحدة، وبداية اندثار النظام التعليمي القوي الذي بناه المرابطون بدأت



مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية  
مجلة دورية دولية محكمة  
بعض القبائل الموريتانية في محاولة سد الفراغ السياسي والفكري في شنتييط والتي  
عرفت في أدبيات ما بعد المرابطين بالبلاد السائبة

<sup>1</sup> وهو ما تولته قبائل بنو حسان وقبائل الزوايا<sup>2</sup> اللتين شكلتا قيادة مزدوجة للمجتمع الشنقيطي<sup>3</sup>. حيث مارست الزوايا دور التوجيه الديني والقيادة الروحية والعلمية وإدارة الشؤون التجارية و الاقتصادية فيما مارست قبيلة بنو حسان القيادة السياسية و العسكرية، وكنتيجة لهذا التحالف الصحراوي، تركزت في المجتمع هذه القيادة المزدوجة والقائمة على تمجيد شأن العلم والسلاح معاً. وبالرغم من الطابع الصحراوي للبيئة الموريتانية التي استقر في عرف المتخصصين منذ ابن خلدون إلى يومنا هذا أنها تعتبر بيئة قاحلة غير صالحة للإنتاج الفكري ناهيك عن الازدهار العلمي والثقافي،<sup>4</sup> وإذا كان مصدر هذا الاقتران الاستنباطي الذي تراءى للدارسين طويلاً أنه تلقائي بين البادية و القفر العلمي والجهل من جهة، وبين المدينة والعلم والمعرفة من جهة ثانية، هو توافر مستوى من التراكم المادي والبشري الذي يسمح بإنتاج ثقافي في المدن في معظم الأحيان، وشدة وشظف العيش المتلازم مع حياة البادية؛ على أن الأمر اختلف تماماً كما يرى دودو ولد عبد الله في الحالة الموريتانية التي شهدت لأول مرة في تاريخ التجمعات الاسلامية أول بادية تتعاطى الثقافة العاملة درساً وتأليفاً، واحتضنت مجموعة البدو الوحيدة التي تملك تقاليد ثقافية مدونة ومكتوبة، في حين كانت البوادي الأخرى تعيش عالة على أهل المدن<sup>5</sup>

وقد انعكست حالة ارتباط البدو بالعلم والثقافة حالة تماهي غريبة بين الطرفين وميل شديد للدرس العلمي انعكس على مفردات اللغة اليومية للقبائل الموريتانية التي ساد بينها في ثقافتها الشعبية المساجلات العميقة بين قيمة العلم وقيمة المال في الحياة والتي عادة ما كان العلم يفوز فيها على حساب المال<sup>6</sup>، كما سادت الامثال الشعبية الممجدة لقيمة العلم وفضليته على باقي المفخر، كقولهم "ما العيش إلا تحت الركاب أو تحت كتاب"<sup>7</sup>، كما عكست قيم البادية وميزاتها

واوصافها لغة الشناطقة التربوية منها على سبيل المثال أطلقوا على من لم يكتب درساً جديداً كل يوم لفظ غب، أو غاب، كانعكاس لحالة العطش وقلة الماء في حياة البادية<sup>8</sup>، ولعل مقولة مقولة الرامهرمزي من رجال القرن عن الراحلين في طلب العلم: "شعث الرؤوس خلقان الثياب خمص البطون ذبل الشفاه شحب الألوان نحل الأبدان قد جعلوا همهم هما واحدا ورضوا بالعلم دليلاً ورائدا لا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ ولا يملهم منه صيف ولا شتاء"<sup>9</sup> والتي يحفظها كل الشناطقة قد مثلت بالنسبة لهم إطار فكريا داعما لاعتقاداتهم وميولهم نحو تمجيد العلم والمعرفة في بيئة قراء كبيئتهم. هذا عن الناحية الشفوية والثقافة الشعبية، أما من الناحية العلمية التألفية فقط انعكس الطابع البدوي الصحراوي والرغبة في طلب العلم على مؤلفات الكثير من علماء شنقيط الذين ألفوا الكثير في فضل البادية والحياة العلمية فيها مثل "كتاب البادية" الذي يؤسس لفقه البادية<sup>10</sup>.

يعود الفضل إلى هذا الترسخ العلمي والثقافي في هذه البيئة الصحراوية إلى مؤسسة تربوية اشتهرت في تاريخ شنقيط باسم المحضرة، والتي لعبت الدور الأبرز في التاريخ السياسي والثقافي للمنطقة<sup>11</sup> كما سنرى، وهي الحقيقة التي عبر عنها الرحالة والغزاة الفرنسيون عندما حلوا بالمنطقة سنة 1902م، فقد لاحظ كامي دولس (Camille Douls) هذه الخصوصية التي ميزت سكان صحراء شنقيط عن غيرهم من سكان المناطق المجاورة، وتحدث عن مظاهر من الثقافة العاملة في هذه البادية قائلاً: "إن البيضان يتخذون من خيامهم أكاديميات حقيقية"<sup>12</sup>. ويضيف هذا الرحالة الذي زار المنطقة سنة 1887 م قائلاً: "إن جميع هؤلاء البداءة تقريباً يتعاطون كتابة العربية"<sup>13</sup>، مؤكداً أن "المعرفة والذكاء اللذين يميزان هؤلاء البدو يبلغان درجة من التطور تعد مفارقة لما يطبع المسلمين المقيمين بإفريقيا الشمالية"<sup>14</sup>، بينما يجزم المستشرق الفرنسي رني باسي (René

(Basset) بأن لدى البيضان البدو في شنقيط ثقافة أدبية أرقى وأعلى مما لدى جل سكان ما يعرف بالجزائر<sup>15</sup>. عاقدا مقارنة بينهم وبين المثقفين من تونس والجزائر معطيا الأفضلية للمثقفين البادية الموريتانية عن نظرائهم<sup>16</sup>. من هنا تطرح إشكالية هذه الدراسة نفسها، وهي تدور حول حقيقة هذه المؤسسة التربوية البدوية التي كان لها الأثر الأكبر في صناعة تاريخ موريتانيا الثقافي والسياسي، وكذا نشأتها وتطورها وآلياتها ومناهجها والمشاكل التي تواجه وجودها.

ومن الغريب أن هذه المؤسسة التربوية بالرغم من دورها بقيت مدفونة في صحراء شنقيط، ولم تتناولها الدراسات والبحوث إلا بشكل نادر ومتأخر، فلولا بعض الدراسات التي أجزها الباحثون الفرنسيون إبان الفترة الاستعمارية والقليل من الأعمال العلمية التي كتبها الموريتانيون انفسهم لم يسمع أحد بهذه المؤسسة لحد اليوم. ويعتبر هذا من اهم عوائق البحث في تاريخ وواقع هذه المؤسسة، حيث تكاد تخلو الكتابات العربية من أي كتاب متخصص في حقيقة وتاريخ المحاضر، ماعدا كتاب المؤرخ الموريتاني خليل النحوي " شنقيط المنارة والرباط " والذي طبع سنة 1987، والذي خص في جزء كبير منه المحاضر وتاريخها، لكن الكتاب يقف عند حدود سنة 1987، ولا يعطينا واقع المحاضر في عالم اليوم، ويكاد يكون الدراسة العربية المعمقة الوحيدة في الموضوع، إذا أضفنا إليه دراسة ولد عبد الله (ددود) الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر ( 17-18 م ) والتي نال بها درجة الدراسات العليا في التاريخ، من جامعة الملك محمد الخامس، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بالرباط،-1992 1993، والتي لم تنشر بعد، أما باللغة الفرنسية فهناك مجموعة من الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع منهم الباحث الموريتاني، el Ghassem Ould Ahmedou في اطروحته للدكتوراه في جامعة السوربون 3 سنة 2012 تحت

Traditional teaching in Mauritania: The عنوان  
 Mahadra or school of camel<sup>17</sup> وقد ألم الباحث بموضوع المحاضرة  
 تاريخيا وأجرى جملة من الدراسات الميدانية، لكن إشكالية غياب الدراسات  
 والاحصاءات الحديثة كانت العائق الأكبر امامه في الوقوف على واقع النظام  
 المحظري. وقد كتب الباحث نفسه رسالة الماجستير في جامعة السوربون سنة  
 2007 حول الموضوع نفسه. كما أن هناك دراسة منشورة لمجموعة من الباحثين  
 الموريتانيين بعنوان L'enseignement coranique traditionnel  
 .Mahadras de Nouakchott dans les<sup>18</sup>.

وهي دراسة مسحية حديثة نشرت سنة 2009، وفيها الكثير من التفاصيل  
 لكنها لم تتطرق إلى النظام التعليمي المحظري وتاريخ تطوره، واقتصرت على ايراد  
 الاحصاءات والبيانات حول عددها واعداد الطلبة والمسائل البيداغوجية،  
 وسنستفيد منها في بعض الأرقام والاحصاءات الحديثة التي وردت فيها. ولعل اهم  
 مصدر يمكن العودة إليه في تاريخ المحاضرة هي الكتابات الفرنسية وتقارير الحكومة  
 الفرنسية، والتي تطرقت في الكثير منها لحقائق كثيرة عن المحاضرة لكنها تبقى  
 محصورة في الإطار التاريخي الذي كتبت فيه، حيث لا يمكن اعتبارها مصدرا لمعرفة  
 حقيقة النظام المحظري تاريخيا و في أيامنا هذه، ولعل من اهل الدراسات الفرنسية  
 دراسة الباحث André Lecourtois والمعنونة *Etude  
 expérimentale sur l'enseignement islamique  
 traditionnel en Mauritanie, Entreprises et  
 développement*<sup>19</sup> وهي دراسة وافية للواقع الثقافي والجغرافي للمجتمع  
 الموريتاني وتناولت موضوع المحاضر لكن بشكل محدود، ومربوط بالحدود الزمنية  
 للدراسة وهي 1900-1978، على أن موضوع المحاضر لم يخصى بأي دراسة

باللغة الإنجليزية، لأسباب تبدو غير واضحة لحد الآن، حيث لم نعثر على أثر لدراسة أكاديمية حول هذا النظام التعليمي التقليدي بالرغم من تأثيره الكبير في البنية الثقافية والسياسية لمجتمع غرب افريقيا الموريتاني. والشهرة الكبيرة التي يتمتع بها خريجوا هذه المحاضر في العالم الإسلامي، بل وسعي الكثير من الدعاة والمسلمين لتقليدها في بلادهم كما هو الحال مع كلية الزيتونة التي أسسها حمزة يوسف في مدينة بيركلي بكاليفورنيا سنة 2009، وغيرها. وسنحاول في هذه الدراسة أن نركز على الجانب الوصفي لحقيقة هذه المؤسسة التعليمية من الجانب التاريخي والمنهج التعليمي والاجتماعي الذي تكرسه، ولن نستغرق كثيرا في تفاصيل الدراسات المسحية النوعية تاركين ذلك لفرصة اخرى.

### ب. الإطار التاريخي:

يكاد المؤرخون الموريتانيون مثل المختار و النحوي<sup>20</sup> والفرنسيون مثل Francis de Chassey<sup>21</sup> يجمعون على أن تاريخ الحضرة يعود إلى ظهور دولة المرابطين البدوية في منطقتهم وتحديدا إلى الحركة الإصلاحية التي بدأها الشيخ عبدالله بن ياسين<sup>22</sup> والتي اضطر في بدايتها إلى الانزواء في الصحراء بالقرب من نحر السنغال بعد تصادمه مع نفوذ كبار قبيلة صنهاجة، وأقام عندها رباطاً (مدرسة) سنة 431هـ 1039م جمع فيها جملة من مريديه وتلاميذه<sup>23</sup>، لتظهر بذلك نواة النظام التعليمي الحضري، والتي مكنت عبد الله ابن ياسين بعد مرور عشر سنوات من تأسيس دولة المرابطين بعد تزايد أعداد طلبته ومريديه. وبعد وفاة عبد الله ابن ياسين توجه الزعيم اللمتوني الجديد أبو بكر بن عمر اللمتوني (ت. 480 هـ / 1087 م) إلى الصحراء بعد تولية يوسف ابن تاشفين (ت. 499 هـ / 1106 م) وتحول المرابطين من البادية والصحراء إلى المدن في الشمال المغربي، وجلب معه من اغمات أربعة فقهاء هم أبو بكر محمد بن الحسن

الحضرمي، وابراهيم الأموي، وعبد الرحمن بن أبي بكر الركاز، وعبد الله جد الزينبيين<sup>24</sup> قاموا بتأسيس عدد من الأربطة و المدارس البدوية لتعليم البدو ودعوتهم إلى الإسلام، وهو ما يمكن اعتباره الظهور الفعلي للمؤسسات الحضرية التي ميزت التاريخ الموريتاني عبر القرون<sup>25</sup>، ومما يدعم هذا التوجه أي ربط المحاضر بالأربطة والمدارس التي تعود إلى الدولة المرابطية هو اختيارهم للبوادي والصحاري مكانا لها، وطرق اجتماع الناس في الحضرة وطريقة عيشهم ولقب أستاذهم الذي احتفظ بلقب مرابط إلى يومنا هذا بدل لقب الأستاذ أو المعلم.

ولم يلبث هذا النظام التعليمي الصحراوي أن عم في المدن الصحراوية التي كانت تقع تحت سيطرة المرابطين، وباتت مدن ولاته وأودغست وأوركلي وتيشيت وودان وشنقيط، و تينكي<sup>26</sup> المراكز الكبرى للمحاضر<sup>27</sup>، يتحدث البكري عن مدينة أودغست باعتبارها مدينة ضخمة و كبيرة أهلة بها جامع ومساجد عديدة أهلة في جميعها بالمعلمين للقرآن<sup>28</sup>. كما يشير أحمد بن طوير الجنة إن أن مدينة وادان تأسست أساسا لتكون مركزاً من مراكز العلم، ويشير إلى أن بها أربعين داراً متتالية في كل منها عالم ضليع<sup>29</sup>. وقد لفتت هذا الظاهرة أنظار الرحالة ابن بطوطة حين مر على مدينة ولاته سنة 753 هـ/ 1352 م وشاهد كثرة مدارس العلم فيها وكثرة طلبة العلم<sup>30</sup>.

وقد كان أغلب تلك المدن المشار إليها عبارة عن واحات كبيرة ومحطات تجارية اضطلعت، بالإضافة إلى أدوارها الثقافية، بأدوار تجارية مهمة؛ لعبت دورا مهما في مسالك التجارة الصحراوية. وقد عرفت هذه الحواضر الصحراوية فترات ازدهار اقتصادي من المؤكد أن له صلة بالنهضة العلمية الأدبية بها، إذ لا بد لكل ثقافة محلية من فائض اقتصادي ينتج عنها كما يرى بروديل<sup>31</sup> (Braudel).

إلا أن مرحلة التمدن في هذا النظام التعليمي لم تدم طويلاً، حيث بدأت المحاضر في القرن العاشر الهجري تنتقل إلى البادية مجدداً بسبب غياب السلطة المركزية وانقطاع خطوط تجارة الصحراء بسبب الاكتشافات الأوروبية<sup>32</sup>، وبسبب سيطرة الأتراك على شمال أفريقيا ودمار مدينة سجلماسة في القرن 15 م مما صعب من الوضع الاقتصادي للمدن الشنقيطية<sup>33</sup>، هو الأمر الذي دفع إلى نزوح المحاضر إلى البادية بعد كساد الحياة في الحواضر. ليشهد بذلك تاريخ هذا النظام التعليمي عودة جديدة إلى البادية بعد أن استقر قرونا في المدن والحواضر.

### ت. التعريف والتسمية

تتعدد التفسيرات اللغوية لأصل مصطلح المحضرة أو المحظرة واشتقاقها اللغوي، ولعل أهمها أنها مشتقة من فعل حظر، أي منع. وترمز إلى المحظرة التي عادة ما كانت تحيط بحجيمة شيخ ومعلم المحظرة وعرائش ومسكن طلبته لحمايتها من الحيوانات وغيرها. وتقام هذه الحظائر عادة حال حلول المخيم بأي موطن جديد يتم النزول فيه<sup>34</sup>. كما يمكن العودة بأصل الكلمة إلى معنى بالحظر الذي يفرضه الشيخ على الطالب المنتسب لمحظرتة بمنعه من التجوال داخل الحي والاختلاط بأهله والانغماس في حياتهم اليومية وشؤونها وإلزامه بالإقامة في خيم الطلبة والتفرغ للعلم؛ كما يمكن رد الكلمة لما هو متأ من الهيبة والحماية الروحية التي يتمتع بها شيخ المحظرة ومؤسسته التعليمية وحتى طلابه<sup>35</sup>. وتقتضي هذه الحماية حظر ارتكاب المخالفات في حرم المحظرة وحماية من لجأ إليها حتى يكون في مأمن من النهب والسرقة وغيرهما من الممارسات التي كانت شائعة في المنطقة إبان القرون الماضية<sup>36</sup>، وما يرجح الرأي الأخير هو غلبة هذا التفسير في قواميس اللغة العربية لفظ حظر<sup>37</sup>. كما أن طبيعة الحياة البدوية التي يغلب فيها السلب وانعدام



الأمن والنظام يدعم هذا الرأي. حيث كانت المحاضرة منذ نشأتها ملجأً آمناً للخائفين وملاذاً للمستضعف من غارات النهابين وقطاع الطرق.

بينما تعرف المحاضرة اصطلاحياً بكونها مؤسسة ذات وظائف متعددة ثقافية وتربوية واجتماعية يشرف عليها عالم يتعهد طلابها علمياً وروحياً ومادياً احتساباً منه لوجه الله تعالى<sup>38</sup>، ويقدم النحوي تعريفاً موجزاً لها بقوله "أثما جامعة شعبية بدوية مستقلة تلقينية مجانية التعليم وطوعية الممارسة"<sup>39</sup>، وهي تقوم أساساً على وجود شيخ واحد يتجمع حوله جملة من الطلبة ويتولاهم هو بالتدريس والعناية الاجتماعية إلى حين تحصيلهم كافة العلوم التي يتقنها. وتمتد مهام الشيخ لتشمل إضافة إلى التدريس؛ الإمامة؛ التربية الروحية؛ القضاء بين الطلبة والبدو القريين من مكان المحاضرة؛ والإفتاء لهم، كما اضطلع بعض المشايخ بمهام سياسية كمستشارين لدى بعض أمراء الدول التي ظهرت في المنطقة، ووسطاء في النزاعات والحروب القبيلة، كما وتولى بعضهم مهام عسكرية ضد النفوذ الفرنسي في المنطقة<sup>40</sup>.

وتستمر المحاضرة زمنياً ما دام الشيخ حياً، لذا يقدر عمرها بفترة قدرة الشيخ على العطاء والتدريس وهي ما بين أربعين إلى ستين سنة. وعند وفاته تتفرع عنها محاضر أخرى لتلاميذه، وتبقى المحاضرة الأم ليرثها أحد أبناء الشيخ المؤسس، بعد تحويل اسمها إلى الشيخ الجديد، على أن الشيخ لا يتقاعد إلى أن يمرض مرضاً يحول دونه ودون مواصلة التدريس<sup>41</sup>.

## ث. خصائص المحظرة

يمكن أن نوجز خصائص نظام المحظرة التعليمي بناءً على التعريف الموجز للنحوي الذي أورده سابقاً فهي: جامعة شعبية بدوية مستقلة تلقينية مجانية التعليم وطوعية الممارسة. ونورد هنا معاني ذلك:

- 1- **جامعة:** تعتبر المحظرة مرحلة تعليمية متقدمة، حيث يلتحق بها الطلبة المؤهلون فقط والذين تلقوا تعليماً مسبقاً، وحصلوا نسباً معينة من العلوم، ويدرس في المحظرة القرآن، والحديث، والعقيدة، والتصوف، والفقه، وأصوله، والسيرة، والتاريخ، واللغة، والادب، والنحو، والشعر، والبلاغة والمنطق، وأسرار الحروف والحساب<sup>42</sup>.
- 2- **شعبية:** لا تتبع للحكومة أو أي هيئة وتستقبل كل من يرد عليها من جميع المستويات ولا يرد أحد لنقص مقاعد الدراسة، كما لا تغلق لعدم وجود عدد كافي من الطلبة، ولا يوجد فيها سجلات للطلبة الذين يصل عددهم أحياناً إلى 400 طالب<sup>43</sup>.
- 3- **بدوية متنقلة:** عادة تقام المحاضر في البوادي، ويمارس التدريس في الخيمة فليس هناك أي قاعات للدراسة في المحظرة سوى خيمة تصنعها النساء من القش والقماش، أو عريش يقيمه الطلاب من الثمام الموجود في المنطقة وشجر الطلح. وتنتقل المحظرة من مكان إلى آخر حسب الأمطار حين تنتقل بين الصيف والشتاء بين أماكن مختلفة بحثاً من مراعي للقطيع الذي تعتمد عليه في إطعام الطلبة المغتربين<sup>44</sup>.
- 4- **تلقينية:** تعتمد الطريقة التقليدية في المدارس الإسلامية التي تقوم على التلقين مباشرة من الشيخ وتلقي العلم عنه مباشرة لذلك تعتمد المحظرة نظام الحفظ و الإجازة في قراءة الكتب<sup>45</sup>

- 5- المجانية: فالانتساب إلى الحضرة لا يتطلب رسوماً. إذ إنها تعتمد في تسيير أمورها المالية على الأنظمة الاجتماعية ابتكرتها (التأييد، والختمة، وشاة التلاميذ) مجسدة شكلاً من مراتب التكافل الاجتماعي<sup>46</sup>.
- 6- الطوعية: تقوم الحضرة على أساس التطوع والمبادرة الحرة في الدراسة والتدريس معاً، حيث لا يتلقى الشيخ أي مقابل مادي على جهده. أما من جهة الطالب فتمثل في حرية الطالب في اختيار اختيار الحضرة التي سينتسب إليها، والشيخ الذي سيدرس عنده، والمادة والمتون التي يرغب الطالب في دراستهما، والفترة الزمنية الكافية لدراسته، كما له الحرية المطلقة في الغياب والحضور، كما له الحرية المطلقة في ترك الحضرة في أي وقت، فالرقابة ذاتية من الطالب لنفسه، وهي أساساً تقوم على مبدأ التحفيز الذاتي الذي يدفع الطالب إلى التغرب في البوادي لطلب العلم.<sup>47</sup> كما يجوز للطالب أن يلتحق بالحضرة ولو في سن الكهولة وتلعب هذه الحرية أهمية خاصة في تحقيق الذات، مما يجعل الطلاب يتعاطفون وجدائياً مع محيطهم الحضري.<sup>48</sup>

### ج. أنواع المحاضر

تقسم المحاضر عادة في موريتانيا إلى ثلاث أقسام وهي:

- 1- **المحاضر الجامعة:** وهي التي تجمع بين تدريس علوم الآلة وعلوم الغاية معاً من تفسير وحديث و تجويد ونحو وبلاغة وحساب وأصول ومنطق، إلخ، ولا ينتصب للتدريس في هذه المحاضر إلا شيخ متبحر متمكن في جميع العلوم الشرعية والأدبية واللغوية وبماكانه تدريس كل هذه الصنوف المعرفية<sup>49</sup>، ويقل عددها مقارنة بالمحاضر الأخرى نظراً لقلّة الشيوخ الذين يمكنهم القيام بتدريس كل فروع

المعرفة بمفردهم. ويصل عدد هذا النوع من المحاضر حسب إحصاء

أجري سنة 1995 إلى 151 محاضرة، ويدرس فيها ما مجموعه  
11130 طالب<sup>50</sup>.

## 2- المحاضر المتخصصة: وتختص بتدريس عدد محدد من العلوم مثل

علوم القرآن والعقيدة والفقهاء. فشيخها مقتدر على تدريس علوم  
الغاية (اللغة النحو، أصول الفقه، المنطق) دون سواها. ويصل عدد  
هذا النوع من المحاضر حسب إحصاء 1995 إلى 246 محاضرة،  
ويدرس فيها ما مجموعه 23781 طالب<sup>51</sup>

## 3- المحاضر القرآنية: وهي المدارس القرآنية التي تدرس الكتابة وتحفيظ

القرآن الكريم، ولا يمكن عدّ هذه المدارس من جملة الخصوصية  
الموريتانية لكونها منتشرة في ربوع العالم الإسلامي دون استثناء.<sup>52</sup>  
ويصل عدد هذا النوع من المحاضر حسب إحصاء 1995 إلى  
1331 محاضرة، ويدرس فيها ما مجموعه 54009 طالب<sup>53</sup>

## ح. النظام التدريسي في المحاضرة:

### 1- نظام الالتحاق وشروطه

عادة ما يسمح للطلاب بالانضمام إلى المحاضرة في سن ما بين 12 والخامسة  
عشر، بعد أن يكون قد أتقن الكتابة والقراءة وأكمل حفظ القرآن الكريم،  
وبعض المتون التعليمية، على يد إحدى قريباته سواء كانت أمه أو خالته أو عمته  
أو جدته و أحياناً توجد في الحي من تتفرغ لهذه المهمة<sup>54</sup>، ويبدأ بكتابة الحروف  
في لوح خصص لهذا الغرض. بعده ينتقل التلميذ إلى المحاضرة، ويوصى به إلى شيخ  
الفريك يعني الحي وقد بات قادراً على التغرب والبعد عن الأهل<sup>55</sup>. وهي بذلك  
تختلف عن نظام الكتاب الذي يسود في باقي مناطق العالم الإسلامي، حيث لا

يلتحق بها الطالب إلا وقد حفظ كامل القرآن الكريم أو أجزاء منه ويلتحق ليتعلم فيها بقية أنواع العلوم كالفقه والعقيدة وعلوم اللغة العربية والتفسير وعلوم الحساب والتاريخ وغيرها. ويشترك في الانضمام إلى هذا النظام التعليمي الذكر والانثى حيث تخصص محاضر للنساء يدرسن فيها مساء طوال السنة، وتتلقى النساء العلم في سرادق المحضرة من وراء حجاب عن شيخ ترافقه إحدى محارمه لتتولى طرح الأسئلة عليه بالنيابة عنهن. أما إذا كانت المدرسة امرأة فإنها تجعل بينها وبين طلابها ستارًا يحجبها عنهم<sup>56</sup>.

## 2- طريقة التدريس ومراحل الدرس

يقوم النظام التدريس المحظري على مبدئين وهما:

- **مركزية الشيخ:** حيث يقوم بالتدريس في المحضرة شيخ واحد، وتنسب المحضرة إليه أو إلى عائلته، وأحياناً يجتمع جملة من الشيوخ على التدريس في المحضرة الواحدة، وعادة ما يقوم الشيخ بتعيين بعض الطلبة المتفوقين كمساعدين له، يخصصهم ببعض الطلبة، بينما يتولى هو مهمة تدريس البعض الآخر، وهو نظام أقرب إلى نظام المعيدين في النظام الحديث، وهي آلية فرضها العدد الكبير للطلبة في بعض المحاضر، إذا لا يمكن للشيخ وحده أن يقدم 200 أو 300 درس في اليوم. وأحياناً يتولى المعيدون مهمة تكرير الدروس ومراجعتها<sup>57</sup>.

- **التعليم الفردي،** ويعني أن لكل طالب في المحضرة درس خاص به حسب مستواه وحسب اختياره، وليس مقيداً بالانضمام إلى فصل، حيث يندر تشكيل مجموعات للدراسة سوية<sup>58</sup>.

وبخصوص العملية التدريسية اليومية فقد انعكست عليها بساطة الحياة البدوية ووضوح، حيث لم تعرف دروس المحاضرة أسلوبًا تعليميًا ثابتًا. فهو يبدأ بعدما يجلس الشيخ في الضحى بعد الفطور وبعد الانتهاء من ترتيب شؤون المشية ورعيها، ويتحلق حوله الطلاب، ثم يستمع لقطعة دراسية (نص) كتبه احدي الطلبة وحفظه مسبقًا، ثم يبدأ الشيخ في شرح هذا المقطع فقرة بعد فقرة. وينقل الطلبة الشواهد و الأفكار المهمة في أوراق خاصة معدة لذلك تسمى في الإصطلاح المحضري ب(الكناش). و يفسح المجال لطالب آخر بعد أن ينتهي الطالب الأول من قراءة مقطعه. وهكذا إلى أن ينتهي الدرس اليومي بدوران الحلقة على كل الطلبة أعضاء الحلقة التي اشتركت في مرجع دراسي واحد يسمى في إصطلاح المحظريين (الدولة)<sup>59</sup>. ويستخدم الشيخ في كافة دروسه العديد من وسائل الإيضاح المجسمة المتوفرة في البيئة المحيطة، ومنها الكتابة والرسم على الرمل.

وحين لا يشترك الطلاب في مرجع واحد (الدولة) فيبدأ الدرس معهم بكتابة الطالب لنصه الدراسي على اللوح الخشبي الذي لا يفارقه، ثم يصححه بعد استماع الشيخ إلى قراءته الأولى (قبل شرح الشيخ). وقد يتدخل بعض الطلاب للتصحيح لبعضهم البعض إذا كانت المحاضرة تحوي عددًا معتبراً من الطلاب ذوي المستويات المتفاوتة. ويتسع اللوح الخشبي عادة لأربعة دروس يراجعها الطالب حتى إذا أتقنها حفظاً غسل أقدامها بالماء والطين في مكان معد لذلك<sup>60</sup>. وعند انقضاء الفترة الصباحية تتوقف الدراسة وقت الغداء لقيامولة قصيرة ثم تستأنف لحين غروب الشمس<sup>61</sup>.

## 3- مبدأ التعليم:

طور الفكر الحضري البدوي نظاماً تدريسياً يقوم على الذاكرة بشكل أساس، نظراً للطبيعة الصحراوية التي تغلب فيها الثقافة الشفوية، ويعتمد الناس فيها على الذاكرة والحفظ، لذا كان حفظ الدرس اليومي حفظاً كاملاً من أهم خصائص التدريس الحضري، وقد ضرب الشناقطة نماذج غريبة في الحفظ مثل الشيخ عبدالله بن عتيق اليعقوبي الذي كان يحفظ لسان العرب لابن منظور (9 أجزاء بما يزيد على 8000 صفحة) كاملاً ظهراً على قلب، و يروي عن الشيخ سيد المخترار بن الشيخ سيد محمد (ت: 1397هـ) أنه كان يحفظ على ظهر قلب بعضاً من أمهات الكتب كفتح الباري (12 مجلداً)<sup>62</sup>، وجملة أخرى من الكتب. ولترسيخ هذه الملكة طور طلاب المحاضر الشناقطة وسائل وطرق لتعزيز ملكة الحفظ للتجاوب مع نظام الدراسة منها:

- تقسيم المتن إلى أجزاء: ويعرف بلغة المحظرة (بالأقفاف) والمشهور في المحاضر أن متوسط الدرس أو (القف) المتن المنظوم خمسة أبيات فقط لا يزيد عليها إلا الطلبة المتفوقون الأذكياء. وأما المتن الثرية فيجزئها الطلبة وفق تقسيم شائع بينهم. ولا تخفى غاية وفائدة هذا التقسيم للمتن المراد مراجعته وحفظه، فمنه يعرف الطلبة مواضع الصعوبة والسهولة فيحتاطون في المراجعة والتكرار<sup>63</sup>.

- استيفاء وحدة المتن: وهو أن يشتغل الطالب بدراسة متن واحد فقط، يستجمع تركيزه ووقته لحفظه ولا يخلط معه غيره، ولا ينتقل منه إلى غيره حتى ينهيه ويستوفي دراسته كله. نظراً لكون الجمع بين متنين معاً يحد من قدرة الطالب على الاستيعاب، فيظل جهده الذهني موزعاً بين عدة متون لا يكاد يتقن واحداً منها<sup>64</sup>.

- صياغة المتن المنشور نظماً: للشناقطة ملكة شعرية مرهفة وقد استغلوها كثيراً في تيسير العلوم للحفظ، وضمن قبول النفس لها والتصاقها في الذاكرة، وقد غلبت الصبغة النظامية على الدرس المحضري في الكثير من المواد العلمية<sup>65</sup>.

- التركيز على التكرار: يركز الطلبة على الحفظ والاسترجاع والمراجعة المستمرة للنص المحفوظ، ويبلغ مقدار عدد تكرار الطالب المتوسط للقدر المراد حفظه من مئة إلى ألف مرة في اليوم، ويسميه طلبة المحاضر بـ(أقباد)، حيث يجلس طالب العلم يعيد و يكرر ما خط في لوحه بصوت مرتفع في الصباح، ثم يعود إليه بعد الظهر ومرة أخرى بعد المغرب. وفي اليوم اللاحق يبدأ يومه بالتسميع للشيخ. وهكذا يفعل قبل كل بداية درس جديد. وفي نهاية الأسبوع يراجع الطالب كل ما حفظه من أول الأسبوع وهكذا حتى ينتهي من المتن كله<sup>66</sup>.

- حفظ النص قبل جلوس الشيخ لشرحه: وهذه من أهم الطرق التي تعين على متابعة الحفظ دون انقطاع أو تعثر وتأخر.

- عقد مجالس للمذاكرة والأحاجي والألغاز والإنشاد، وتتم في عطلة نهاية الأسبوع، فيعقد طلاب (الدولة) أو المنتهون مجالس السهرة والسمر في ليلة الخميس أو الجمعة، يناقشون ويتذكرون فيها ما درس خلال الأسبوع ويتبارون في تجويد إتقانه وحفظه، أو يحددون باباً أو فصلاً من كتاب يتحاجون فيه.

- اغتنام لحظات السحر في حفظ النصوص: يستغل الطلبة هذا الوقت المبارك للحفظ فلا تكاد تجد طالباً من المنخرطين في الحضرة نائماً وقت السحر.



## 4- المقررات الدراسية

كما اشرنا سابقاً، يعتمد التعليم المخظري على المتون العلمية كمادة دراسية، نظراً لعدة عوامل منها سهولة حفظ المتون وتحصيل ما فيها من علوم على خلاف التعامل مع الكتب التي قد تطول لتصل لعدة أجزاء. وتعتمد في موريتانيا متون الفقه المالكي فقط في الفقه، والعقيدة الأشعرية في العقيدة، ومتون اللغة العربية والمنطق المشهورة في العالم الإسلامي<sup>67</sup>، وهي مقررات تأسيسية تسعى إلى إحداث التكامل المعرفي لدى طالب المحاضرة في العلوم الشرعية واللغوية. ويتم تقسيم مجموعة المقررات الدراسية على ثلاث مراحل عمرية، هي:

- **المرحلة الأولى:** وتتم قبل دخول الطفل إلى المحظرة وهو ما بين السنة الخامسة من عمره والسنة العاشرة، ويعرف بالمبتدئ، وهي مرحلة تحفيظ القرآن الكريم، وبعد حفظ القرآن يدرس الطالب علوم القرآن، عن طريق تعليمه جملة من المتون الميسرة والبسيطة التي تناسب قدراته العقلية، منها: (الدرر اللوامع على مقرأ الإمام نافع) لعلي بن بري، ويدرس في الفقه (مختصر الأخصري)، و(المرشد المعين على الضروري من علوم الدين) لامام ابن عاشر. وفي النحو (عبيد ربه الشنقيطي)، و(ملحة الإعراب). وفي السيرة يدرس الطالب (قرة الأبصار لعبدالعزیز اللمطي) و(الهمزية) للبوصيري<sup>68</sup>.

- **المرحلة الثانية:** ومدتها ست سنوات، وهي مرحلة البداية الرسمية للحياة المخظرية، ويعرف الطالب في هذه المرحلة بـ(ولد الزوايا). وهي توازي المستوى الثانوي في التعليم النظامي. وفيها يدرس طالب المحاضرة في التجويد والقراءات (الشاطبية على القراءات السبع)، و(مقدمة ابن الجزري). وفي تخصص الفقه (رسالة ابن أبي زيد القيرواني)، و(مختصر

خليل)، وفي النحو (ألفية ابن مالك). وفي الصرف (لامية الأفعال). وفي اللغة (المقصور والممدود) و(ديوان غيلان)، وفي العقيدة (إضاءة الدجنة)، و(وسية المختار بن بون). وفي السيرة (الغزوات)<sup>69</sup>.

- **المرحلة الثالثة:** وتبدأ عندما يصل الطالب الثامنة عشرة من عمره ولا تنتهي حتى يقرر الطالب التوقف عن الدراسة بنفسه، ويعرف صاحب هذه المرحلة ب(المنتهي). وهي توازي المستوى الجامعي في التعليم النظامي. يدرس الطالب فيها كتب التفسير الموسوعية مثل: (تفسير الطبري) و(تفسير ابن كثير). وفي مصطلح الحديث يدرس (ألفية العراقي) و(طلعة الأنوار) لسيد عبد الله بن الحاج إبراهيم. وفي الحديث يدرس (موطأ الإمام مالك)، و(الصحيح الستة). وفي الفقه يدرس (شرح الحطاب لمختصر خليل). وفي الأصول يدرس (مراقي السعود)، و(ورقات إمام الحرمين)، و(جمع الجوامع) لابن السبكي. وفي العقيدة مؤلفات السنوسي الكبيرة. وفي المنطق (السلم) للأحضرى. وفي البلاغة (عقود الجمان) للأحضرى، و(ألفية السيوطي). وفي اللغة (مقامات الحريري) و(القاموس المحيط)، و(الكامل) للمبرد. أما العروض والقافية فيدرس (الخرجية)<sup>70</sup>. يبقى أن نشير إلى أن توزيع المقررات على النحو السابق معتمد عرفياً بين رواد المحاضر من الأساتذة والطلاب، لكنه ليس مدوناً متناقلاً أو ملزماً لجميع المحاضر.

## 5- نظام العطل:

نظراً للطبيعة البدوية والشعبية للمحاضرة لم تحدد رزنامة العطل بشكل محدد، لذا تختلف العطل من محاضرة إلى أخرى، إلا أن عموم المحاضر يتعارف على أن عطلة الأسبوع تبدأ من مساء الأربعاء إلى ظهر الجمعة، و تمنح معظم المحاضر الطلاب

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية  
مجلة دورية دولية محكمة  
عطلة من خمسة أيام قبل الأعياد والمناسبات الدينية وخمسة أيام بعدها ويسمونه  
"خروج"، مع ضمان حرية الطالب في العودة للمحاضرة، نظرا لكونه غير مرتبط  
بفصل دراسي، يلزمه اللحاق به<sup>71</sup>.

## 6- التخرج

تعتمد المحاضرة نظام التقويم المستمر، بشكل يتوافق مع بيئة المحاضرة ونظامها  
البدوي والنظام شبه العائلي الذي يعيش فيه الطلبة. وهو على نوعين:

1- **التقويم التكويني**: وهو التقويم المستمر السائد في المحاضرة، ومن أشكاله:

- **التقويم الذاتي الزمري**: وهو ظاهرة تنفرد بها المحاضر، وتأخذ شكل أحاجي  
وألغاز ومساجلات وتمرينات يختبر بها الطلاب بعضهم بعضا، ويشارك الشيخ  
عادة في هذه الجلسات لرصد مستويات الطلبة.

- **اختبار القافلة**: وهو أن يتعرض الطلاب للقوافل، أو العلماء والشيخ الذين  
يزورون المحاضرة، ويطلبوا من علمائها اختبار مستوياتهم العلمية، فيمتحنهم هؤلاء  
مع تقديم بعض التوجيهات والنصائح.

2- **التقويم النهائي**: وهو لا يتخذ شكل امتحان أو اختبار، وإنما يبني الشيخ  
تقويمه النهائي للطلاب على أدائه في سلسلة التقويمات التكوينية التي خاضها في  
أثناء دراسته، ويكفل الشيخ قراره بمنح الإجازة بناءً على هذا التقويم<sup>72</sup>. والإجازة  
نوعان:

- إجازة مقيدة: وتختص بعلم واحد كالفقه، أو النحو، أو الحديث. ويلزم فيها  
إثبات سلسلة رجال السند الذي أخذ عنهم.

- إجازة مطلقة: ولا تمنح إلا لأفراد قليلين من الناهجين الذين استكملوا جميع العلوم المدروسة في المحاضرة، وأخذوا كل ما عند الشيخ، وعادة ما يؤسس هؤلاء محاضر جديدة في أحيائهم<sup>73</sup>.

### خ- النظام الاجتماعي داخل المحاضرة

تعتمد المحاضر في مواردها على ما يملكه الشيخ من أبقار ونوق<sup>74</sup>، ويحرص الشيوخ أن يكفلوا حاجة طلبتهم الغذائية وقد لاحظ لأكروا أن أحد شيوخ المحاضر وهو أحمد يزيد بن حيايبي كان يعول 100 طالب على حسابه في محضرته<sup>75</sup>. لكن عدد زيادة عدد الطلبة يصبح على كل طالب جديد أن يجلب معه بقرة أو بدنة ليساهم بها في قوت المحاضرة<sup>76</sup>، ويدخل في هذا النفع المعيشي كثير من الطلاب الذين يسمون ب(المؤبدين)، وهم الطلبة الفقراء الذين لا يملكون ما يقدمونه لضمان معيشتهم طوال مدة الدراسة.

وقد انعكست البادية على اختار شيوخ المحاضر البقر بدلا من الإبل كمنحة من الطالب لدخوله المحاضرة لأسباب تتعلق بسهولة التعامل معها في حالة ابتعادها عن مكان المحاضرة في البادية على خلاف الإبل التي يصعب تقصيرها، وقد كتب الكثيرون شعرا في المفاضلة بينهما. كما أن حلب البقر لا يحتاج إلى جهد أم الإبل على العكس<sup>77</sup>، وكطريقة لتكريس التعاون والتكافل بين طلاب المحاضرة يتناوب طلاب المحاضرة على رعي بقر و إبل المحاضرة، فيخرج أحدهم للرعي مصطحبًا معه كتابه (أو لوحه) و يظل يقرؤه، ثم يخرج بعده طالب غيره، وهكذا حتى يدور الرعي عليهم جميعًا. وعادة ما ينقسم الطلبة في المحاضرة في شؤون الرزق إلى مجموعات صغيرة تسمى راحلة، تضم أربع افراد يقتسمون مالهم سواسية ويأكلون سواسية، وقد ينضم إليهم طالب مؤبد. وفي حالة ازدياد عدد المؤبدين

وعجز المحاضرة على إعالتهم يتكفل سكان أقرب قرية أو حي للمحاضرة بإعالة المؤيدين يومياً<sup>78</sup>.

وقد ولدت البيئة الصحراوية القاسية وظروفها الصعبة تكافلاً اجتماعياً بين أفراد المجتمع الشنقيطي وطلاب المحاضرة تجلى في هبات واستحقاقات مادية، منها<sup>79</sup>:

- شاة العادة: وهي شاة تقدم لطلاب المحاضرة عند كل زواج قريب من مكان المحاضرة تسمى (شاة العادة).
- منح ظهر عن كل ذبيحة في الحي
- تقديم عنق كل ذبيحة من الإبل
- مد عن كل ما تفد به قوافل الحي.
- الغدوة: وهي وجبات خاصة يعدها سكان القرية للطلبة إذا اكمل أحدهم دراسة متن من كبريات المتون
- منح ثلث ماء البئر أو ربعه للمحاضرة (إن أراد الشيخ أو طلابه).
- هدية من كل زائر للحي لطلبة المحاضرة
- مجموعة من الهدايا يمنحها الحي الذي تفد فيه المحاضرة لكل طالب محظري يحفظ القرآن.
- (جمع الختمة) ويأخذها الطالب بعد إنجائه حفظ ربع القرآن من كل بيت يمر عليه رافعاً لوحة خشبية مكتوب عليها آيات من القرآن الكريم.
- رسالة التلاميذ: وهي نص رسالة محددة تدعو و تحث سامعيها على التبرع للتكفل بمحاضرات المحاضرة من الأوراق والأحبار والأقلام وما شاكلها، يتلوها الطلاب على الأسر والعوائل المجاورة للمحاضرة التي

تتبرع لسد تلك الحاجات. كما تتكفل نساء الحي بخياطة وترقيع لباس  
الطلبة

- إذا تأخرت عودة بقر المحضرة ليلا يؤذن احد الطلبة آذان خاص  
فترسل كل الأسر ما يمكنها من حليب<sup>80</sup>.

### المحاضر وهوية موريتانيا المعاصرة:

عبر تاريخها الطويل لعبت المحظرة دورا جوهريا بل وأساسيا في تشكيل هوية المجتمع الموريتاني والحفاظ على البنى الثقافية فيه، وأصوله الإسلامية العربية، ففي الفترة الاستعمارية أثبتت المحظرة أمام السياسات الفرنسية أنها مؤسسة تعليمية لا يمكن هزيمتها، فالرغم من مجموعة القوانين والتنظيمات الفرنسية التي أرادت محاصرة وتنظيم المحضرة وإدخالها تحت الرقابة والرعاية الفرنسية<sup>81</sup> إلا أن الفرنسيون أعلنوا في كل مرة في تقاريرهم الإدارية والسياسية<sup>82</sup> فشل محاولاتهم في فرض سيطرتهم الثقافية على موريتانيا مرجعين سبب ذلك للمحظرة، ف André Lecourtois<sup>83</sup> و Paul Dubie<sup>84</sup> وغيرهما تحدثوا عن دور المحضرة في مواجهة التمدد الفرنسي في غرب إفريقيا، ودورها في الحفاظ على الهوية الموريتانية، ويتحدث Lecourtois عن دور مشايخ المحظرة في الحملة ضد نظام المدارس الفرنسية حيث حرّموا انخراط الأطفال الموريتانيين فيها<sup>85</sup>، ولم يقتصر دورها على المواجهة الثقافية، بل امتد إلى المواجهة السياسية، حيث أفضل شيوخ المحاضر سنة 1860 رحلة نقيب الأركان العامة هانري فينصان (Vincent) المبعوث من طرف الجنرال فيدرب (Faidherebe) إلى منطقة أدرار بموريتانيا التي كانت تمهد للتمدد العسكري في المنطقة،<sup>86</sup> كما افشلوا رحلة الرحالة والمستكشف الفرنسي رني كايي (René Caillé) أثناء تجوله واستكشافه في منطقة البراكنة بالجنوب الموريتاني سنتي 1824 و 1825 م<sup>87</sup>، كما أن حرب

القبائل الموريتانية ضد الفرنسيين سنة 1860 وحرب 1892 كانت بقيادة شيوخ المحاضر<sup>88</sup>.

وقد دفعت المواجهة بين المحاضر والسلطات الفرنسية العديد من شيوخ وخريجي المحاضر للهجرة إلى المشرق العربي، وهو الأمر الذي دفع المشاركة إلى اكتشاف ماتحتويه موريتانيا مع ثراء علمي كبير، يفوق ما عليه الحياة العلمية في عواصم الثقافة في مصر والشام والحجاز. لقد كان لهجرة بعض تلاميذ وخريجي الحضرة دور بارز في إعادة صياغة المنظومة التعليمية في كبار الجامعات الإسلامية نظراً للتمكن العلمي العميق للشناقطة، يرى طه حسين وزير التعليم المصري ما بين (1950-1952م) أن درس اللغة العربية في الأزهر لم يكن مهماً قبل مجيء الشيخ محمد محمود ولد التلاميذ الشنقيطي(ت: 1904م)<sup>89</sup>. الذي استطاع أن يقدم لدرس اللغة من القوة والهيبة والحضور ما لم يكن معروفاً به قبله، حيث عينه شيخ الأزهر محمد عبده شؤون تنظيم الدرس العربي في الأزهر، وأطلق يده في صياغة المناهج<sup>90</sup>. كما حقق دواوين الشعراء الجاهليين والقاموس المحيط، ووضع فهرست المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريا منتدبا في ذلك من طرف السلطان العثماني على الرغم من انه لم يكن من خريجي جامعات معروفة كالكثريين أو الزيتونة أو الأزهر، وإنما هو خريج محضرة بدوية شنقيطية متوارية في الصحراء<sup>91</sup>. كما كان لأحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي (ت: 1913م) دور بارز في تقويم مناهج الأزهر في الفقه والعلوم الإسلامية الأخرى<sup>92</sup>. و من الغريب أن أحد شيوخ المحاضر المهاجرين إلى مصر وهو محمد بن محمود الشنقيطي أعجز كل علماء الأزهر في مناظرته والتصدي له في اللغة والفقه والتوحيد ولم يتصدى له إلى شيخ شنقيطي آخر وهو مواطنه محمد الامين الشنقيطي،<sup>93</sup> ولا يزال خريجوا المحاضر إلى يومنا هذا يبهرون العالم الإسلامي بغزارة علمهم، ودقتهم العلمية

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية  
مجلة دورية دولية محكمة  
العجبية، ولعل محمد ولد الددو وبن بية الذي يرأس المعهد الاوروي للافتاء  
لايزالان شاهدان على براعة خريجي المحاضر العلمية مقارنة بغيرهم من خريجي  
الجامعات في العالم الإسلامي.

#### د- واقع المحاضر وتحدي البقاء

على الرغم من صمود المحاضرة في الحقبة الاستعمارية إلا أنها لم تحافظ على بريقها  
في فترة ما بعد الاستقلال، حيث اقتحم التعليم الرسمي النظامي الحياة العلمية في  
موريتانيا، وبات يشكل خطرا وجوديا على المحاضرة، وذلك لثلاث أسباب هي:

- **الاستقلال:** أصلح الاستقلال بين أجهزة الدولة والمواطنين، وبين  
المدرسة الرسمية والمواطن الموريتاني الذي كان يقاطع المدرسة الفرنسية  
لكونها مدرسة فرنسية تمثل ثقافة المستعمر، فبعد أن زال سبب التخوف  
منها بعد خروج الفرنسيين وقيام الدولة الوطنية<sup>94</sup>، بدأ التعليم الرسمي  
يفرض نفسه على شرائح واسعة من الشريحة الاجتماعية الخاصة عادة  
بالمحاضرة مبعداً لأعداد متزايدة من الطلاب عن ارتياد هذه المؤسسة  
فبعد أن كان عدد طلبة المحاضر يمثلون أكثر من 80% من الأطفال في  
سن الدراسة في المجتمع الموريتاني ما قبل الاستقلال، بات يمثل أقل من  
20% من عدد الطلبة المتمدرسين الآن. وبينما كان خريجو المحاضر  
يمثلون -حسب أول إحصاء بعد الاستقلال وهو إحصاء سنة 1977  
- 97% من المعلمين في المدارس الموريتانية<sup>95</sup>، بات الأمر مختلفا تماما  
الآن حيث لا يساهم خريجو المحاضر إلا بنسبة 17% في سلك  
التعليم. وكانت النسبة مقارنة تماما لموظفي قطاع الإعلام والقضاء  
والإدارة العامة والجيش الذي استوعب كما كبيرا من خريجي المحاضر



بعد الاستقلال الذي كان شبه حكر عليهم<sup>96</sup>. وبعد ظهور الجيل الجديد من خريجي النظام التعليمي الحديث وُضع خريجو المحاضر أمام معضلة عدم اعتراف أجهزة الدولة بهم، نظرا لعدم حصولهم على شهادات رسمية مقارنة بغيرهم من المتقنين<sup>97</sup>. وهو ما دفع الدولة الموريتانية بعد تأخر كبير للسعي لحل هذا التحدي، لذلك أسست سنة 1978م بدعم من المملكة العربية السعودية "المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية" محاولة استيعاب خريجي المحاضر، حيث يمنحهم المعهد بعد اتمام أربع سنوات من الدراسة شهادات تعادل الشهادة الجامعية. و تتيح لحاملها دخول سلك التعليم و القضاء و المحاماة والعديد من الوظائف الأخرى من جديد. كما أنشئت الدولة إدارة خاصة تشرف على المحاضر والتعليم الأصلي تتبع لوزارة الشؤون الإسلامية وتتولى الربط بين الدولة والمؤسسات المحظية وتقدم دعم مالي سنوي لها<sup>98</sup>، ولكن هذا الدعم ونظرا لفقر الدولة لم يكن بالقدر الكافي فالذي يحصل عليه شيخ المحظرة من الدولة الموريتانية لا يتجاوز 3000 أوقية أي أقل من 15 دولارا للسنة، وهو مبلغ لا يساوى لا يكفي لشيء، وقد وصلت تلك المساعدات المالية إلى 15000 أوقية وهو ما يزيد على 50 دولارا، أما عن المحاضر المركزية مثل محظرة أول مفتي موريتانيا الشيخ بداه ولد البوصيري فتحصل على مبلغ 150 ألف أوقية 600 دولار سنوياً، وهو مبلغ دعم ضعيفة جدا إذا ما قورنت بالمبالغ التي تصرف على المدارس الرسمية<sup>99</sup>. إضافة إلى تحبط سياسات الدولة اتجاه المحاضر يبرز عجز الدولة حتى على مستوى ضبط أعداد المحاضر، نظرا لغياب هيئات ذات كفاءة لاجراء احصاءات رسمية لأعداد المحاضر وتوزعها الجغرافي، وذلك نتيجة ضعف بنية الدولة

الموريتانية وغياب الكثير من المؤسسات فيها، وعزلتها عن العالم<sup>100</sup>، وتطرح إشكالية نقص الاحصاءات وتناقضها<sup>101</sup> وجودها أمام أي باحث في الموضوع، حيث تشير احصاءات وزارة الشؤون الإسلامية حسب تصريحات وزير الشؤون الدينية إلى وجود 6718 محظرة في كافة ربوع البلاد بمجموع 163912 طالبا.<sup>102</sup>، بينما يشير إحصاء أجري سنة 1995 إلى وجود 1728 بمجموع طلبة 88920 طالباً مقسمين على الأنواع الثلاث للمحاضر<sup>103</sup>.

- **الجفاف:** يعتبر الجفاف من أهم عوامل تراجع دور المحظرة في المجتمع الموريتاني، فقد قوض الجفاف أركان الحياة البدوية التي كانت تعيش فيها المحظرة، حيث أصاب موريتانيا لفترة طويلة امتدت من نهاية السبعينات والثمانينات إلى التسعينات واثرت كثيرا في استقرار البدو وعلى الاقتصاد الريفي والمواشي في الصحراء، ودفعتهم ظاهرة التصحر الناتجة عنه إلى الاستقرار في المدن تأميناً لحياتهم<sup>104</sup>، ومن مظاهر ذلك تقلص المراعي وقطعان البقر التي يعتمد عليها البدو وتعتمد عليها المحاضر في تأمين قوت طلبتها ففي سنة 1969م كان عدد الأبقار في موريتانيا قرابة 2400000 رأس، وبعد ستة سنوات فقط انخفض العدد إلى النصف تماما 1200000م واستمر في الانخفاض لينزل إلى 1120000 سنة 1996 تحت نصف المليون في بداية هذه الالفية.<sup>105</sup> وفقدت بذلك المحظرة جزءا كبيرا من مواردها ومن مجالها الحيوي.

- **التحول الديمغرافي من مجتمع بدوي إلى مجتمع حضري:** دفع الجفاف وظهور الدولة الوطنية المجتمع الموريتاني البدوي إلى الاتجاه نحو

الحضر والمدن الكبرى، كنتيجة للافقار الذي ضرب الصحراء التي كانت الموطن الأول للمحاضر، وشهد المجتمع الموريتاني تحولا دراماتيكيًا سريعًا في بنيتها، حيث انخفضت نسبة البدو الرحل بعد خمس سنوات من الاستقلال من 64% سنة 1965 إلى 32% سنة 1977<sup>106</sup>، وتشير الاحصاءات سنة 2011 إلى نسبة 41,5 % كنسبة الحضر في عموم البلاد، بمعدل تحضر سنوي يعادل 2,91%<sup>107</sup>. كما نشأت خلال عشرة سنوات فقط 40 قرية جديدة<sup>108</sup>، وكدليل على هذا التحول السريع تكفي الإشارة إلى أن العاصمة نواكشوط التي تأسست سنة 1957م تصاعد عدد سكانها بسبب هجرة البدو إليها هربًا من الجفاف<sup>109</sup> من 5807 سنة 1962م ليصبح 590.532 سنة 1988م<sup>110</sup>، وليصل إلى 881.000 سنة 2009م<sup>111</sup>. وهو ما يطلعنا على حجم الانحصر الذي ضرب المجال الحيوي للمحاضر وهو البادية والصحراء.

هذا التحول الدراماتيكي في البنية الاجتماعية والثقافية في المجتمع الموريتاني، سارع من عملية التحديث والعصرنة في المجتمع، وبالتالي وضع المحظرة أمام مشكلة وجودية وهي إما مواكبة العصر والتحليل من أهم خصائصها وهي البداوة والبساطة أو الاندثار<sup>112</sup>. هذا الوضع ولّد جدلاً عميقًا في أوساط العلماء والمثقفين الذين ينتمون إلى المحظرة بين تيار داعي لتطوير وعصرنة المحظرة، ومنتقد للطرق الكلاسيكية التي يصر عليها شيوخ المحاضر. حيث يدعوا محمد المهدي ولد محمد البشير الذي يعتبر إحدى التحديين، إلى وجوب الإسراع في تطوير مناهج وآليات المحظرة لانقاذها من حالة "الاغتراب" التي تعيشها ويعيشها خريجوها بسبب الانفصام بين المعارف التقليدية التي يتلقونها وبين الواقع الذي

يعيشونه، ويرى وجوب تطعيم مناهج المحظرة بالمناهج والعلوم الحديثة وعدم الاكتفاء بتقليد المناهج القديمة التي تجاوزها الزمن، ويضرب لذلك أمثلة عدة منها أن هناك فقرة في القانون الجنائي الموريتاني من وضع فقهاء المحضرة تعاقب على التبرج - وتفرض "الجزية على أهل الذمة"<sup>113</sup>. في مقابل هذا التيار التحيدي يقف تيار آخر يرفض أي نوع من انواع التحيدي، ويصر على أن سر تفوق مستوى طلبة المحظرة راجع أساسا لبدواتها وتقليدية مناهجها وأطرها،

ويفتخر أحد دعاة هذا التيار وهو الداه ولد سيداتي - وهو شيخ محضرة بالحوض الغربي - أن المحاضر في موريتانيا لا تزال تحافظ على أسلوبها في التدريس، رغم التكنولوجيا المتاحة وأنهم لم يغيروا حتى الآن سوى طريقة الإضاءة، حيث كانوا قديماً يستخدمون الحشب للإضاءة أما اليوم فالطلاب يستخدمون وسائل أخرى للإضاءة، مضيفاً أنه يرى أنه كانت هناك بركة في الإضاءة التي كانت موجودة آنذاك وفي الوسائل المستخدمة في تلك الحقب<sup>114</sup>. ويصر الشيخ باديدي ولد سيد الأمين على أن البركة والفائدة في هذه الطرق التقليدية أكثر من الطرق الحديثة مستدلاً بمستوى العلماء الذين تخرجوا من المحاضر بنظرائهم من العلماء الذين تخرجوا من الجامعات العالمية المشهورة مثل الأزهر والزيتونة<sup>115</sup>.

وبالرغم من تحدي البقاء الذي تواجهه المحظرة، والاسهامات الكبيرة التي قدمتها لشعب موريتانيا تبقى اشكالية التحديث في الحضرة مصرة على البروز أمام المدافعين عن وجودها، حيث باتت التكنولوجيا الحديثة وثورة الاتصالات والتقنيات تحاصر المحظرة في باديتها من كل مكان، خصوصاً مع قدوم الكثير من الأوروبيين والأمريكين للدراسة في هذه المحاضر التقليدية.

خاتمة

ويفتخر ولد سيداتي أن المحاضر في موريتانيا لا تزال تحافظ على أسلوبها في التدريس، رغم التكنولوجيا المتاحة وأنهم لم يغيروا حتى الآن سوى طريقة الإضاءة، حيث كانوا قديماً يستخدمون الخشب للإضاءة أما اليوم فالطلاب يستخدمون وسائل أخرى للإضاءة، مضيفاً أنه يرى أنه كانت هناك بركة في الإضاءة التي كانت موجودة آنذاك وفي الوسائل المستخدمة في تلك الحقب

ولدت المحظرة في الصحراء وعاشت فيها واستطاعت أن تكيف حياتها ونظمها التدريسية والاجتماعية وفقاً لمقتضيات الحياة البدوية، وبذلك استطاعت ان تحافظ على وجودها منذ أيام المرابطين وعبد الله ابن ياسين إلى غاية اليوم، كما استطاعت أن تميز البنية الفكرية للمجتمع الموريتاني عن غيره من المجتمعات العربية، حيث لازال الموريتانيون إلى اليوم يتفوقون على كافة العرب في مستواهم العالي في علوم اللغة والدين، واشتهروا كنتيجة لذلك ببلد المليون شاعر، وباتت المحظرة على الرغم من فقرها والحياة البدائية التي يعيش فيها طلبتها مقصداً للكثير من الطلبة من العالم الإسلامي والأوروبي على حد سواء، حيث باتت عدد الطلبة القادمون من أمريكا والدول الأوروبية يتزايد يوم بعد يوم، الذين باتوا يهربون من حداثة الحياة الغربية والمناهج التعليمية المتطورة إلى بدو الصحراء وبساطة النظام الحظري. إن صمود المحظرة الطويل بات مهدداً بعد ظهور الدولة الحديثة، والثورة العالمية في التعليم وسبله، حيث بات سؤال الأصالة أو التجديد مطروحا بشدة على المهتمين بهذه المؤسسات التعليمية، ولازال هذا النقاش حادا في الساحة السياسية والثقافية الموريتانية، وبات يحتل موقعا في برامج العديد من الأحزاب السياسية مثل حزب الإصلاحيون الوسطيون الموريتاني. ولعل الفضل الذي لعبته هذه المؤسسات في تزويد مؤسسات وإدارات دولة موريتانيا حفظ لها مكانا في جدول اهتمامات الدولة التعليمية حيث باتت الحكومة مؤخرا تهتم بتطوير شؤون

المحاضر والعناية بها، لكن تلك الجهود لازالت دون المأمول منها نظرا لمحدودية قدرات الدولية المالية والبشرية.

<sup>1</sup> استخدمت هذه التسمية على نطاق واسع بين فقهاء القرن التاسع عشر الداعين إلى تنصيب الإمام إحساساً منهم بمخطورة غياب النظام المركزي في البلاد. انظر كلاً من: الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت. 1226 هـ / 1811 م)، الرسالة الغلاوية، مخطوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.. و الشيخ سيدي الكبير (ت. 1284 هـ / 1868 م)، الميزان القويم والصراط المستقيم، مخطوط.

<sup>2</sup> قدر عددهم كايولاني سنة 1902 بحوالي 60000 من أصل 100000، أي ما نسبته 60% وفي السبعينات قدر عددهم بحوالي 490180 وهو ما يعادل 36% من السكان.

Francis de Chassey L'etrier, **La Houe et Le Livre: "Societes Traditionnelles" Au Sahara Et Au Sahel,** Occidental l'Harmattan, 1993, p 92.

<sup>3</sup> ولد السالم، حماد الله، المجتمع الأهلي الموريتاني: مدن القوافل 1898-1591. مركز دراسات الوحدة العربية، 2008، ص 32

<sup>4</sup> ولد السالم، حماد الله، الاسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى: دراسات ومراجعات دار الكتب العلمية، 2010، ص 45.

<sup>5</sup> محمد المختار بن السعد، شربه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1993، ص. 53.

<sup>6</sup> الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة والرباط، الرباط، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، 1987، ص 36

<sup>7</sup> الخليل النحوي، المصدر نفسه، ص 36

<sup>8</sup> الخليل النحوي، ص 39.

<sup>9</sup>شمس الدين الذهب، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ج 8، ص 47.  
<sup>10</sup>(انظر: الشيخ محمد المامي، كتاب البادية: صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ضمن: "مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي"، ط 1، 2007م.

<sup>11</sup>محمود، إزيد بيه بن محمد، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي: فصول في التاريخ السياسي الموريتاني الحديث، المطبعة الوطنية، موريتانيا، 2001. ص 51.

<sup>12</sup> Camille Douls, « Cinq mois chez les Maures nomades du Sahara occidental », Paris, Tour du Monde, I, 1888, pp. 117-224

<sup>13</sup> Camille Douls, Ibid, p 119.

<sup>14</sup> Ibid., p. 206

<sup>15</sup> Louis Faidherbe, Le Sénégal et la France dans l'Afrique occidentale, Paris, Hachette, 1889, 501 p., p. 45

<sup>16</sup> Desfontaines, Fragments d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786, p. 21.

<sup>17</sup> El Ghassem Ould Ahmedou, Traditional teaching in Mauritania: The Mahadra or school of camel, L'Harmattan, Paris, 1997,

<sup>18</sup> El Bou Ould Izid Bih el la, L'enseignement coranique traditionnel dans les Mahadras de Nouakchott : Etats des lieux et perspectives, Réseau Ouest et Centre Africain de Recherche en Education, Mauritania, 2009

<sup>19</sup> André Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel en Mauritanie*, Entreprises et développement, rapport final de l'expert, Montrouge (France), SEMA, 1978.

<sup>20</sup> المختار بن حامد، حياة موريتانيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 20؛  
النحوي، بلاد شنقيط، ص 118

<sup>21</sup> Francis de Chassey, Mauritanie, 1900-1975: facteurs économiques, politiques, idéologiques et éducatifs dans la formation d'une société sous-développée L'Harmattan, 1984, p 12.

<sup>22</sup> See his biography in: Henry Louis Gates and Kwame Anthony Appiah, Encyclopedia of Africa, Oxford University Press, 2010, p 221

<sup>23</sup> Nehemia Levtzion, "Abd Allah b. Yasin and the Almoravids", in: John Ralph Willis, Studies in West African Islamic History, p. 54.

<sup>24</sup> المختار ابن حامد، حياة موريتانيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 20  
<sup>25</sup> الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة... والرباط، المرجع السابق، ص. 66.

<sup>26</sup> مدينة موريتانية مندثرة تقع أطلالها بين مدينتي شنقيط ووادان، اشتهرت في المأثور الشعبي بأنها كانت أيام ازدهارها تحتضن ثلاثمائة فتاة تحفظ "موطاً" الإمام مالك.

<sup>27</sup> ولد سالم، حماد الله، الاسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى: دراسات ومراجعات  
دار الكتب العلمي 2010، ص 45

<sup>28</sup> البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المتني،  
بغداد، د. ت. ص، و Ibid, p 45 Francis de Chassey

<sup>29</sup> الطالب أحمد بن اطوير الجنة، الرحلة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفتون المطبعية 1982،  
ص 45

<sup>30</sup> ابن بطوطة، محمد اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب  
الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث، بيروت، د. ت. ص. 661.

<sup>31</sup> Fernand Braudel, Ecrits sur l'histoire, Flammarion, Paris, 1984, p. 298

<sup>32</sup> ولد سالم، حماد الله، الاسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى: دراسات ومراجعات  
دار الكتب العلمية، 2010، ص 56.

<sup>33</sup> ولد سالم، حماد الله، المجتمع الأهلي الموريتاني: مدن القوافل 1591-1898. مركز

دراسات الوحدة العربية، 2008، ص 103

<sup>34</sup> النحوي، شنقيط المنارة والرباط، ص 61



- <sup>35</sup> ولد عبد الله (ددود)، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17-18م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992-1993، ص 17.
- <sup>36</sup> محمود بن محمد، المحاضرة الموريتانية: الجامعة البدوية المتنقلة، مجلة التاريخ الإسلامي المغرب عدد 22، مجلد، 13، 1991، ص 199
- <sup>37</sup> إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، المكتبة العلمية، طهران، دون تاريخ، جزآن، مادة، حظر،
- <sup>38</sup> محمد الصوفي ولد محمد الأمين، المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، 1406 هـ، ص. 24.
- <sup>39</sup> النحوي، شنقيط المنارة والرباط، ص 116
- <sup>40</sup> محمود، إزيد بيه بن محمد، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي: فصول في التاريخ السياسي الموريتاني الحديث، المطبعة الوطنية، موريتانيا، 2001، ص 45.
- <sup>41</sup> النحوي، شنقيط المنارة والرباط، ص 165
- <sup>42</sup> النحوي، شنقيط المنارة والرباط، ص 54
- <sup>43</sup> Le Courtois, Etude experimentale sur l'enseignement traditionnel en Mauritanie, p 31
- <sup>44</sup> Le Courtois, Ibid, p 54.
- <sup>45</sup> El Ghassem Ould Ahmedou, Enseignement traditionnel en Mauritanie, p 54
- <sup>46</sup> النحوي، شنقيط المنارة والرباط، ص 66.
- <sup>47</sup> ولد سالم، حماد الله، الاسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى: دراسات ومراجعات دار الكتب العلمية، 2010، ص 54
- <sup>48</sup> نفسه، ص 57
- <sup>49</sup> محمود بن محمد، المحاضرة الموريتانية، ص 196
- <sup>50</sup> : El Bou Ould Izid Bih el la, L'enseignement coranique traditionnel dans les Mahadras de Nouakchott : Etats des lieux et perspectives, Réseau Ouest et Centre Africain de Recherche en Education, Mauritania, 2009, p 12

<sup>51</sup> El Bou Ould Izid, Ibid, p 12

<sup>52</sup> محمدمو بن محمدن، المحاضرة الموريتانية، ص 196

<sup>53</sup> El Bou Ould Izid, Ibid, p 12

<sup>54</sup> ولد السالم ، حماد الله، الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى: دراسات ومراجعات دار الكتب العلمية 2010، ص 61

<sup>55</sup> محمد مصطفى الندى، دور المحاضر في موريتانيا، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية - نواكشوط 1986، ص 21

<sup>56</sup> ولد عبد الله (ددود)، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر ( 17-18م)، ص 65.

<sup>57</sup> ولد عبد الله، المرجع نفسه، ص 66.

<sup>58</sup> ولد عبد الله، المرجع نفسه، ص 68

<sup>59</sup> El Ghassem Ould Ahmedou, Ibid, p 39.

<sup>60</sup> El Ghassem Ould Ahmedou, Ibid, p 41.

<sup>61</sup> الخليل النحوي، بلاد شنقيط، ص 167.

<sup>62</sup> أحمد الأمين المختار الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2002، ص 211-276.

<sup>63</sup> محمد بن سيدي محمد مولاي، التفسير والمفسرون ببلاد شنقيط. دار ابن تاشفين، موريتانيا، 2008، ص 41

<sup>64</sup> محمود بن محمد المختار الشنقيطي، لماذا الشناقطة يحفضون، كتاب الكتروني، دون بيانات نشر، ص 5

<sup>65</sup> محمود بن محمد المختار الشنقيطي، لماذا الشناقطة يحفضون، ص 8

<sup>66</sup> محمد بن سيدي محمد مولاي، التفسير والمفسرون ببلاد شنقيط. دار ابن تاشفين - كيفية / موريتانيا، 2008، ص 36

<sup>67</sup> المختار بن محمد موسى، المحاضر الإسلامية في موريتانيا، مجلة الجماهيرية العربية للتربية والعلوم والثقافة، العدد 32، ديسمبر 1987، ص 40.

<sup>68</sup> الخليل النحوي، ص 147؛ محمد بن سيدي، التفسير والمفسرون ببلاد شنقيط، ص 41

<sup>69</sup> محمد بن سيدي، التفسير والمفسرون ببلاد شنقيط، ص 52؛ الخليل النحوي، بلاد

شنقيط، ص 147

<sup>70</sup> محمد المصطفى الندي، دور المحاضر في موريتانيا، ص 65

<sup>71</sup> النحوي، بلاد شنقيط، ص 168.

<sup>72</sup> El Ghassem Ould Ahmedou, Enseignement traditionnel en Mauritanie, p 76.

<sup>73</sup> محمد ولد محمد مختار، نظام التقييم في المدرسة التقليدية، مجلة التعليم، موريتانيا، العدد:

28، السنة: 1418هـ، ص 42.

<sup>74</sup> Ould Izid indicate that 42% of the food of the Mahadaras in Mouritania, is provided by the Shieks. See: El Bou Ould Izid Bih el la, L'enseignement coranique traditionnel dans les Mahadras de Nouakchott: Etats des lieux et perspectives, Réseau Ouest et Centre Africain de Recherche en Education, Mauritania, 2009, p 25

<sup>75</sup> André Lecourtois, Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel, 1978, p. 37

<sup>76</sup> According to Ould Izid, the society contribute by 7% of the food supply, see: Ould Izid, Ibid, p 25

<sup>77</sup> الخليل النحوي، بلاد شنقيط، ص 142

<sup>78</sup> محمد مصطفى الندي، دور المحاضر في موريتانيا، ص 45؛ الخليل النحوي، بلاد

شنقيط، ص 143

<sup>79</sup> According to Ould Izid, the society contribute by 34% of the food supply, see: Ould Izid, Ibid, p 25

<sup>80</sup> محمد مصطفى الندي، دور المحاضر في موريتانيا، ص 45؛ الخليل النحوي، بلاد

شنقيط، ص 143.

<sup>81</sup> في سنة 1903م منعت السلطة الاستعمارية افتتاح أي محاضرة جديدة، وأنشئت لجان

مراقبة للمحاضر الموجودة، وطرقت العديد من طلبتها الذين تتراوح أعمارهم من 6 إلى 16

عامًا تم توجيههم قسرا للمدارس الفرنسية، ولما لم تؤت سياسة العصا الغليظة عمدت

السلطات الفرنسية إلى أساليب الترغيب، أملاً في أن تكون أجدى في اختراق جدار المحاضرة

المنيع، فأصدر في 12 يونيو 1906م مرسوماً يقضي بصرف منحة تشجيعية قدرها 300

فرنك فرنسي لكل شيخ محاضرة (أو كتاب) يأمر طلابه بتخصيص وقت لتعلم اللغة الفرنسية.

لكن مع ذلك لم يستجب أي شيخ لهذه المبادرة. انظر: Francis de Chassey p 65-72

Pettigrew, Erin, Colonizing the Mahadra: Language, Identity, and Power in Mauritania Under French Control, *Ufahamu: A Journal of African Studies*, 33(2-3), 2007, p 62-89.

<sup>82</sup> انظر تقرير من الحاكم الفرنسي العام لغرب إفريقيا إلى وزير المستعمرات الفرنسي يتعلق بمهمة كوبولاني في منطقة الترارة بالجنوب الغربي الموريتاني (ديسمبر/ كانون الأول 1902)، الأرشيف الوطني الموريتاني، نواكشوط، الملفّ E 18 / وتقرير شينوي رئيس مصلحة التعليم الإبتدائي شينوي في تقرير بتاريخ غرة أكتوبر سنة 1934: تقرير رقم 795، 1934/10/01، الأرشيف الوطني، نواكشوط/ موريتانيا. (ملف 44. E2/ نقلاً عن: الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة... والرباط، المرجع السابق

<sup>83</sup> André Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel*, 1978, p. 32.

<sup>84</sup> des Maures, *Mémoires de l'I.F. AN.* (Institut Français de l'Afrique Noire), n. 23, Dakar, 1953, pp. 111-252, p. 119.

<sup>85</sup> نتيجة سياسة المقاطعة قدرت نسبة التلاميذ في المدارس في كل موريتانيا سنة 1932 بـ 1,1% من اجمالي عدد الأطفال في سن الدراسة، وكان عدد مجموع الطلبة في المدارس النظامية سنة 1932 ، 438 تلميذا فقط مقسمين على 7 مدارس فرنسية. Francis

Dechassey, *La Mauritanie 1900-1975, L'etrier, la Houe et le Livre* Ed. Anthropos, Paris 1977, p 156

<sup>86</sup> Henri Vincent, «Voyage et expédition au Sénégal et dans les contrées voisines. Voyages dans l'Adrar et retour Saint-Louis», Paris, Tour du Monde, 1860, pp. 17-33 et pp. 49-64.

<sup>87</sup> René Caillé, *Voyage Tombouctou*, Paris, 1989, Editions la Découverte.

<sup>88</sup> sériz D: *Affaires militaires (1763-1920): Sous-série 1 D: Opérations militaires, Sénégal et Dépendances (1823-1894), Expédition contre les Maures, 1854-1856.*

<sup>89</sup> طه حسين، الأيام، دار المعارف، مصر، ج 1، ص 154.

<sup>90</sup> محمد رشيد رضا، مجلة المنار - المجلد: 4، ص: 441، العدد الصادر بتاريخ:

1319/5/16 هـ / 1901/8/31؛ المجلد: 5، ص: 634، العدد الصادر بتاريخ:

1320/8/16 هـ

أحمد حسن الزيات، مجلة الأزهر - العدد: 22 - الصادر بتاريخ: 1381 هـ / 1961 م  
<sup>91</sup> عبد العزيز بن عبد الله السنبل، دور المحاضرة في بلاد شنقيط، منشورات المنظمة العربية

للتقافة والعلوم، المغرب، دت، ص 11

<sup>92</sup> ادريسي، أبو علي القلطي، أعلام الشناقطة في الحجاز و المشرق: جهودهم العلمية  
و قضاياهم العامة من القرن الخامس الى القرن الخامس عشر الهجريين. دار النشر الدولي  
للنشر و التوزيع، 2009، ص 211.

<sup>93</sup> ماء العينين ولد محمد الأمين، ابن التلاميذ الشنقيطي حياته وآثاره في النحو واللغة،

ماجستير من جامعة الفاتح، طرابلس، السنة الجامعية 1984 م. ص 117

<sup>94</sup> محمود، إزيد بيه بن محمد، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي: فصول

في التاريخ السياسي الموريتاني الحديث، المطبعة الوطنية، موريتانيا، 2001، ص 76.

<sup>95</sup> André Lecourtois, Etude expérimentale sur  
l'enseignement islamique traditionnel, 1978, p

<sup>96</sup> محمد المصطفى الندى، دور المحاضر في موريتانيا، ص 98

<sup>97</sup> RAMS PROJECT, Rural Assessment and Manpower  
Surveys (Mauritania) (Non-Formal Education), 1981, p 13;  
Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique  
traditionnel en Mauritanie*, p 63

<sup>98</sup> محمد عبد الرحمن، المحاضر الموريتانية، قلاع العلم الصامدة في أعماق الصحراء، مجلة الرؤية

القطرية، 2010/09/10.

<sup>99</sup> Ould Ahmedou, Elghassem et autres. Mise en place de  
passerelles entre les deux systèmes éducatifs moderne et  
traditionnel. Dactylo, p 188

<sup>100</sup> El Ghassem Ould Ahmedou, Enseignement traditionnel  
en Mauritanie, p 187.

<sup>101</sup> يتوفر بين ايدينا إحصاء سنة 1973، الذي يتسم بعدم الدقة والتناقضات الكثيرة زيادة على عدم تغطيته لكافة أنحاء البلاد، ويتعارض هذا الإحصاء مع إحصاء الباحث الفرنسي le Courtois الذي نشره سنة 1978م  
<sup>102</sup> أكاديمي موريتاني يحاضر في تونس حول تجربة بلاده في مجال التعليم المحظري. صحراء ميديا، نواكشوط 15 سبتمبر 2012

<sup>103</sup> El Bou Ould Izid Bih el la, L'enseignement coranique traditionnel dans les Mahadras de Nouakchott: Etats des lieux et perspectives, Réseau Ouest et Centre Africain de Recherche en Education, Mauritania, 2009, p 12

<sup>104</sup> Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel en Mauritanie*, p 76

<sup>105</sup> Source: FAOSTAT 2006; n.r. no record  
الإحصاء الموريتاني الوطني لسنة 1977<sup>106</sup>

<sup>107</sup> CIA World Factbook  
المنظمة العربية للثقافة والعلوم، الجمهورية الإسلامية الموريتانية، دراسة مسحية شاملة ص .774

<sup>109</sup> Catherine Taine-Cheikh, The (R)Urbanization of Mauritania, Historical context an contemporary developments, Arabic in the City. Issues in dialect contact and language variation, C. Miller, E. Al Wer, D. Caubet & J. Watson (Ed.) (2007) 35-54"

<sup>110</sup> Ould Cheikh, A. W. (2006) "Nouakchott, capitale nomade?", in Nouakchott capitale de la Mauritanie: 50 ans de défi, Saint Maur des Fossés: Sépia, pp. 139-148.

<sup>111</sup> Nouakchott Travel Guide. World66. Accessed 25 December 2013.

<sup>112</sup> Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel en Mauritanie*, p 199

<sup>113</sup> محمد المهدي ولد البشير، لا يمكن القضاء على الإرهاب قبل تغيير مناهج المحاضرة، موقع اقلام 2011-02-05

---

<sup>114</sup>محمد ولد شينا، التكنولوجيا تغزو قلاع موريتانيا العلمية، مجلة المجتمع، تاريخ :

31-08-2013

<sup>115</sup>محمد ولد شينا، المرجع نفسه.

## قراءة في تاريخ ودوافع البرنامج النووي الإيراني

شريفة كلاع

أستاذة محاضرة "ب"

جامعة الجزائر3

### الملخص:

تعود الجهود الإيرانية للحصول على الطاقة النووية إلى عدة عقود، من خلال عهدين مختلفين في إطار ما يعرف بالبرنامج النووي، حيث كان الأول في ظل حكم الشاه أما الثاني بعد وقوع الثورة الإسلامية، وما يزال قائما حتى الآن. لذلك تسعى دراستنا إلى تتبع تاريخ البرنامج النووي الإيراني، وكذا بيان الدوافع الإيرانية الكامنة للحصول على الطاقة النووية.

**الكلمات المفتاحية:** إيران، تاريخ إيران، البرنامج النووي.

### **Abstract:**

The Iranian efforts to obtain the nuclear power get to several decades, through two different eras in the context of what is known as the nuclear program, the first was period under the rule of the



Shah and the second after the Islamic revolution, and remains till. Therefore, our study seeks to trace the history of Iran's nuclear program, as well as the hidden motives behind the Iranian motives for nuclear power.

### مقدمة:

استحوذ البرنامج النووي الإيراني على حيز كبير من اهتمامات الحكومات الإيرانية المتعاقبة منذ عهد الشاه "محمد رضا بهلوي"، والذي مثل اهتمامه بالطاقة النووية جزءاً من جهوده الرامية إلى تحويل إيران قوة إقليمية، وتواصل هذا الاهتمام بعد قيام الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979 رغم تعثره في بعض الفترات ليبقى طموحاً قوياً يدفع بإيران إلى المطالبة بأحققتها في امتلاك الطاقة النووية، وسنحاول في تبيان تاريخ البرنامج النووي الإيراني وكذا دوافعه من خلال تناول النقاط التالية:

### المحور الأول: تطور البرنامج النووي الإيراني

مر البرنامج النووي الإيراني بعدة مراحل منذ بداياته حيث استمرت إيران في مساعيها لامتلاك التقنية النووية عبر مختلف مراحل إدارتها، إذ كانت فترة ما بعد الحرب الأمريكية على العراق 2003 مرحلة اشد فيها الجدل حول البرنامج

النووي الإيراني عندما ثبت أن إيران تستعمل وبشكل سري تقنيات الوقود النووي الدورية، وعليه سنحاول بيان تطور البرنامج النووي الإيراني.

كانت بدايات البرنامج النووي الإيراني من خلال التعاون الوثيق مع الولايات المتحدة منذ منتصف الخمسينيات، حيث وضعت الولايات المتحدة أسس علاقات استراتيجية وثيقة مع نظام الشاه "محمد رضا بهلوي" وجاء التعاون النووي بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية من خلال برنامج الذرة من أجل السلام، وهو برنامج كان الرئيس الأمريكي "دوايت إيزنهاور" قد أعلنه في 8 ديسمبر 1953، في كلمته أمام الدورة السنوية للجمعية العامة للأمم المتحدة بهدف إتاحة الطاقة الذرية أمام الاستخدامات السلمية لدول العالم بحيث يمكن أن تستخدم هذه الطاقة كذلك في أغراض التنمية وتوليد الطاقة وغير ذلك من الاستخدامات السلمية<sup>(1)</sup>.

وعلى أساس هذا البرنامج وقعت إيران في عام 1957 مع الولايات المتحدة على اتفاقية للتعاون النووي في المجالات المدنية مدتها عشر سنوات حيث حصلت إيران بموجبها على مساعدات نووية فنية من الولايات المتحدة<sup>(2)</sup>، وعلى عدة كيلوغرامات من اليورانيوم المخصب للأغراض البحثية، كما تعاون الجانبان في البحوث المتعلقة بالاستخدامات السلمية للطاقة الذرية. وفي نفس العام قامت الولايات بنقل معهد العلوم النووية من بغداد إلى طهران وكان هذا المعهد يتبع

منظمة الحلف المركزي (حلف بغداد)، الذي كان يضم الولايات المتحدة والعراق وإيران وتركيا وجرى هذا النقل لأسباب سياسية في ظل التوترات الداخلية التي كانت تتزايد آنذاك في العراق، وكانت هذه الخطوة محط ترحيب كبير من طرف الشاه وقد أعرب عن اهتمامه الشخصي بالطاقة النووية<sup>(3)</sup>، وبعد زيارة الشاه لفرنسا عام 1957 وإطاعه على أحد المفاعلات النووية تم تشكيله للجنة الخبراء بعد عودته مباشرة لدراسة إمكانية بناء مفاعل نووي في إيران، وقد كثف الشاه الاتصالات مع كل من فرنسا وألمانيا الغربية للاتفاق معها على بناء المفاعل النووي الإيراني، وعلى إثر ذلك تم إنشاء مركزين للبحوث النووية الأول في جامعة طهران والثاني قريب من مدينة أصفهان في عام 1958 بعد تزويد الولايات المتحدة لإيران بمفاعل نووي صغير سعته 5 ميغاواط للأبحاث النووية، وخلال عام 1960 تم استحداث برنامج للبحوث النووية المشتركة بين إيران وإسرائيل وأطلق عليه اسم برنامج "الزهرة"، وقد بين الشاه سياسة دولته في هذا المجال من خلال كتابه "مهمة لبلادي" عام 1961 بضرورة أن تكون إيران من الدول المعنية بالعلوم النووية ورغبتها في استخدام الذرة سلمياً، وهذا ما تدعمه بانضمام إيران إلى المنظمة الدولية للطاقة الذرية في 1 جوان 1968 ومن خلال مصادقتها على

معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية (NPT\*) في 2 فيفري 1970. لقد تمكنت إيران من تحقيق أرباح كبيرة نتيجة تصدير النفط بعد الأزمة الدولية عام 1973، وهذا ما وفر لها التكاليف الباهضة اللازمة لتتحول من مجال الأبحاث النووية إلى مجال التطبيق، وعلى إثر ذلك تم الاتفاق مع ألمانيا الغربية في عام 1975 على تزويد إيران بالتقنية اللازمة لتخصيب اليورانيوم وإعادة معاملة البلوتونيوم وبناء مفاعلين الأول في منطقتي بوشهر والثاني في منطقة الأهواز، تبلغ طاقة كل منهما 1200 ميغاواط، وخلال عامي 1976-1977 تم إنجاز بناء المحطتين واستيراد الأجهزة والمعدات اللازمة لها. وعلى صعيد التعاون مع فرنسا فإنه تم الاتفاق على بناء أربعة مفاعلات فرنسية في مدينة "دارخوين" عام 1977، بالإضافة إلى ذلك أسهمت إيران في تمويل مشروعين فرنسيين لتخصيب اليورانيوم هما مجعما "يورديف وكورديف" بنسبة 5.2% و 25% من تكاليف إنشائهما بغية تأمين القاعدة اللازمة للحصول على الوقود النووي، وفي مجال الحصول على الوقود النووي أكدت تقارير الوكالة الدولية للطاقة الذرية في أواخر السبعينيات امتلاك إيران لحصة تبلغ 10% في إحدى الشركات البريطانية لاستخراج اليورانيوم من جنوب إفريقيا وأن لإيران ممثلين في مجلس إدارة هذه

---

\*NPT: هي اتفاقية للحد من انتشار الأسلحة النووية، بدأ التوقيع عليها في

1968/7/01، وحتى الآن وقعت على الاتفاقية 189 دولة.

الشركة، بالإضافة إلى إعلان إيران عن اكتشاف احتياطي كبير من مادة اليورانيوم في منطقة "كرمان"<sup>(4)</sup>.

وفي جهة أخرى كان الجانب الإيراني يعمل على زيادة تطوير تكنولوجيا تخصيب الليزري، حيث حصلت إيران على أربعة أجهزة ليزر من الولايات المتحدة في عام 1978، ولم يكتف الشاه بالتعاون مع الدول الرئيسية الثلاث الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا الغربية، بل اهتمت بالتعاون في المجالات النووية مع كل من الأرجنتين والهند وأستراليا والدنمارك وجنوب إفريقيا، فقد وقعت اتفاقا مع الأرجنتين على التعاون في المجال النووي في ماي 1974 وبموجب هذا الاتفاق زار طهران الأدميرال "أرماندو كويهلان" الرئيس السابق للجنة الطاقة الذرية بالأرجنتين في ماي 1974، وقدم لإيران نصائح بشأن برنامجها النووي. أما بخصوص الهند فقد وقعت إيران اتفاقا في فيفري 1975 للتعاون النووي الشامل مع الهند، وفيما يخص التعاون بين إيران وجنوب إفريقيا فإن التعاون تركز بالأساس في مجال الحصول على اليورانيوم، حيث وافقت جنوب إفريقيا في عام 1976 على تزويد إيران بما قيمته 700 مليون دولار من الكعكة الصفراء\* في مقابل قيام إيران بتمويل عملية بناء محطة لتخصيب اليورانيوم في جنوب إفريقيا<sup>(5)</sup>.

وعلى إثر نجاح الثورة الإسلامية في إيران تأثر البرنامج النووي الإيراني بعد سقوط الشاه عام 1979 تأثراً كبيراً، فقد توقفت المساعدات الأمريكية وتوقف العمل بالمفاعلات النووية الفرنسية والألمانية، وتم تجميد نسبة المساهمة الإيرانية في مجمعي "يورديف وكورديف". أما على الصعيد الداخلي فقد أعرب "الخميني" وحكومة الملالي بعدم حاجة إيران الإسلامية إلى تكنولوجيا الغرب مما أدى إلى توقف البرنامج النووي كلياً بشكل مؤقت، وإبان الحرب العراقية - الإيرانية شهد البرنامج النووي الإيراني انتعاشاً من جديد بعد استئناف لجنة الطاقة الذرية الإيرانية لعملها وكان آية الله "المجسّي" وهو المشرف الأول على تطوير البرنامج النووي في حينه والذي سعى إلى التعاون مجدداً مع أوروبا وباكستان، وهكذا أعيد العمل بالمفاعلات النووية الإيرانية بعد طرح الموضوع على مجلس الشورى والحصول على موافقته، وتم عقد ندوة في مركز العلوم النووية في "أصفهان" عام 1981 جرى خلالها تقويم عمل منظمة الطاقة الذرية الإيرانية والتأكيد على نهج الدولة في مواصلة الجهد لبناء محطة نووية في إيران وتطوير تكنولوجيا أنظمة الوقاية النووية<sup>(6)</sup>.

ولم تتسبب الحرب مع العراق في وقف محاولات حكومات الثورة الإيرانية في استكمال المشروعات النووية، فقد ركزت الجهود الإيرانية على اتجاهات محددة

تمثلت في: استكمال "محطة بوشهر للطاقة" واستكمال البنية النووية الأساسية والعمل على استعادة الكوادر العاملة في المجال النووي، والتعاون مع أكبر عدد ممكن من الدول في المجالات النووية<sup>(7)</sup>، لقد بدأت إيران تظهر اهتماما في فصل "النظائر بالليزر" في منتصف الثمانينيات إذ سعت للحصول على الدعم الخارجي من عدة مصادر، ووقعت مع باكستان اتفاقية للتعاون النووي عام 1987، وبدأ مختصون من مؤسسة الطاقة الذرية الإيرانية التدرّب في باكستان وكان العالم النووي الباكستاني "عبد القدير خان" الذي قاد جهود باكستان لتطوير مواد الأسلحة النووية، قد قام بزيارة طهران وبوشهر في فيفري 1986 وجانفي 1987، وقامت إيران بتقوية صلاتها في مجال البحوث النووية مع الصين الشعبية، ووقعت الدولتان اتفاقية تعاون رسمية في مجال البحوث النووية عام 1990. ويبدو أن الجهود الإيرانية في المجال النووي قد اكتسبت المزيد من الحماس بعد الحرب العراقية - الإيرانية حيث اعتمدت إيران بقوة على كل من روسيا الاتحادية والصين الشعبية، وفي سبتمبر 1992 ذكرت تقارير أن الرئيس الإيراني السابق "هاشمي رافسنجاني" أنهى مفاوضات خاصة بشراء مفاعل أو اثنين بطاقة 300-330 ميغاواط من الصين الشعبية خلال زيارته لبكين، وهو ما أدى إلى احتجاج الولايات المتحدة الفوري لدى الصين<sup>(8)</sup>. وفي 13 أبريل

1993 وافق البرلمان الإيراني على اعتماد 2.2 مليار دولار لإنشاء أربع محطات نووية لتوليد الطاقة الكهربائية بقوة إجمالية تبلغ 120 ميغاواط، وقد سعت إيران إلى تحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي من أجهزة الطرد المركزي عن طريق تطوير قدراتها في مجال صنعها محلياً، وفي الفترة الممتدة بين عامي 1993 و 1995 حصلت على ما يكفي لتصنيع 500 جهاز طرد مركزي بالتعاون مع ألمانيا وأنشأت أربعة أجهزة مشابهة لجهاز "P1" الباكستاني تبلغ سعة كل منهما حوالي ثلاث وحدات عمل منفصلة، واستطاعت على امتداد الفترة 1997 – 2002 أن تصنع جميع مكونات اليورانيوم، بما في ذلك "سادس فلوريد اليورانيوم" (Uranium Hexafluoride) ذاتياً مستخدمة ما يراوح بين 15 و 20 آلة. كما تمكنت إيران من اختبار أجهزة الطرد المركزي كافة واستخدمت خلال الفترة الممتدة بين 2 نوفمبر 2006 و 17 فيفري 2007 وفق أحد تقارير الوكالة الدولية للطاقة الذرية ما مقداره 66 كغ من "سادس فلوريد اليورانيوم"، ونجحت في تخصيب اليورانيوم عند مستوى يقل عن 5%، كما بدأت منذ فيفري 2007 اختبار أجهزة الطرد المركزي من الجيل الثاني<sup>(9)</sup>، وكانت أزمتهما مع الغرب قد بدأت منذ عام 2002 حين أعلنت المعارضة الإيرانية وجود برنامج سري، إلى جانب البرنامج المعلن تشرف عليه المؤسسة العسكرية الإيرانية، وبذلك بدأت حملة تصعيد أمريكية ضد إيران تتهمها فيها بالسعي لبناء مفاعلين جديدين للماء



الثقيل الذي يمكن استعماله لصنع "البلوتونيوم" اللازم لصنع الأسلحة النووية، وكان عام 2003 العام الذي اشتد فيه الجدل حول البرنامج النووي الإيراني، كما زاد القلق الدولي حول الأنشطة النووية الإيرانية عندما صرح الرئيس الإيراني السابق "خاتمي" في فيفري من نفس العام وللمرة الأولى عن نية البلاد تطوير دورة وقود نووي كاملة من تعدين خام اليورانيوم ومعالجته لاستعماله في المفاعلات الكهربائية النووية إلى إعادة معالجة الوقود المستخدم<sup>(10)</sup>. وفي عام 2004 كشفت صور من الأقمار الاصطناعية أن مفاعل "ناتانز\*" الذي يحوي مقر برنامج الطرد المركزي ينتج مواد انشطارية يمكن استخدامها في تصنيع ما يراوح 25 و 30 سلاحا نوويا<sup>(11)</sup>. وقد تزايدت هذه الأزمة مع وصول الرئيس "محمود أحمدي نجاد" إلى السلطة وإعلانه تمسك بلاده بحقها في الاستخدام السلمي للتقنية النووية، وفي مارس 2006 منع مفتشي الوكالة الدولية من تفتيش مواقع نووية داخل إيران وأعلن استئناف بلاده أنشطة تخصيب اليورانيوم التي كانت قد علقتها مؤقتا، وهو ما أدى إلى نقل القضية إلى مجلس الأمن الدولي. وقد قادت الترويكا الأوروبية ممثلة في المنسق الأعلى للسياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي ووزراء خارجية كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا جهودا من أجل التوصل إلى صيغة متفق عليها توقف إيران بموجبها أنشطة التخصيب إلا أن ذلك لم يثن إيران عن

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية مجلة دورية دولية محكمة  
الاستمرار في تطوير قدراتها النووية<sup>(12)</sup>. واستمر رفض إيران لوقف تخصيب  
اليورانيوم حتى بعد قيام الدول دائمة العضوية بتقدم حزمة مطالب وحواجز  
لظهران، إضافة إلى تهديد بفرض عقوبات ضدها في حالة عدم الاستجابة خلال  
شهرين وهو ما حملته ممثل السياسة الخارجية للإتحاد الأوروبي "خافيير سولانا" يوم  
6 جويلية 2006، وكان الرد الإيراني عليها أن بعض هذه المطالب جدير  
بالقبول وبعضها الآخر بحاجة للدراسة. وقاد الرفض الإيراني المتواصل لوقف  
تخصيب اليورانيوم إلى تبني مجلس الأمن في 31 جويلية 2006 وبغالبية 14  
صوتا مقابل صوت واحد قرارا يمهّل إيران شهرا ينتهي في 31 أوت لتعليق  
نشاطات تخصيب اليورانيوم تحت طائلة احتمال فرض عقوبات عليها في حال  
عدم امتثالها، وقبل انتهاء المهلة جاء الرد الإيراني بأنه من المستحيل تعليق تخصيب  
اليورانيوم الذي تطالب به القوى الكبرى، كما رفضت إيران عرض هذه الدول  
بالتعاون مقابل تعليق عملية التخصيب رغم التهديد بالعقوبات الدولية، وقد  
صرح "محمد سعيدي" نائب رئيس المنظمة الإيرانية للطاقة الذرية بتاريخ 21 أوت  
2006 أنه "بعد التقدم الذي حققه العلماء الإيرانيون وفي الظروف الراهنة بات  
تعليق عمليات تخصيب اليورانيوم مستحيلا"، كما أعلن المرشد الأعلى للجمهورية  
الإسلامية آية الله "علي خامنئي" أن إيران ستواصل برنامجها النووي بقوة، وقال

"في الملف النووي وملفات أخرى تعتمز إيران مواصلة طريقها بقوة معتمدة على الله ومتحلية بالصبر والمثابرة وستحني الثمار"<sup>(13)</sup>.

## المحور الثاني: الدوافع الإيرانية لامتلاك الطاقة النووية

هناك ترابطا كبيرا بين مدركات الأمن ورؤية القيادة الإيرانية للحصول على الطاقة النووية، وعليه سنحاول تبيان الدوافع الإيرانية لامتلاك الطاقة النووية. إذ تنطلق رغبة إيران في امتلاك قدرات صنع لامتلاك الطاقة النووية بعدد من العوامل الثابتة، ومن بينها وجود قوى نووية أخرى في المنطقة، ورغبتها في النزوع إلى تبوء مكانة هامة، وكذا ضغوط المؤسسة النووية داخل القيادتين المدنية والعسكرية في إيران<sup>(14)</sup>، على الرغم من كافة التأكيدات الإيرانية الرسمية بأن الجمهورية الإسلامية لا تسعى لامتلاك سلاح نووي وما لديها برنامج للطاقة النووية للأغراض السلمية، فإن هناك مبررات تفسر اهتمام إيران بتطوير البرامج النووية:

- على الصعيد الإيراني الداخلي: يلاحظ أن البرنامج النووي الإيراني أضحى

مشروعا إيرانيا قوميا لا يعد ضمن قضايا الخلاف بين الإصلاحيين والمحافظين، انطلاقا من أن امتلاك هذا البرنامج يعد ضامنا للمحافظة على هوية إيران الثورية.

- على الصعيد الإقليمي: أن التحولات الإقليمية المحيطة بإيران تؤكد وجود

مخاطر مستقبلية تهدد الجمهورية الإسلامية ابتداء باختيار الاتحاد السوفياتي وما تركه

من فراغ، ومرورا بحرب العراق عام 2003 التي أطاحت بالنظام العراقي السابق وأسفرت على وجود أمريكي مستمر في المنطقة، وانتهاء بدعاوي الإصلاح والديمقراطية التي تطالب بها الولايات المتحدة والتي لم تكن إيران مستثناة منها، ومن ناحية أخرى تحاط إيران بقوى نووية هي باكستان والهند وإسرائيل التي يثار الغموض حول ملفها النووي والتي تهدد بالقيام بضربة استباقية للمواقع النووية الإيرانية، وبالتالي سعي إيران لتطوير تلك البرامج يصبح أمرا مبررا من طرفها<sup>(15)</sup>. كما أن استمرار نشاطها الرامي إلى بناء قدرة نووية كانت له بعض العوامل المساعدة من أهمها:

✓ - انتشار التكنولوجيا والسهولة النسبية في الحصول عليها خاصة بعد تفكك الاتحاد السوفياتي واستقلال بعض جمهورياته ذات التسليح النووي.

✓ - عدم انضمام إسرائيل لمعاهدة منع الانتشار النووي<sup>(16)</sup>.

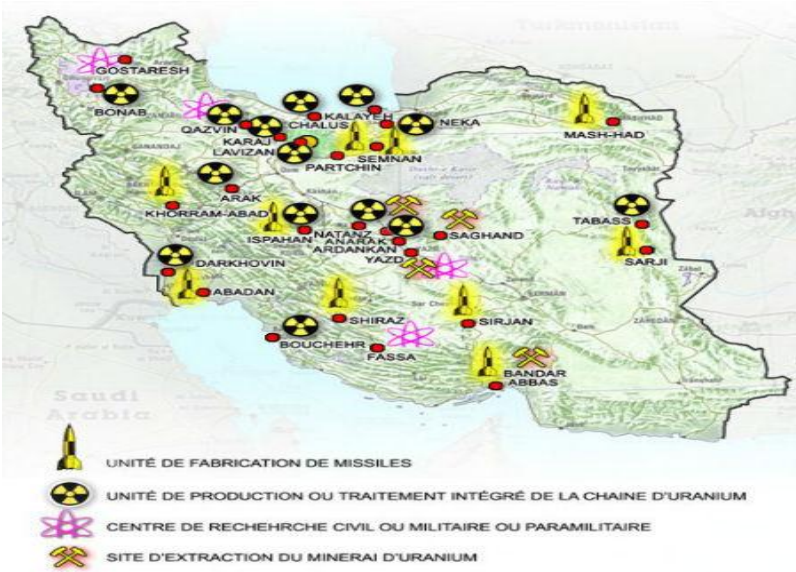
✓ - كما تستند إيران في رؤيتها على نص المادة الرابعة من معاهدة منع الانتشار النووي (NPT) التي تشير صراحة إلى "حق الدول الأعضاء غير القابل للتصرف في تنمية بحوث وإنتاج واستخدام الطاقة النووية للأغراض السلمية، والحق في التبادل الكامل للمعدات والمواد العلمية والفنية لاستخدام الطاقة النووية في الأغراض السلمية"، وينطبق هذا

النص على كافة الأنشطة المدرجة في إطار الاستخدامات السلمية للطاقة النووية، ومن بينها تخصيب اليورانيوم. ومن ثم تصر إيران على أن أنشطتها النووية تندرج بالكامل في إطار الاستخدامات السلمية للطاقة النووية وفق ما تسمح به معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، ومن ناحية أخرى تعطي إيران أولوية للاعتبارات الاقتصادية باعتبارها دوافع حاكمة للأنشطة النووية الإيرانية، بالإضافة إلى الاعتبارات الإستراتيجية الأمنية.

\* فمن حيث الدوافع الاقتصادية يشدد الإيرانيون على استخدام الطاقة النووية من شأنه أن يساعد إيران على مواجهة طلبها المتزايد على الطاقة بالرغم من أن إيران تمتلك احتياطات كبيرة من النفط والغاز، فإنها تؤكد أن تلك الاحتياطات لا يمكن أن تلي طلبها المتزايد على الطاقة عموماً<sup>(17)</sup>. فالبرنامج يهدف إلى تأمين 20% من طاقتها الكهربائية بواسطة المواد النووية، وذلك لتخفيض استهلاكها من الغاز والنفط، ولكن هذه الدوافع لا تبدو منطقية فالمفاعلات النووية تكلف مليارات الدولارات، علاوة على أن إيران ركزت إنشاء مفاعلاتها النووية في منطقة واحدة بعيداً عن المدن الإيرانية والمنشآت الصناعية في شمال البلاد، وهو ما يقلل إمكانية الاستفادة من هذه المفاعلات في توليد الطاقة لخدمة الاحتياطات

الاستهلاكية<sup>(18)</sup>. وفي مايلي خريطة تبين أهم المفاعلات والمنشآت النووية

الإيرانية:



المصدر: <http://www.israel-flash.com/2013/07/iran-des->

[opposants-devoient-un-nouveau-site-secret-du-projet-nucleaire](http://www.israel-flash.com/2013/07/iran-des-opposants-devoient-un-nouveau-site-secret-du-projet-nucleaire)

\* أما من حيث الدوافع الإستراتيجية الأمنية فيمكن القول بأن القدرة النووية السلمية بشكل عام يعد من العوامل المعززة لمكانة الدولة على الصعيدين الإقليمي والدولي، فإيران تعتبر أن امتلاكها التقنية النووية التي تدعي أنها سلمية وخاصة القدرة على تخصيب اليورانيوم هو أمر يصبون أمنها من خلال تعزيز قوتها<sup>(19)</sup>، فالفكر الاستراتيجي الإيراني ركز بشدة على الدروس المستفادة من الحرب العراقية

- الإيرانية والتهديدات الأمريكية الإسرائيلية لها، وضرورة أن تستعد لآية احتمالات في المستقبل، كما أن إيران استنتجت أنها لا يجب أن تعتمد كثيرا على القيود الذاتية التي قد يفرضها الخصوم على أنفسهم أو على تمسكهم بالالتزامات الدولية. كما أن تطور القدرات النووية يندرج في إطار تصور متكامل للسياسة الخارجية الإيرانية إقليميا ودوليا، حيث تسعى السياسة الخارجية الإيرانية إلى بناء مكانة متميزة على الساحة الإقليمية، والقيام بأدوار متعددة تبدأ بالمشاركة في ترتيبات أمن الخليج، وتحقيق الاستقرار في منطقة شمال غرب آسيا والاستفادة من التحولات الهيكلية في النظام الدولي، ولذلك فإن الطاقة النووية يمكن أن يقدم لإيران أداة بالغة الأهمية لتعزيز مكانتها الإقليمية والدولية<sup>1</sup>. ويشدد المسؤولون الإيرانيون من خلال تصريحاتهم على تمسكهم بهذا الحق، وذلك من خلال تصريح الرئيس الإيراني السابق "أحمدي نجاد" في شهر ماي 2007 بأن: "الاستفادة الكاملة من كافة إمكانات الطاقة النووية يعود للشعب الإيراني كله وليس لأي مهما كان الحق في حملنا على التخلي عنه، وأعدائنا أعجز من أن يلحقوا بالشعب أي ضرر"، وأضاف أن إيران: "تقف اليوم على عتبات قفزة نوعية هائلة، ولن يزعزع إرادتها الأعداء... ما يفعله الأعداء تجاه إيران وما يصفونه من عراقيل هدفه منع تطور الشعب الإيراني وتقدمه". كما يمكن الإشارة أيضا إلى

تصريحات الرئيس السابق "أحمدي نجاد" في الاحتفال باليوم الوطني للتكنولوجيا النووية خلال شهر أبريل 2008، بأن "القوى الكبرى تمارس كل أنواع الضغوط لحرمان إيران من حقها الطبيعي في امتلاك التكنولوجيا النووية" مضيفاً أن التكنولوجيا النووية التي اكتسبتها إيران "ستحدث ثورة في جميع المجالات"، واعتبرها أيضاً أحد أسباب قوة إيران قائلاً: "إنهم لا يعارضون القنبلة الذرية، لأنهم لو كانوا يعارضون ذلك لكانوا دمروا ما يملكون من ترسانات، إنهم يعارضون ظهور قوة صالحة تبحث عن الأمل وتعارض الهيمنة"، وأكد أن: "القضية النووية الإيرانية هي الحدث السياسي الأهم في العالم المعاصر، وأن انتصار إيران في أعنف صراع سياسي في العصر الراهن هو بلا شك تمهيد لتطورات كبرى في العلاقات الدولية وموازين القوة على الصعيد الدولي". وفي السياق ذاته يمكن الإشارة إلى بعض تصريحات المرشد "علي خامنئي" التي أطلقها قبل انقطاع للمهلة التي حددها المجتمع الدولي لإيران للرد على حزمة الحوافز التي قدمت إليها في جوان 2008 مقابل تخليها عن تخصيب اليورانيوم، وهي تصريحات أكد خلالها "خامنئي" أن بلاده لن تتراجع أمام مطالب القوى الكبرى لإيقاف برنامجها النووي، مضيفاً قوله: "آن الأوان للأمة الإيرانية أن تمضي قدماً بوعي، وأن تعزز قدراتها"<sup>(20)</sup>.

وعليه تكمن أهداف إيران الإستراتيجية بالسعي نحو بناء قوة نووية فيما يلي:



**أولاً:** تأسيس وبناء حالة من المساواة والتوازن الإقليمي مع القوى النووية الإقليمية مثل: إسرائيل وباكستان والهند.

**ثانياً:** تعزيز موقعها كمركز قوة إسلامية تحاول أن تقود دول العالم الإسلامي<sup>(21)</sup>.

**ثالثاً:** تكريس الهيبة والمكانة الإقليمية الإيرانية على الخليج، في ظل الفئاعة الإيرانية بفكرة تكريس القومية الفارسية على الخليج، وإدراكها لمجمل عناصر قوتها مقارنة بنظيراتها الدول الخليجية وبعض دول الجوار الاستراتيجي الأخرى، الأمر الذي يفرض لها أن تؤثر في سياسات المنطقة وفي نظم وهيكل الأمن في المنطقة<sup>(22)</sup>.

**رابعاً:** تصاعد السياسات الإسرائيلية في المنطقة على عدة مستويات تؤثر على إيران بشكل أو بآخر، الأول خاص بالفصائل الفلسطينية التي تتهمها بالتشدد والدعم من جانب طهران، والثاني إقليمي تمثل في تعزيز العلاقات مع الهند والتي تهدف إلى ضمان التطويق الأمريكي الإسرائيلي، والثالث يتمثل في الحملة التي قادتها إسرائيل سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها بشأن الملف النووي الإيراني، وما تردد من تهديد إسرائيل بتوجيه ضربة وقائية ضد المنشآت الإيرانية.

**خامساً:** اختلال معادلات القوة في منطقة الخليج بعد انهيار العراق كقوة إقليمية عسكرية وبشرية كبرى، ودخول معظم دول الخليج في مظلة الحماية الأمريكية من خلال القواعد العسكرية الموجودة في هذه الدول، وتهميش دور مصر سواء في

أمن الخليج أو في عملية التسوية السلمية بين العرب وإسرائيل، وهذه الإختلالات كان من شأنها أن تغري إيران لإمكانية تطوير قدراتها النووية<sup>(23)</sup>.

ومن هنا لم يكن من المفاجئ سعي إيران لامتلاك القدرات العسكرية النووية التي تكفل لها قوة ردع في مواجهة القوى الإقليمية والدولية على حد سواء مما يفسح لها المجال لتحقيق جميع طموحاتها الإقليمية دون أي عوائق<sup>(24)</sup>.

### مدركات الأمن ورؤية القيادة الإيرانية للسلاح النووي: هناك بطبيعة الحال

ارتباط كبير بين مدركات ورؤية القيادة الإيرانية للسلاح النووي، بل ورؤيتها لدور القوة العسكرية في السياسة الخارجية الإيرانية ككل، وتركز سياسة الأمن القومي الإيراني على مجابهة التهديدات والاستفادة من الفرص القائمة في البيئة الإستراتيجية المحيطة بإيران، وتركز أهداف السياسة الدفاعية الإيرانية على محورين رئيسيين: أولهما امتلاك القدرة على الدفاع عن الأراضي الإيرانية في مواجهة التحرشات الأمريكية والإسرائيلية التي زادت عقب الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003، أما المحور الثاني فهو يتمثل في تعزيز الدور الاستراتيجي الإقليمي لإيران سواء في منطقة الخليج أو الشرق الأوسط أو بحر قزوين أو آسيا الوسطى أو جنوب غرب آسيا. ففي ما يتعلق بالتهديدات الأمريكية لإيران فمن المعروف أن العلاقات الإيرانية الأمريكية تعاني من توتر منذ قيام الثورة الإسلامية عام 1979، وقد تضاعف التوتر بين الجانبين بفعل بروز الموقف الإيراني الراض

لوجود إسرائيل، ورفضها لعملية التسوية العربية - الإسرائيلية، بالإضافة إلى القلق الأمريكي من إصرار إيران على تطوير قدراتها العسكرية عموماً ومن إصرارها بصفة خاصة على تطوير قدراتها في المجال النووي، وهي عملية ترى الإدارات الأمريكية المختلفة أنها تهدف لامتلاك السلاح النووي. وعقب هجمات 11 سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة اتهمت إدارة الرئيس الأمريكي السابق "جورج بوش الابن" نحو تصعيد موقفها ضد إيران، وصنفتها كواحدة من دول "محور الشر" منذ بداية عام 2002<sup>(25)</sup>، في حين أن إيران حاولت من ناحيتها تفادي الصدام مع الولايات المتحدة سعياً للخروج من دائرة الاستهداف الأمريكي إذ ساعدت إيران الولايات المتحدة في غزو أفغانستان، كما تعاونت معها تعاوناً غير مباشر أثناء حربها ضد نظام "صدام حسين". وفي فترة ما بعد الحرب على العراق دأبت الحكومة الإيرانية على نفي حدوث أي تدخل من جانبها في شؤون العراق الداخلية سعياً لتفادي الصدام مع الولايات المتحدة، إلا أن ذلك لم يمنع الإدارة الأمريكية من اتهام إيران بإثارة القلاقل في أواسط شبيعة العراق، وتحريضهم ضد الولايات المتحدة وتدخلها الدائم في الشؤون العراقية، كما بات مطروحا بقوة أن الولايات المتحدة تعمل على عملية عسكرية واسعة النطاق ضد إيران أو على الأقل تكثيف الضغوط السياسية عليها من أجل الدفع في اتجاه حدوث تحولات سياسية داخلية فيها. وعلى الجانب الآخر فإن

السياسة الخارجية والدفاعية الإيرانية تركز على مواجهة هذه التحديات عبر منظومة متكاملة من الإجراءات التي تركز على تطوير قدرات إيران الشاملة لاسيما في مجال القدرات التسليحية لقواتها المسلحة، علاوة على تنشيط العمل في برنامجها النووي، وإلى جانب ذلك تسعى إلى بناء شبكة من الروابط والتحالفات في الدوائر الجيو - سياسية المحيطة بها، لاسيما في الخليج والشرق الأوسط من أجل امتلاك قدرة أكبر في مواجهة التهديدات المختلفة جنبا إلى جنب مع زيادة فرص إيران في تعزيز مكانتها الإقليمية وحماية مصالحها الإستراتيجية. وفي هذا الإطار تحتل القدرات النووية مكانة محورية في جهود تطوير قدرات إيران الشاملة منذ أواخر الثمانينيات، وذلك كجزء من عملية البناء التي بدأتها القيادة الإيرانية عقب انتهاء الحرب مع العراق. إلا أن الغموض ظل محتدما منذ ذلك الحين بشأن ما إذا كان الاهتمام بالقدرات النووية مندرجا فقط في الإطار المدني، وفي هذا السياق ترى القيادة الإيرانية في الأسلحة النووية مصدرا للهيبة والمكانة وأداة لمضاعفة القوة العسكرية الإيرانية، وهو ما كانت تفتقده أثناء الحرب مع العراق، فالأسلحة النووية عموما تؤدي دورا محوريا في دعم مكانة الدول المالكة لها وتعزيز دورها في القضايا الخارجية، ولتفتيت تحالفات الخصوم وتخويف الدول المجاورة<sup>(26)</sup>.

الهوامش:

- 1 - أحمد إبراهيم محمود، البرنامج النووي الإيراني: آفاق الأزمة بين التسوية الصعبة ومخاطر التصعيد (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، سبتمبر 2005)، ص. 25.
- 2 - أحمد إبراهيم محمود، مرجع سابق، ص. 25.
- 3 - نفس المرجع، ص. 26.
- \*NPT: هي اتفاقية للحد من انتشار الأسلحة النووية، بدأ التوقيع عليها في 1968/7/01 ، وحتى الآن وقعت على الاتفاقية 189 دولة.
- 4 - أسس الدغدي، الأقطاب الثلاثة مصر وإيران وتركيا (القاهرة: كنوز للنشر والتوزيع، 2012)، ص. 201-203.
- 5 - أحمد إبراهيم محمود، مرجع سابق، ص. 42-43.
- 6 - أنيس الدغدي، مرجع سابق، ص. 204.
- \* محطة بوشهر للطاقة: هي محطة بوشهر الكهروذرية (بالفارسية: نيروكاه اتمى بوشهر)، محطة نووية لتوليد الكهرباء تقع على بعد 17 كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة بوشهر في إيران، افتتحت في 12 سبتمبر 2011 بحضور وزير الخارجية الإيراني السابق "علي أكبر صالحى" ووزير الطاقة الروسي السابق "سيرغي شماتكو"، وتبلغ القدرة الإنتاجية للمحطة نحو ألف ميغاواط.
- 7 - أحمد إبراهيم محمود، مرجع سابق، ص. 60.
- 8 - عصام نايل المجالي، تأثير التسليح الإيراني على الأمن الخليجي (عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع، 2012)، ص. 81-83.
- 9 - إيمان أحمد رجب، مرجع سابق، ص. 302.
- 10 - زكريا حسين، أزمة البرنامج النووي الإيراني التحديات المتبادلة الإيرانية-الإسرائيلية-الأمريكية (الإسكندرية: مؤسسة حورس الدولية ، 2011)، ص. 132-133.
- \*مفاعل ناتانز: تستخدم فيه أجهزة الطرد المركزي لزيادة نسبة نظائر "اليورانيوم 235" في اليورانيوم الصلب النقي، وتستخدم مفاعلات الماء الخفيف لإنتاج الكهرباء وتتطلب هذه العملية أن يصل تركيز "اليورانيوم 235" إلى ما بين 2.5% إلى 3.5%.
- 11 - زكريا حسي، مرجع سابق، ص. 133.
- 12 - إيمان أحمد رجب، مرجع سابق، ص. 303-304.
- 2 - عصام نايل المجالي، مرجع سابق، ص. 89-90.
- 13 - جيفري كيمب، تأثير البرنامج النووي الإيراني في أمن الخليج، في "الخليج تحديات المستقبل" (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث، 2005)، ص. 236.

- 14 - محمد عبد الحليم جاد، مرجع سابق، ص ص. 26-27
- 15 - أحمد عبد الحكيم، "خريطة القوى النووية في الشرق الأوسط في أوائل القرن الحادي والعشرين"، المستقبل العربي، ع. 271، (سبتمبر 2001)، ص. 134
- 16 - أشرف عبد العزيز عبد القادر، الولايات المتحدة الأمريكية وأزمة الانتشار النووي الحالة الإيرانية 2001-2009 (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 2010)، ص ص. 135-138
- 17 - محمد صادق إسماعيل، مرجع سابق، ص. 217
- 18 - أشرف عبد العزيز عبد القادر، مرجع سابق، ص ص. 135-138
- 19 - محمد صادق إسماعيل، مرجع سابق، ص. 218
- 20 - أشرف عبد العزيز عبد القادر، مرجع سابق، ص. 138
- 21 - عصام نايل المجالي، مرجع سابق، ص. 68
- 22 - نفس المرجع، ص. 102
- 23 - محمد صادق إسماعيل، مرجع سابق، ص ص. 219-220
- 24 - عصام نايل المجالي، مرجع سابق، ص. 68
- 25 - خالد أبو بكر، مرجع سابق، ص. 120
- 26 - نفس المرجع، ص. 120

## قائمة المراجع:

- 1 - أحمد إبراهيم محمود، البرنامج النووي الإيراني: آفاق الأزمة بين التسوية الصعبة ومخاطر التصعيد (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، سبتمبر 2005).
- 2 - أشرف عبد العزيز عبد القادر، الولايات المتحدة الأمريكية وأزمة الانتشار النووي الحالة الإيرانية 2001-2009 (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 2010).
- 3 - أحمد عبد الحكيم، "خريطة القوى النووية في الشرق الأوسط في أوائل القرن الحادي والعشرين"، المستقبل العربي، ع. 271، (سبتمبر 2001).
- 4 - جيفري كيمب، تأثير البرنامج النووي الإيراني في أمن الخليج، في "الخليج تحديات المستقبل" (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث، 2005).
- 5 - عصام نايل المجالي، تأثير التسلح الإيراني على الأمن الخليجي (عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع، 2012).

- 6 - زكريا حسين، أزمة البرنامج النووي الإيراني التحديات المتبادلة الإيرانية-الإسرائيلية-  
الأمريكية (الإسكندرية: مؤسسة حورس الدولية ، 2011).
- 7 - أنس الدغدي، الأقطاب الثلاثة مصر وإيران وتركيا (القاهرة: كنوز للنشر والتوزيع،  
2012).

"الخطف" كأحد المخاطر التي تواجه الحجاج ببلاد المغرب خلال القرون

الأربعة الأولى للإسلام

د. خالد حسين محمود

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بآداب عين شمس

إن دراساتٍ عدة تُعني الباحث عن تكرار ما قيل عن قوافل الحج المغربية في العصر الوسيط ومساراتها وتحولاتها وأبعادها<sup>(1)</sup>، وهو ما سيتجاوز هذا البحث للانطلاق مباشرة نحو المخاطر التي كانت تتعرض لها قوافل الحج خلال الفترة المذكور.

لا تعوز الدلائل الكاشفة عن انتشار الفوضى وانعدام الأمن ببلاد المغرب خلال فترة البحث، فهذا احد رحالة القرن الرابع الهجري يصف إقليم المغرب من خلال مشاهدته العينية بأنه "صعب المسالك كثير المهالك ... فلا فيه راغب ولا له ذاهب ولا عنه سائل"<sup>(2)</sup>، وهو ما تؤكد بشهادة احد رجالات هذا القرن من فقهاء الإباضية والذي عبر عنه بقوله "كثر العدوان وانتشرت الفتن ... وكثر الغدر وقلة الطمأنينة وارتفاع الأمانة وقلة الثقة"<sup>(3)</sup>، وأرسل الفقيه المالكي رباح بن يزيد إلى نظيره عبد الله بن فروخ (ت 176هـ/792 م) رسالة يذم فيها زمانه قائلاً "قد أدركت زماناً ... عز فيه الأشرار ... وعهدت بلادنا بالحصار والقتل



والفساد"<sup>(4)</sup>، ولما أراد احد أصدقاء الفقيه القيرواني الإيباني ( ت 352 هـ / 963 م) زيارته عاجله الفقيه برسالة يحذره فيها من القدوم، ويوصيه بملازمة داره خشية عليه من مخاوف الطريق<sup>(5)</sup>، ووصف الفقيه الداودي (ت 402 هـ / 1011 م) عصره بأنه عصر "مخن وفتن وهرج"<sup>(6)</sup>.

استوجبت تلك الوضعية ظهور نظام حراسة القوافل في الطرق المخوفة "حراسة للمهج والأموال من غوائله"<sup>(7)</sup>، والتي عُرفت في مصادر الفترة باسم "الظطاطة أو الشناعية"<sup>(8)</sup>، وهكذا سئل سحنون<sup>(9)</sup> عن "الرفقة يستأجرون علي من يحفظهم من اللصوص ويبلغهم من مكان الخوف إلى محل الأمن"، وبصورة أكثر وضوحاً ترد نازلة أخرى سئل فيها الفقيه القيرواني ذاته عن أهل قافلة " تعرض لهم اللصوص يريدون أخذهم فيقوم بعض أهل الرفقة فيضامنهم على مال"<sup>(10)</sup> وهي المسألة ذاتها التي سئل عنها الداودي فيما يتعلق ببعض سكان المغرب الذين "تنزل عليهم الأعداء وتأخذ أموالهم وأولادهم ... فقالوا للشناعية فقاموا بأموارهم وصدوا عنهم الأعداء ... وصارت وظيفة عليهم ورثها الأبناء عن الإباء"<sup>(11)</sup>، وحسب نازلة أخرى سئل الفقيه ذاته عن " رفته استأجرت من يجرسها"<sup>(12)</sup>. وكان هاجس الخوف من اختطاف الأنفس لفتواه الصريحة بأنه "إذا اخذوا الأجرة علي حفظ المارة فعلي عدد الرؤوس ... ذلك مما عرف من سنة

تلك البلاد فان أعطاهم المال يخلصهم ويمنحهم.. عن أنفسهم وعن أموالهم<sup>(13)</sup> لأن "اللصوص يريدون أخذهم"<sup>(14)</sup>، كما كانت تلك الوضعية وراء إرسال الإمام الاباضي أبو اليقظان ابنه أبي حاتم عام 281هـ/894م "في جيش .. ليحجروا قوافل قد أقبلت من المشرق".

وفي ظل غياب الأمن كان بديهيّاً أن تتدهور الأحوال الاقتصادية وان تتردي الأوضاع المعيشة حتى وصل الأمر ببعض ساكنة البلاد إلى أكل الميتة والجيف<sup>(15)</sup>، ووجد الكنديون من أهل الشدائد والبائسون في قطع الطرق وامتهان العيارة والشطارة وسيلة للحصول علي ما يسد رمقهم، وكان من جملتهم العبيد الذين اضطرتهم ربة العبودية إلى الابق والاندراج في سلك اللصوصية، يرصدون القوافل لخطف الأنفس وسرقة الأموال، لاسيما وقت الانتفاضات والحركات الانتزائية، إذ جرت العادة في مثل هذه الظروف أن يتسرب إلى زعماء الثورات " دعار اللصوص وابق العبيد ... من كل أوب و ... فج " <sup>(16)</sup>.

كما كان انعدام الأمن وخيفة الطريق وما يترتب علي ذلك من خطف ونهب مدعاة لاستنباط الفقهاء المغاربة أحكاماً تتعلق ببعض التفرجات الفقهية المرتبطة بالموضوع، من ذلك مثلاً اعتبار قلة الواردين من البلاد لسكني الفنادق المكترة "من فتنة أو خوف حدث في الطريق ... عيباً فيما اكتراه المكتري"<sup>(17)</sup>،

كما أصدر سحنون وبعض من عاصره من الفقهاء فتواهم بسقوط العذر عن الغائب والحكم عليه وان قريت غيبته لأن الطريق " لم تكن .. مسلوكة ولا مأمونة" (18) لانعدام الأمن وكثرة الفتن، مما ينتج عنه غياب الأفراد وانقطاع أخبارهم، والتي شكل الخطف بلا شك أحد مظاهره باعتباره مصيراً طبيعياً لكثير من هؤلاء الغائبين في ظل سيادة الفوضى وانتشار الهرج وتواري الأمن السياسي . وهكذا يتوفر لدينا فيض من النوازل عن أناس غابوا ولم تعرف أخبارهم، فقد خرج أحدهم " في خرجة فتنه... ولا يعلمون له خبرا بعد ذلك ... وخفي أمره " (19) ، وغاب آخر " غيبه انقطع فيها خبره ولا يعلم ... مستقره" (20) ، كما تتواتر التفاصيل النوازلية عمن " غاب من موضعه ... أعوام " (21) وعمن " فقد منذ سنين كثيرة " (22) ، ومن " خرج بجهازه إلى السفر فغاب سنين " (23) ، وعن " غائب منقطع الغيبة بحيث لا يعلم منذ سنين كثيرة" (24) . ولا أدل علي مدي استفحال هذه الظاهرة من شيوع اشتراط النساء في عقود زواجهن أن يصبح أمرهن بأيديهن إذا سافر أزواجهن إلي موضع يحسبهم فيه " فتننة أو فساد طريق يخشى منه الأسر " (25) أو " خرج يريد سفرأ قريباً فأسر " (26) ، حتى بات متداولاً بين المؤرخين إثبات الشرط في الوثائق تعميماً بهذه العبارة " إذا غاب الزوج عن امرأته مكرهاً" (27) .

وفي محاولة لتفكيك الظرفية المكانية بالمنطقة تبرز أمامنا غارات القبائل العربية، حيث يتوفر لدينا نص غاية في الدلالة قد يعدل حقيقة تاريخية ثابتة تحدد أواسط القرن الخامس الهجري زمنًا لهجمات القبائل العربية وما صاحب ذلك من خراب ودمار، يتحدث النص عن افريقية قائلاً " وكان سبب خرابها العرب الذين أرسلوا إليها مدة يزيد بن عبد الملك بن مروان، وذلك أنه لما انتقلت الخلافة إلى بني العباس وتخالف الأمر استقضت العرب علي افريقية وبداتها فخرجت ولم يبق منها شيء إلا ما كان علي ساحل البحر " (28)، إنها عودة ارتدادية للوراء بتلك الأحداث الثابتة، وربطهما بالسياسة العباسية، التي اعتمدت كثيرا علي الموالي؛ فتضاءل عندها وزن العرب السياسي، فكان التدمير والتخريب والسلب والنهب نوعاً من التعبير عن الغضبة العربية، وكانت بلاد افريقية أحد مواطن هذا التعبير، حيث قامت الدولة الأغلبية السلطنة المغربية المعبرة عن دولة بني العباس .

وفضلاً عن العرب شاركت قبيلة هواره البربرية في عمليات الخطف بالمنطقة، والتي ما فتئت تشن غاراتها الخاطفة علي المدن والبوادي بغية الخطف والسلب، فقد تحدث البكري (29) عن أحد الأتخار المطلة علي مدينة أدنة القريبة من مدينة الاريس يسمي "نهر النساء" معللاً سبب التسمية هاته بأن " هواره أغاروا علي نساء أدنة وذهبوا بهم ... هناك ". وحسب إشارة ابن سعيد (30) كانت تلك القبيلة ترصد طريق الحجاج وتقوم بقنصهم وبيعهم، مما حدا بابن خلدون (31) أن

يسجل خطر تلك القبيلة الزناتية متحدثاً عن شهرة رجالها بـ " خطف الناس من العمران والاباية عن الانقياد للنصفة "، وتدعمت تلك المقولة بشهادة النويري<sup>(32)</sup> الذي ذكر أن هواره " قد عاثت في البلاد وقطعت السبال"، ولنا أن نقدر خطر هواره ومقدار سطوتها ومدى ما أحدثته بالمنطقة من خراب ودمار من سعي الإمارة الأغلبية الي موادعتها وعقد الاتفاقيات مع رؤسائها لضمان سلامة وأمن طرق القوافل والحجاج بعد أن عجز الأغلبية عن التصدي لغاراتها واستئصال شأفتها<sup>(33)</sup> .

وانطلاقاً من غارات هذه القبائل العربية والبربرية في ظل سيادة الفوضى وما امتلكنه من سطوة، سجلت المصادر إشارات عدة عن حالات الخطف بهذه المنطقة الشرقية من بلاد المغرب، فهذه نازلة هامة تعرض علي فقيه المنطقة سحنون<sup>(34)</sup> تخص بلاد افريقية وما جاورها من أحواز المنطقة الليبية تعرض للحديث عن مجموعة من حراية هذه القبائل " قد غلب فسادهم علي صلاحهم وغلب شرهم علي خيرهم ... شأنهم علي الدوام الغارات علي المسلمين والغفلة بالطريق والدور ... متى وجدوا منزلاً أو داراً أو دوراً أغاروا عليهم وأخذوهم بالقصر والغلبة ... يسبون النساء والصبيان والعبيد، وهذا دأب هؤلاء القوم"، وهو ما تكرر في شكاية أخرى لبعض سكان المنطقة الذين تظلموا إلي القاضي المالكي ذاته<sup>(35)</sup> قائلين فيها " قوم يكابرونا يريدون أنفسنا وأموالنا وحرمتنا"،

ويمدنا الونشريسي<sup>(36)</sup> بنازلة تخص مدينتي صبرة وسوسة، واللتين عرض اهلها  
 نازلة علي سحنون يكشف التدقيق في تفاصيلها عن مدي معاناتهم من ظاهرة  
 الخطف حيث اعتاد أن يشن عليهم الغارات مجموعة من السلاية " تبلغ مجموعهم  
 عشرة آلاف ... يأخذون النساء بالقهر والغلبة... وطلب سي مجموعهم عشرة  
 آلاف... يأخذون النساء بالقهر والغلبة... وطلب سي الحریم أبكارا وثيبات " (37)،  
 وتظل الوفرة العديدة للمغيرين شاهداً علي مقدار ما يمكن أن تحصله أيديهم من  
 المخطوفين .

ويظل التعويل علي علاقة التلازم بين الخطف وانعدام الأمن من أكبر  
 العوامل لفهم الظاهرة، والذي يمكن من خلاله إخضاع عينات من النصوص  
 الكاشفة عن شيوعها بهذا المنطقة المغربية، فعن المنطقة الساحلية بين قابس  
 وطرابلس، وتحديدأ عند قرية الزارات منازل البربر المستمسكين بمذهب الخوارج  
 النكارية من أتباع أبي يزيد المستحلين لخطف وسلب مخالفيهم كشف التحاني  
 (38) عن هذه الحقيقة قائلاً " فهم بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يمر بهم  
 من المسلمين للروم، فتجد الناس لأجل ذلك يتحامون الانفراد في قراهم ويتجنبون  
 إيواهم وقراهم "، وهو ما ينطبق أيضا علي قرية زواغة التي لم يزل أهلها " في  
 القديم يسمع عنهم ببيع المسلم .... اظهروا تعديهم ومدوا إلي المراكب البحرية  
 والركائب البرية أيديهم كأنهم حسدوا أهل زارة علي تميزهم بتلك الفضيلة التي

اشتهروا بها" (39)، وغير خاف طبعاً أسلوب التهكم والسخرية الذي استخدمه الرحالة المغربي للتشهير بأهل زارات وزواغة، اللهم إلا إن كان يتحدث بمنطق المغيرين أنفسهم، والذين اعتبروا مثل هذه الأعمال نوعاً من الفخر والاعتزاز إظهاراً للقوة والإباء والذي تناغمي الشعراء في الإشادة به .

وأمام شيوع الظاهرة بتلك البقعة الساحلية لم يتمالك الرحالة نفسه عن الإشادة بأهل احد المواطنين قرب طرابلس والذين شذوا عن غيرهم من ساكنة المكان فلم " يزلوا في القديم مشكورين مكرمين للحجاج علي الصد من جيرانهم ولم يكن يسمع عن احدهم منهم ببيع مسلم ولا تعرض له بسوء" (40) .

ولتحقيق اعلي درجات الانضباط والأمن وحفظاً للأنفس والأموال، ورغبة في غل أيدي هذه الجماعات عن الامتداد لشئون الرعية، أصدر الفقهاء أحكاماً فقهية للحد من هذا النشاط الارتياحي، فقد حث سحنون وغيره من فقهاء المنطقة أولي الأمر على القضاء علي هؤلاء السلاية معتبرين " جهادهم من أفضل الجهاد وأعظمه أجرا .. أحب .. من جهاد الروم" (41) وانه لا يجوز للإمام " أن يؤمن المحارب ويتركه" (42) " والمسلمون وأهل الذمة في ذلك سواء" (43) لأنهم يأخذون" الأموال والرجال والنساء والأحرار والعبيد" (44) .

وفي جوابه عن نازلة تتعلق بمؤلاء المغيرين من الأعراب ممن عرف " بالفساد في الأرض والتسليط علي هتك الحريم واخذ الأنفس والأموال "أفتي سحنون<sup>(45)</sup> بجرمة التعامل معهم بالبيع والشراء كما حاول سد الأبواب أمامهم بمنع " الحدادين من بيع المسامير والصفائح منهم ... والشعير فلا يجوز بيعه منهم لأنه يعلفونه خيولهم التي يتقون بها علي الغارات " <sup>(46)</sup> .

وبصرف النظر عن هذا الاستعراض، الذي يهدف عمل ضبط مفصلي لبلاد المغرب مكانياً في إطار فترة البحث، فإن القراءة الفاحصة لمجموع النصوص المتعلقة بالموضوع من مختلف مظاهرها تكشف عن القول بقاعدة عامة ترتبط بظاهرة الخطف، مفادها أن قوافل التجارة ومواكب الحجاج كانت اشد تعرضاً لهذه العمليات دون غيرها من المظاهر الأخرى، ولا غرو، فقد أتقن السلاية والخاطفون رصد طرق القوافل باعتبارها مرتعاً خصباً للتزود بالرقيق وممارسة الحرفة المذمومة، يبتهلون فيها الفرص للانقضاض علي سالكيها " انقضاض الصقور علي البعاث"<sup>(47)</sup>، ويبدو أن استفحال الظاهرة كان وراء إجماع كثير من فقهاء المغاربة علي سقوط فريضة الحج، فقد اشترط فقهاء المالكية أمثال سحنون وابن ابي زيد وابن رشد والمغيلي والمازري وغيرهم لأداء الحج " امن السبيل بحيث لا يخف علي نفسه أو ماله ... فإن خافوا علي أنفسهم وأموالهم فإن الحج ساقط " <sup>(48)</sup>، ثم جاءت فتواهم صريحة-استناداً علي ذلك-بسقوطه عن المغاربة " لتعاسر الطريق



وظهور الفساد في البر والبحر<sup>(49)</sup> بل وصل الأمر بالفقيه الطرطوشي أن تنص فتواه علي أن " الحج حرام علي أهل المغرب، فمن خاطر وجح فقد سقط فرضه، ولكنه أثم بما ارتكب من الغرور " (50)، وظلت مسألة الخطف ودورها الارتياحي لسبل الحجاج المغاربة تشغل أذهان الفقهاء المغاربة ولعصور طويلة حتى ألف احدهم مصنفاً جمع فيه أقوال الفقهاء وفتاوهم حول الموضوع مستنداً عليها للقول بسقوط الحج عن المغاربة (51).

وبالمثل اتفقت عبارات فقهاء الاباضية<sup>(52)</sup> علي سقوط هذا الفريضة استناداً إلي المنطق ذاته، فقد نصح الفقيه الاباضي بن زورستن الوسياني ( الطبقة التاسعة) صديقه أبا يعقوب بن أبي عبد الله وقد تذاكر معه يوماً في قائلاً " لا أري الحج إلا وقد سقط عنك لانقطاع السبيل وجور أهل الزمان"<sup>(53)</sup> وهو ما أكد عليه صاحب الرواية حين عقب عليها قائلاً " وقد صدق رحمه الله فإن فريضة الحج الاستطاعة فإذا انقطع السبيل ... عدمت الاستطاعة وسقط فرض الحج"<sup>(54)</sup>، كما سجل الوسياني<sup>(55)</sup> عجز الفقيه محمد بن الخير (ق3هـ / 9م) عن أداء الفريضة " لعسر الطريق وانقطاعها والمحاربين الذين يفسدون في الأرض ... وكان يقول أعوذ بالله من ... السفر فانه منقطع "، ولم يكن هاجس الخوف من الخطف أثناء رحلة الحج قاصراً علي المغمورين من أبناء الأوساط الشعبية، بل شمل حتى القابعين علي رأس الهرم السياسي، فقد أثنى الإمام الرستمي عبد

الوهاب بن عبد الرحمن عن الحج من قبل فقهاء المذهب حين عزم عليه خوفاً عليه من الخطف مما يتسبب في تعطيل الأمور . إذ نصت فتواهم علي انه " ليس عليه حج، لان أمان الطريق من الشروط التي هي مشترطة في وجوب الحج" (56) مما اضطره إلي إرسال من يحج عنه .

ولم ينس أبو عبيد الله القيسي (57) أن ينبه قراء رحلته إلى مخاطر طريق الحج وعلي رأسها الخطف، ملزماً كل من أراد الحج أن يكتب وصيته ويسد دينه " ويفعل ذلك كل متيقن في سفره منيته".

واضطر كثير من راغبي الحج من المغاربة أمام هذا الخطر إلى توكيل من يحج عنه ممن نصب نفسه لذلك لخبرته بالطريق وقدرته علي المناورة والإفلات، مقابل مبلغ من المال قد يصل في بعض الأحيان إلي الأربعين ديناراً، فيما عرف في المصنفات الفقهية بالحج بالنيابة، وهو ما لقي جوازاً من قبل الفقهاء لدخوله في دائرة الضرورة (58)، وتفاني الموثقون في ضبط شروطه بحيث يكتب في ذلك عقد استئجار يشهد فيه الأجير علي نفسه " يحج عنه ويعتمر ويزور وينحر" (59) .

وتتعدد الإشارات المصدرية التي تنص صراحة علي خطف الحجاج، ففضلاً عن إشارة التجاني السابقة عن قرية زواغة، نطالع عنده نصاً آخر بالغ الدلالة يتحدث فيه عن قصر وزدر قرب طرابلس والذي اشتهر أهله في القديم "

بييع من يجتاز به من الحجاج وغيرهم للنصارى، ولم تنزل الركوب تحترس إذا مرت به خوفاً من أهله، وخوفهم من سرقة الرجال أكثر من خوفهم من سرقة الرجال، فإذا جازوا عليهم ولم يفقدوا أحداً ممن معهم هنا بعضهم بعضاً بذلك، وكان هذا الفعل فيهم شائعاً فيما تقدم"<sup>(60)</sup>، ووجد نص التجاني دعماً من قبل الرحالة العبدري<sup>(61)</sup> الذي وصف مسالك منطقة طرابلس بأنها " لا يسلكها إلا مخاطر ولا يعدم من عربانها إيلام خاطر ... اتخذوا اخذ الحجاج خلقاً ودينياً، واعتقدوا إهلاكه ملة ودينا ... فما يمر بتلك المسالك سالك ولا يخطر علي تلك المعابر عابر ... إلا انقضوا عليه ... بحيث لا يغاث من استغاث"، وهو ما أكد عليه أيضا ابن سعيد<sup>(62)</sup> حين ذكر أن الحجاج يجدون في تلك المنطقة مصاعب جمّة ومشاق كثيرة، حتى عرف أهل تلك المنطقة بأنهم " ظلمة فتاكون أهل فساد وغارات "<sup>(63)</sup>.

ولعل فيما أورده ابن الأثير<sup>(64)</sup> ما يدعم الشهادات السابقة، حيث وصف أهل هذه المنطقة الساحلية بالفساد وقطع الطريق، ودلل علي ذلك بأنهم تعرضوا لقايلة حجاج عام 269هـ/882م " فسلبوهم وساقوا نحو من خمسة آلاف بعير بأحمالها وأناسا كثيرة"، وقرب برقة تعرض احد مواكب الحجاج وقد نيف علي سبعمائة نسمة لغارة خاطفة من بعض السلاية الذين اعتادوا " بيع من في تلك

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية  
مجلة دورية دولية محكمة  
الأحياء من الأحياء للناس<sup>(65)</sup> ، فلم ينج منهم إلا "مائة أو نحوها"<sup>(66)</sup> مما أجاش  
قريحة احد الشعراء الذين تسامعوا بالخبر فأنشد قائلاً :

ارجع لمحل حال بما يشكو لفراقك من علل ...

فشروط الحج قد ارتفعت لزوال القدرة والسبل<sup>(67)</sup> .

ونجا ركب آخر من حجاج موضع تاجمروت من الخطف حين سلخوا وعراً  
جبلياً تفادوا به مكاناً يسمي "حنق المكتاوة" اتقاء أن يصيبهم مكروه" من طائفة  
من اللصوص تجتمع فيه غالباً<sup>(68)</sup> فلما عبروا تلك المفازة الحرجة ارتاحت منهم "  
النفوس وذهب عن القلوب حداها"<sup>(69)</sup> ، وتعرضت قافلة للحجاج كان فيها  
الفقية الاباضي أبو زكريا بن ابي زكريا الاباضي (ق3هـ/ 9م) للخطف حين "  
غشيهم السلاية"<sup>(70)</sup> لولا أنهم دافعوا عن أنفسهم ونجوا، وان كان الشك يراودنا  
في نجاة كل أفراد القافلة خاصة وان الرواية لم تتعرض إلا لنجاة الفقيه المذكور،  
وهو الموقف ذاته الذي تعرض له الفقيه المالكي ابو الحسن الخولاني (ت  
340هـ/951 حيث اعترضته ومن معه من الحجاج غارة من العرب فجردهم  
وشدت وثاقهم<sup>(71)</sup> .

وهكذا تفصح تلك الإشارات عن وقوع كثير من الحجاج فريسة في يد  
المختطفين، وهو ما اتخذ منه المعز الفاطمي دليلاً للترويج بعجز القوي السياسية

المخالفة عن تأمين السبل، مما أفرز وضعية متردية أدت إلي سقوط هذه الفريضة، ورغبة منه في استقطاب أهالي البلاد وجمع الأعوان كتب مرسوماً سياسياً أمر بإذاعته علي أهل المغرب يذكر فيه رغبته في " إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضة وحقوقه للخوف المستولي عليهم، إذ لا يؤمنون علي أنفسهم ولا علي أموالهم، واذ قد أوقع بهم مرة بعد مرة... مع اعتماد ما جرت به عادته من إصلاح الطرقات وقطع عبث العابثين " (72)

خلاصة القول: تدعو الإشارات السابقة عن شيوع ظاهرة خطف الحجاج ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام، نتيجة الاضطرابات السياسية والفوضى الأمنية، مما يدحض تخريج احد الباحثين (73) لظاهرة الرق الإسلامي بأن المجتمعات الإسلامية في عصورها الوسطي لم تعرف ظاهرة خطف الأحرار، إذ لا يعدو هذا القول إلا حكماً متسرعاً اعتمد في صياغته علي تحليل نظري في محتويات عينية من مصنفات العصر ذات الطابع التنظيري، دون معاينة حقيقية لبنية المجتمعات مما يحجب كثيراً من حقائق التاريخ الساطعة، ونزعم أن ما تم استعراضه من نصوص متعددة المشارب كفيل بالتنبيه علي هذا المنزلق التاريخي، والحسم في هذه المسألة علي الأقل فيما يتعلق ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام، بيد أن ذلك لا يعني أن الفقه الإسلامي لم يترك نصوصاً رادعة تنصدي لحوادث الخطف واسترقاق الأحرار، حيث وقف الفقه

الإسلامي - علي الأقل من الناحية النظرية - للتصدي لمثل هذه الظاهرة، وتشديد الفقهاء والمفتين بنوع من الحزم علي قوة الأحكام علي شهر السلاح وقطع الطريق والإمعان في التمثيل بهم صلباً وقطعاً للأطراف<sup>(74)</sup> كما سجل الفقهاء فتواهم بإنزال أقصى العقوبة علي من باع حراً حيث ترد فتوى الفقيه أبي عمران الفاسي "من باع حراً يجلد ألف جلدة ويسجن سنة، فإذا ايس منه أدي ديته إلي أهله"<sup>(75)</sup>، وتتدعم تلك الفتوى بفتوى أخرى نص عليها الفقه المالكي ذاته بان "من سرق حراً قطع فان باعه غرم ديته"<sup>(76)</sup>، إلا أن ذلك لم يمنع نشاط عصابات الخطف علي طول مسالك الرفاق، بل وتحولهم في بعض الأحيان إلى حركات سياسية منتظمة واسعة النطاق.

## الهوامش:

<sup>1</sup> علي سبيل المثال: عبد العزيز بن عبد الله: الرحلات من المغرب واليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، 2001، ص 45 وما بعدها، الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، 1990، ج1، ص 69 وما بعدها، "رحلة الحج من بلاد المغرب عبر التاريخ"، مجلة الحج، عدد2، السنة 62، 1429هـ، لطفي بن ميلاد: "قافلة الحج المغربي: تحولاتها وأبعادها خلال القرون الأخيرة في العصر الوسيط"، بونة للبحوث والدراسات، العددان 13-14، 2010م، ص ص 121-140، حبيب وداعة الحسناوي: "الحج وأثره في دعم الصلات العربية الإفريقية ودور فزان في تسهيل قوافل حجاج السودان الأوسط

حتى القرن الثامن"، ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية علي جانبي الصحراء، 1998.

<sup>2</sup> المقدسى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ليدن 1967، ص 316.

<sup>3</sup> نقل هذه الشهادة البردى: الجواهر المنتقاة في إتمام ما أحل به كتاب الطبقات لأبي العباس الدرجيني، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب، تحت رقم 8456 ح عربي، ميكروفيلم 15843، ورقة 3.

<sup>4</sup> المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، ج1، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، 1951، ج1، ص 219، 220.

<sup>5</sup> عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير محمود، ط. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1967، ج3، ص 352.

<sup>6</sup> نقلا عن السجلماسي: شرح نظم العمل الفاسي، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب تحت رقم 97 فقه مالك، ميكروفيلم 3556، ورقة 256.

<sup>7</sup> السجلماسي: ورقة 93، 94.

<sup>8</sup> المصدر السابق، ورقة 177 .

<sup>9</sup> المسائل المتعلقة بالمغارة، مخطوط بمركز جهاد الليبيين، ليبيا، تحت رقم 1714، ورقة 34.

<sup>10</sup> السجلماسي: م.س، ورقة 95.

11 القصري: نوازل، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم 144، بعثة المعهد الى موريتانيا، ورقة 258.

12 السلجماسي: م.س، ورقة 177.

13 م.س، ورقة 95.

14 نفسه.

15 المالكي: م.س، ج1، ص262 ابن ابي زرع : الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط 1973، ص 97.

16 أبو القاسم البلوي: العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم 154 بعثة المعهد الأولى إلى المغرب ، ورقة 15، محمود إسماعيل: المهمشون في التاريخ الاسلامي ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2004، ص 153.

17 ابن رشد: الفتاوى، جمع وتحقيق المختار بن طاهر التليلي، ط. دار الغرب الاسلامي بيروت، 1987، ج3، ص 1282، الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فناوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م ، ج7، ص 452 .

18 عياض وولده محمد: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام ، تحقيق وتعليق محمد بن شريفة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990، ص 124، ثم تابع



نماذج من هذه الأحكام علي أناس لم تطل غيبتهم في المصدر نفسه، ص ص 125 – 129 .

19 ابن سحنون: نوازله، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم 669 فقه مالك، ورقة 5 .

20 عياض وولده : م.س، ص 126 .

21 نفسه.

22 ابن العطار: الوثائق والسجلات، تحقيق شامليتا وكورينطي، مجمع المؤتقين الجريطي والمعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، 1973، ص 351، ثم تابع عبارات شبيهة ص، ص 545، 546، 552 .

23 عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم: مسائل نفوسة، تحقيق وترتيب إبراهيم محمد طلاي، غرداية، 1990، ص 122.

24 عياض وولده: م.س، ص 127 .

25 ابن هارون التونسي: اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم 193 فقه مالك، ورقة 37 .

26 النفزي: الطرر الموضوعة علي الوثائق المجموعة لابن فتوح البنتي، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم 44 فقه مالك مصورة الاسكوريال، ورقة 14 .

27 نفسه.

28 مجهول: كتاب في الجغرافيا، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم 46 بعثة المعهد الأولي إلي المغرب ، ورقة 98.

29 كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن واندرى فيري، ط. وزارة الثقافة، تونس، 1992، ج2، ص 831 .

30 بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1958، ص 8 .

31 كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ط. دار الكتب العلمية بيروت، 1992، ج7، ص2 .

32 نهاية الأرب في فنون الأدب، ج24، تحقيق حسين نصار، ط. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1983، ج24، ص .

33 ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط3 1998، ج6، ص 270.

34 نقلاً عن ابن سحنون: م.س، ورقة 72

35 المدونة، ج3، ص 3 .

36 م.س، ج2، ص 155 .

37 المغيلي الماذوني: الدرر المكنونة في نوازل ماذونة، ج2، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم 186 فقه، ورقة 102 والذي أورد النازلة ذاتها

مؤكداً عي ان هؤلاء السلافة " ليس لهم حرفة إلا شن الغارات وقطع الطرقات "

38 الرحلة، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، (د.ت.)، ص 119، ثم تابع السراج الاندلسي: م.س، ج 1، ص 356 .

39 م.س، ص 211.

40 نفسه .

41 ابن فرحون: تبصرة الحكام في أصول الاقضية ومناهج الأحكام، ط. المطبعة العامرة الشرفية، مصر، 1301هـ ، ج2، ص 186 .

42 م.س، نفس الجزء، ص 187

43 م.س، نفس الجزء، ص 186 .

44 نفسه .

45 المسائل المتعلقة بالمغاربة، مخطوط بمركز جهاد الليبيين، ليبيا، تحت رقم 1714، ورقة 16 .

46 نفسه .

47 العبدري: الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، سلسلة الرحلات جامعة محمد الخامس، (د.ت.)، ص 83 .

48 البرزلي: م.س، ج 4، ورقات 214، 215، الجيطالي: الحج، مخطوط بمركز جهاد الليبيين تحت رقم 1254، ورقة 4 .

- 49 م.س، نفس الجزء، ورقة 216.
- 50 الونشريسي: م.س، ج 1، ص 433.
- 51 الحسيني الفاسي: سؤال في الحج رفع لقضاة الجماعة بفاس، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب تحت رقم 316 فقه تيمور
- 52 الجناوني: كتاب الوضع، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم 117 فقه المذاهب، ميكروفيلم 47361، ورقة 74، عبد الوهاب بن رستم: م.س، ص 88، الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي، قسنطينة، 1974، ج 2، ص 398، الشماخي: كتاب الإيضاح، عمان، 1983، ج 8، ص 236، بينما لم يول الشيعة هذه المسألة اهتماماً لأن تأويل الحج عندهم كان يعني معرفة امام الزمان . انظر ابن حيون: تأويل الدعائم، تحقيق محمد حسن الأعظمي، ط. دار المعارف، مصر، (د . ت)، ج 3، ص 148.
- 53 الدرجيني: م.س، ج 2، ص 398.
- 54 م.س، نفس الجزء والصفحة.
- 55 م.س، ورقة 89 .
- 56 الدرجيني: م.س، ج 1، ص 66، الشماخي: كتاب السير، تحقيق احمد بن سعود السيابي، ط. وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1987، ج 1، ص 140 .

- مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية  
مجلة دورية دولية محكمة
- 57 انس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهي الآمال والمآرب  
سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، فاس، 1968، ص 3 .
- 58 الشماخي: الإيضاح، ج8، ص236، ابن سهل: م.س، ج1، ص  
ص 151، 152
- 59 ابن العطار: م.س، ص ص 461، 465، 476 .
- 60 التجاني: م.س، ص 0 210
- 61 م.س، ص 83 .
- 62 كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، 1970، ص 146 .
- 63 الدرجيني: م.س، ج2، ص 412.
- 64 م.س، ج6، ص329، ج9، ص 286 .
- 65 التجاني: م.س، ص 192
- 66 م.س، ص 191 .
- 67 م.س، ص 193 .
- 68 القيسي: م.س، ص 27 .
- 69 م.س، ص ص 40، 41 .
- 70 ابو زكريا: كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، ط.  
الدار التونسية للنشر، 1985، ص249

71 عياض:م.س،ج3، ص 370 .

72 المقرئزي، اتعاظ الحنفا في ذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيبال، ط. دار الفكر العربي، 1948، ص ص 67 - 70

ABD el Wahed (A): Contribution a une theore sociologique de l'esclavage , Paris , 1931, p. 114 .

74 انظر هذه ابن فرحون: م.س، ج2، ص ص 184 - 190، ابن سلمون الكنايني: العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام علي هامش كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1301 هـ، ج2، ص ص 264، 265 .

75 الناصري: قطع الوتين في المارق من الدين أو الصارم البتار فيمن افتي ببيع الأحرار، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم 85 جغرافيا " قائمة الوارد حديثاً "، ورقة 110 .

76 مؤلف مجهول: بشائر الفتوحات والسعود في احكام التعزيرات والحدود، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم 41 بعثة المعهد الأولى إلى المغرب ، ورقة 29 .

سِفارة مُحمد البُوحميدي خليفة الأمير عبد القادر إلى السُلطان المغربي سنة  
.1847

د. محمد السعيد قاصري

جامعة محمد بوضياف - المسيلة-

ملخص المقال باللغة العربية

يندرج هذا المقال ضمن التاريخ الدبلوماسي للأمير عبد القادر، ويتعلق الأمر هنا بمحمد البوحميدي الذي أرسله على رأس بعثة دبلوماسية إلى السلطان المغربي في نهاية شهر نوفمبر 1847 للتفاوض مع السلطان حول تخفيف حدة التوتر القائمة بينه وبين الأمير ، إلا أن السلطان ألقى القبض على البوحميدي ثم أمر بقتله، فازدادت العلاقات تدهورا وفتحت المجال لصراع الإخوة الأشقاء ، صراع لا تزال انعكاساته قائمة إلى اليوم.

ملخص المقال باللغة الفرنسية

Cet article est inclus dans le cadre de l'histoire diplomatique de l'Emir Abdelkader, il s'agit ici de Mohamed El-Bouhmidi qui l'a envoyé en tête d'une délégation diplomatique au Sultan du Maroc, à la fin du mois novembre 1847, en vue de négocier avec le Sultan à propos de l'allègement de l'acuité de l'aigrissement vécue entre lui et l'Emir.

Cependant, le Sultan a capturé El-Bouhmidî puis il a ordonné son assassinat, c'est pourquoi les relations se sont détériorées davantage en s'ouvrant sur une atmosphère d'une lutte fratricide des frères germains dont les séquelles durent jusqu'à présent.

#### مقدمة:

لم تكن سفارة محمد البوحميدي الولهاصي، خليفة الأمير عبد القادر على مقاطعة تلمسان إلى السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام سنة 1847 الوحيدة من نوعها، فقد سبق للأمير أن بعث بعدة سفراء ووفود إلى عدة جهات كان من أبرزها: سفارة محمد بن قلّة إلى القنصل الأمريكي "جيمس ر. ليب James R Leib" بطنجة في موفى سنة 1835 ومطلع سنة 1836، سفارة الميلود بن عراش إلى الملك الفرنسي "لويس فيليب" سنة 1838، سفارة الكولونيل اسكوت Scott" إلى بريطانيا سنة 1841، سفارة محمد الصغير بن عبد الرحمان إلى داي تونس أحمد باشا بعد سنة 1837، وسفارة البوحميدي إلى السلطان المغربي في أواخر سنة 1847.

وإذا كانت سفارة محمد بن قلّة قد تطرق إليها علي تابلت<sup>1</sup>، وسفارة الميلود بن عراش تطرق إليها إسماعيل العربي<sup>2</sup>، وسفارة الكولونيل سكوت إلى بريطانيا تطرق إليها "سكوت" نفسه في كتابه الموسوم بمذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر سنة 1841<sup>3</sup>، وسفارة محمد الصغير بن عبد الرحمان إلى



داي تونس قد أشار إليها البعض من الباحثين<sup>4</sup>، فإن سفارة محمد البوحميدي إلى السلطان المغربي، لم تحظ في حدود علمنا بالدراسة، وبناء عليه فإننا سنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على هذه السفارة التي تُعد بمثابة آخر نشاط دبلوماسي للأمير عبد القادر قبل التوقيع على عهد الآمان مع الجنرال "لاموريسيير Lamoricière" في أواخر شهر ديسمبر 1847.

يعود السبب في معالجتنا لهذا الموضوع إلى محاولة إبراز الجوانب المنسية من التاريخ الدبلوماسي للأمير عبد القادر، ومعالجة اللبس والاختلاف الحاصل بين المصادر والمراجع التي حاولت الإشارة إلى هذه السفارة؛ حيث يذهب بعضها إلى أن البوحميدي وبمجرد وصوله إلى المغرب أُلقي عليه القبض بأمر من السلطان وتم اعتقاله، وأثناء سجنه أُجبره السجن بإيحاء من السلطان على تناول السم الذي مرّق أمعائه وكان سبباً في وفاته، وهذا يُعد جريمة في تاريخ العلاقات الدبلوماسية المغاربية في العصر الحديث.

ويذهب بعضها الآخر إلى أن البوحميدي أُستقبل بحفاوة كبيرة من طرف السلطان وحضي عنده بمكانة مُعتبرة، ففضّل حينها البوحميدي الإقامة بجوار السلطان بدلا من العودة إلى الأمير عبد القادر، واستقر بالمغرب ردحا من الزمن إلى أن وافاه أجله بالمغرب. وعليه فأَيّ الطرفين على صواب؟ وما هي الشواهد التي يركز عليها كل طرف؟ وكيف يمكننا إعادة بناء الأحداث التاريخية لهذه السفارة في ظل هذه المستجدات؟ على الرغم من إجماع المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها على أنّ البوحميدي قد تُوفي فعلا في المغرب، ولكن يبقى السؤال المطروح هو: كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟ وأين؟. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى يُمكننا أن نتساءل عن الملابسات التاريخية التي أحاطت بهذه السفارة، وهل توصلَ البوحميدي إلى عَقْد الصُّلح بين الطرفين؟ وما هي نتائج هذه السفارة؟ وما هي انعكاساتها على العلاقات الجزائرية المغربية على المدى البعيد؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المقال. بناءً على هذه الإشكالية وغيرها من التساؤلات التي ستطرح نفسها في صلب الموضوع إرتأينا معالجة هذا المقال وفق العناصر التالية:

1. التعريف بالبوحميدي.

2. الظروف التاريخية التي أحاطت بسفارته.

3. مجرياتهما.

4. نتائجها.

5. خاتمة.

-التعريف بالبوحميدي:

هو أبو عبد الله محمد البوحميدي الوُلْهَاصِي، ولد ما بين سنتي 1226-1227هـ/ 1811-1812م بولهاصة<sup>5</sup>، عاش طفولته في كنف عائلته، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة؛ كقراءة القرآن الكريم وحفظه وتفسيره، ثم تدرج في تحصيل علوم الفقه والشريعة تحصيلاً جيداً لدرجة أن أصبح مُتَفَقِّهاً في علوم الدين ومشهوراً فيها، وإلى جانب ذلك كان البوحميدي منذ صغره شغوفاً بالفروسية ومُختلف الفنون القتالية؛ فكان فارساً مغواراً وبطلاً مقداماً؛ يتصرفُ بمهارة في

السيف والبندقية<sup>6</sup>، أما صفاته الجسمية فهو متوسط القامة ونحيف، قوي العضلات، ذو لحية سوداء وكثيفة وبشرة سمراء، وكان أحب شيء إليه حبه لكتبه وسلاحه<sup>7</sup>.

### - استخلافه على تلمسان:

بعدما تمت مبايعة الأمير عبد القادر البيعة العامة في شهر فيفري 1833، قام بتعيين محمد البوحميدي خليفة له على منطقة الغرب الجزائري، وبعد التوقيع على معاهدة التافنا باتت تلمسان مقاطعة من المقاطعات التي أسسها الأمير عبد القادر، فأبقى على البوحميدي خليفة له على هذه المقاطعة<sup>8</sup>، نظراً للحصالة التي كان يتمتع بها، وتوفره على الشروط التي وضعها الأمير في اختيار خلفائه مثل: القدرة، الكفاءة، الإخلاص، العلم، ومما جاء في تعليق الأسير الألماني "يوهان كارل بيرنت Johann Carl Berndt" على هذا التعيين، بعد ما أشار إلى إبعاد محمد بن نونة الذي كانت له رغبة في تولي هذا المنصب: «وإنما عين النبيل العالم البوحميدي خليفة لمدينة تلمسان»<sup>9</sup>، ومن بين الأعمال التي اشتهر بها أثناء خلافته:

1- الإشراف على ترتيب اللقاء الذي جمع بين الأمير عبد القادر والجنرال "بيجو Bugeaud" لتوقيع معاهدة التافنا سنة 1837؛ حيث كان يفود كوكبة من الفرسان محكمة التنظيم والتدريب قوامها 15.000 فارس؛ غايته في ذلك إبراز قوة الجيش النظامي الأميري وتربيته المحكم، مما جعل الجنرال "بيجو" يعتقد أن الأمير ضمن هذه الكوكبة، ولكن البوحميدي الذي استنفر الجنرال "بيجو" مراراً، سرعان ما اقترب منه على ظهر جواده وأخبره بأن الأمير لم يصل بعد، وهو على

مقرية من مكان عقد اللقاء، واستمر "بيجو" في الانتظار لمدة خمس ساعات، وهُنا تبرز لنا شخصية البوحميدي ودهائه العسكري في تنظيم وترتيب هذا اللقاء التاريخي، ولثقة الأمير في البوحميدي كلفه بترتيب حراسة مُعسكره وأشار عليه بما يجب القيام به قبل أن يجتمع بالجنرال "بيجو"<sup>10</sup>.

-تفطنه للجاسوس "ليون روش" أثناء إقامته بمدينة تلمسان، فحاول إعدامه بسبب الشكوك التي كانت تُراود البوحميدي حوله؛ ولم يسمح له بالسفر إلى وهران دون إذن منه<sup>11</sup>، كما أنه لم يتفق فيه قط واعتبره مجرد مسيحي في صورة مسلم مُزيّف، وهذا ما يوضحه الشاهد التالي: « وأثناء إقامة ليون روش في مدينة تلمسان؛ شك فيه المسلمون واعتبروه جاسوسا فرنسيا، فوضع عليه الخليفة البوحميدي عيونه، ولما أحس "روش" بذلك حاول الفرار إلى مدينة وهران؛ ولكنه فشل في الأخير، ولما قرر الخليفة إعدامه بادره روش تحت قناع الإسلام، بأنه مسلم لا يجوز قتله إلا بأمر من السلطان، وأنه ما فر إلا لتساوة معاملة الخليفة له، فغفا عنه الخليفة وقرر إرساله إلى الأمير؛ خاصة وأن رأي مجلسه [مجلس البوحميدي] كان في صالح روش»<sup>12</sup>.

وما إن وصل روش إلى الأمير الذي كان متواجدا بالمدينة مطلع أبريل 1838، أخبره بحاله، وبكى أمامه، ثم اشتكى له من ظلم وجور الخليفة البوحميدي ورجاله، وسوء معاملتهم له وإتهم اغتبروه كافرا وليس مُسلما أتى في خدمة الأمير لِنصرة الحق على الباطل وإظهار التور على الظلام، ولعب روش على سذاجة (كذا) الأمير وقال له: هكذا يُستقبل مسيحيًا اعتنق الإسلام بإرادته؟ ثم بالغ في التضرع فصدقه الأمير ووعده أنه سوف لا يتركه يفارقه أبدا<sup>13</sup>.

-خاض مُعظم المعارك التي جرت في مُقاطعته بِحُكْمَةٍ وثباتٍ، بل كان مُرافقًا دائمًا للأمير كُلِّما حلَّ بِمُقاطِعَتِهِ، وكُلِّما خاض الأمير معركة ضِدَّ العدوِّ إلَّا وكان البوحميدي من ورائِهِ، والشَّاهد في ذلك ما ذَهَبَ إليه أحمد الرَّاشدي الشُّقْراني في قوله: « والسُّلطان [يقصد الأمير] يمشي أمامه وخليفة الإبالة الغربي وهو السيد محمد البوحميدي خلفه بجيوشه»<sup>14</sup>، ومن أهم المعارك التي خاضها البوحميدي مع الأمير على سبيل المثال معركة سيدي إبراهيم سنة 1845، التي أَسْرَ فيها حوالي 300 جندي فرنسي، ومَّا جاء حول مُساندة البوحميدي للأمير في هذه المعركة حسب ابن عُودة المُراري: « فقبل المعركة بعث الأمير أمامه خليفته البوحميدي الوُلْهاسي لتجسس الأُخبار بغاية الثبات، فبينما خليفته سائرا بجيشه وإذا به رأى محلة الدولة بنواحي سيدي إبراهيم من نواحي زاوية بن ميرة، فبعث رسولا للأمير يخبره ليخبره بذلك<sup>15</sup>، واجتمع بالبوحميدي وقَسَمَ جيشه على ثلاثة: مقدمة وميمنة وميسرة في القول الشهير، فجعل في الميمنة خليفته الحاج مصطفى بالتهامي (كذا) بجيشه، وفي الميسرة خليفته البوحميدي بجيشه، وبقي هو في المقدمة بجيشه»<sup>16</sup>.

-قُدِّرته على ضَبْطِ شُؤون مُقاطعته من خلال الصَّرامة التي كان يَتَميِّزُ بِها، وهذا ما جاء على لسان الأمير: « ولكن عندما استؤنفت الحرب [يعني سنة 1839] لم أستطع أن أمنع الغش، وقد اغتنم العرب في كل مكان فرصة انشغالي، ولم يستطع سوى خليفتي أن يحافظا على النظام الذي أقمته إلى آخر لحظة وهما: البوحميدي وابن علال، وقد كان الناس يخشون كل منهما لصرامته»<sup>17</sup>، وإلى جانب هذه الصَّرامة اشْتَهَرَ أيضا طيلة مدة خِلافته بالعدل بين الناس<sup>18</sup>.

## -قيادته لدائرة الأمير عبد القادر بالمغرب:

بَرزت شخصية البوحميدي مرةً أُخرى في قيادته لدائرة الأمير وحميته لها من كُل مَكْرُوهٍ، وبيزُر دَوْرُهُ بهذا الخُصوص بعد وَقْعَةِ تموشنت التي أُسر فيها عَدَد مُعتبر من الجنود الفرنسيين فُدِّر عددهم حسب رواية الأمير محمد باشا بحوالي 600 جندي<sup>19</sup>، وعندما عاد الأمير من المغرب مُجدداً لمقاومة الفرنسيين بالجزائر سنة 1846، كَلَّف البوحميدي بِقيادة الدَّائرة وحراسة الأُسرى بِمُساعدة عدد قليل من الجنود، وهو ما شكَّل صُعبوة كبيرة للبوحميدي الذي بات مُهدداً بالهُجُوم المباغت على الدَّائرة في أيِّ لحظة سواء من طرف الجيش الفرنسي أو الجيش المغربي لِإنقاذ الأُسرى وتَفكيك الدَّائرة، وفعلاً فقد أبلى بلاءً حسناً وتَمكَّن من صدِّ كل المحاولات العسكرية التي قام بها الأعداء لِإفتكاك الأُسرى، كما عَمِل كل في وُسْعهِ لِتأمين الثُوت لها، بِمُساعدة بعض القبائل المغربية المناصرة للأمير.

ونظراً للصُعوبات التي واجهها الأمير أثناء تَوَعُّله في الجزائر، بعث إلى البوحميدي لِيتحقق به، واستبدله ببن التهامي، وبهذا الخُصوص يذكر الأمير محمد: «لما عزم الأمير على الاتجاه إلى الصحراء وبلاد القبائل بجزيرة، كَلَّف صهره الحاج مصطفى بن التهامي بأمرهم [أي الأُسرى] وأمر الدائرة، وأمره أن يطلب من الخليفة البوحميدي الالتحاق به، وفي العاشر من شهر أفريل سنة 1846 وصل مصطفى بن التهامي إلى الدائرة ليتولى قيادتها فوجدها تمر بظروف صعبة، كإخفاض عدد المقيمين بها بالخروج منها، ومعاناة أهلها من الجوع والحريمان، ولم تَعُد القبائل المغربية المجاورة لها تُموِّنها بما نَحْتَاج إليه إلاّ بالدفع مسبقاً»<sup>20</sup>، رغم مَجْهُودات

البوحميدي التي بذلها في هذا الشأن، وهذا ما سيُصعّب من مسؤولية ابن التهامي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى اعتقد البوحميدي أنّ أمر التحاقه بالأمير مؤامرة مُدبّرة ضده من طرف ابن التهامي، كوّن أمر الالتحاق بالأمير كان شفوياً، ورغم ذلك سلّم الدائرة له، لكنه لم يلتحق بالأمير، وهذا لا يُعد عَصياناً في نظرنا في ظلّ الخلافات التي كانت قائمة بين ابن التهامي والبوحميدي، فأخذ هذا الأخير حسب رواية الأمير محمد «يُثير المشاكل للحاج مصطفى، وأوعز إلى بني عامر الموجودين في الدائرة بأن يعودوا إلى أوطانهم أو يلتحقوا بسلطان المغرب في فاس، فهرب في ليلة واحدة حوالي مائتي خيمة والتجئوا (كذا) إلى القبائل المجاورة للدائرة وتبعهم الناس»<sup>21</sup>، فعُضِب ابن التهامي من ذلك وطلب من كل شخص يُريد مُغادرة الدائرة أن يُسلم فرسه إلى من قُتلت ذابته، وهم شديداً الحرص بخيولهم، فزادهم ذلك نُفوراً ودفعهم إلى الهروب من الدائرة<sup>22</sup>.

في ظلّ هذه الظروف توصل ابن التهامي بأخبار مفادها: إنّ الجيش المغربي الذي كان على مقربة من الدائرة، هو على وشك الهجوم عليها لتفكيكها وإنقاذ الأسرى، وليس لابن التهامي القوة الكافية لمواجهة هذا الخطر، ولذلك زادته فكرة قتل الأسرى الفرنسيين والتخلص منهم، ومُبرره في ذلك: إن قتلهم قد يمنع الناس من الفرار من الدائرة إلى السلطان، بمعنى تهديدهم هم أيضاً بالقتل إذا لم يرتدعوا، وفي نفس الوقت قطع الطريق أمام أطماع الجيشين الفرنسي والمغربي المُتربصة به لاقتحام الدائرة وإنقاذ الأسرى؛ فقام في ليلة 24 أبريل 1846 بقتل

ما مجموعه 187 أسيرا وأبقى على حياة أحد عشر أسير، وهو عدد الضباط الفرنسيين<sup>23</sup>.

وبعد عودة الأمير من حديد إلى دائرته بالمغرب، وقف على حادثة قتل الأسرى، فوَجَّهَ صِهْرَهُ عَلَى هَذِهِ الْفِعْلَةِ الشَّنْعَاءِ، رَغْمَ مُحَاوَلَاتِ ابْنِ التَّهَامِيِّ تَبْرِيرَ مَوْقِفِهِ لِلْأَمِيرِ الَّذِي رَأَى فِي أَنَّ صِهْرَهُ ضَيَّعَ لَهُ فُرْصَةً ثَمِينَةً لِتَوْظِيفِ هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى كَوْسِلَةَ ضَغْطِ عَلَى الطَّرْفِ الْفَرَنْسِيِّ، بَيْنَمَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ أَيُّ شَيْءٍ بُحَاةِ الْبُوْحَمِيدِيِّ، وَلرَبَّمَا يُؤَكِّدُ لَنَا هَذَا مَرَّةً أُخْرَى عَدَمَ اسْتِدْعَاءِ الْأَمِيرِ لِلْبُوْحَمِيدِيِّ أَصْلًا، وَلِتَوْضِيحِ مَوْقِفِهِ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ كَتَبَ الْأَمِيرُ رِسَالَةً إِلَى الْمَلِكِ الْفَرَنْسِيِّ يَشْرَحُ لَهُ فِيهَا الظُّرُوفَ الَّتِي أَحَاطَتْ بِقَتْلِهِمْ<sup>24</sup>.

وبقتل الأسرى فُتِحَ الْبَابُ عَلَى مِصْرَاعِيهِ لِاحْتِمَالَاتِ كَثِيرَةٍ، وَلَمْ تُصْبِحْ قَضِيَّتُهُمْ تُلْقَى بِظِلَالِهَا عَلَى تَحْرِكَاتِ الْجَيْشِيِّينَ الْفَرَنْسِيِّ وَالْمَغْرِبِيِّ بِالْمَنْطِقَةِ، وَعَلَيْهِ بَاتَتْ عَمَلِيَّةُ الْإِقْدَاءِ الْقَبْضِ عَلَى الْأَمِيرِ وَتَفْكِيكِ دَائِرَتِهِ الْهَدَفِ الرَّئِيسِ لِهَٰذَيْنِ الْجَيْشِيِّينَ، وَلِذَلِكَ عَرَفَتْ الْأَشْهُرَ الَّتِي أَغْقَبَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةَ تَطَوُّرَاتٍ عَسْكَرِيَّةً وَسِيَاسِيَّةً خَطِيرَةً جَدًّا، لَا يَسْعُنَا الْجَمَالَ لِلتَّطَرُّقِ إِلَيْهَا إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَا نَرَاهُ يَخْدَمُ هَذَا الْمَقَالَ، وَهَذَا مَا سَنُدْرَجُهُ ضِمْنَ الْعُنْصُرِ الْمَوَالِي:

## 2- الظُّرُوفُ التَّارِيخِيَّةُ الَّتِي أَحَاطَتْ بِسَفَّارَةِ الْبُوْحَمِيدِيِّ:

جرت هذه السَّفَّارَةُ فِي ظِلِّ ظُرُوفٍ صَعْبَةٍ كَانِ يَمُرُّ بِهَا الْأَمِيرُ وَدَائِرَتُهُ فِي الْمَغْرِبِ، ظُرُوفٍ سَاهَمَتْ فِي تَعْقِيدِهَا كُلِّهَا مِنَ الطَّرْفِ الْفَرَنْسِيِّ وَالطَّرْفِ الْمَغْرِبِيِّ لِتَطْوِيقِ تَحْرِكَاتِهِ



ومحاولة إلقاء القبض عليه، استنادا إلى اتفاقية طنجة 1844 ومعاهدة لالة مغنية 1845، وعليه فَمُعَالَجَتُنَا لهذا العُنصر ستكون على النحو التالي:

لم يتوان السلطان المغربي خلال الفترة الممتدة من شهر جوان 1847 إلى شهر ديسمبر 1847 في بذل كل ما في وسعه لتطويق تحركات الأمير بطرده من المغرب أو إلقاء القبض عليه والتخلص منه، ومن بين الخطوات التي قام بها في هذه المرحلة هو تَعَبُّة الجيش المغربي وإسناد قيادته إلى محمد بن سالم الأحمري المالكي العروي<sup>25</sup>، وهو ما فرض على الأمير حتمية المواجهة العسكرية لدفع الخطر والدِّفاع عن النفس، ريثما ينجلي له الموقف بالخروج من المغرب، وتبرز لنا ملامح هذه المواجهة من خلال الأحداث التالية:

### 1- واقعة قلعة تافريست:

كان الأمير مُخِيما بين أراضي بني تُوَزين والمطالسة من قبائل الرِّيف، بينما كان الأحمري مُخِيما بقلعة تافريست، فأرسل الجواسيس لاستطلاع أمر الدائرة، وبعد انكشاف أمرهم من جانب الأمير أخذ حذرُه واستعد للدِّفاع، وعندما تقدّم الأحمري للقيام بالهجوم المفاجئ على الدائرة، تبين له أنّ الأمير تفضّل له، وهو على استعداد لمواجهته، فتظاهر بأنّه جاء لزيارته ومنح له فرسًا كعربون للمودة؟!، ثمّ تراجع إلى مقرّه دون تحقيق هدفه.

ونتيجة لذلك استدعى الأمير أنصاره من المطالسة، بُوو بُويجي، القلايا، وجزء من بني سناسن واقترّب من مُخيم القووات المغربية ليلتي 6 و 7 جوان 1847م، فأضطرت واستعدت للقتال، لكن الأمير أبلغهم أنّه جاء لزيارة قائدهم، ثمّ

إختار 50 فارساً بقيادة البُوحميدي وأمرهم بالتوجه إلى مقر قيادة الأحمر للتعبير عن التوايا السلمية، لكن وصول فرسان البُوحميدي قد أثار الهلع والفوضى في صفوف الجيش المغربي المخيم قرب قلعة تافريست - أين يُقيم الأحمر - وعلى إثر ذلك نهض الأحمر وحاول إطلاق النار مباشرة على البُوحميدي، إلا أن حرس هذا الأخير ردوا عليه بسرعة فأزده قتيلاً؟ ثم سرعان ما تراجع البُوحميدي بفرسانه صوب الأمير، الذي اشتمَّز كثيراً لمقتل القائد الأحمر.

وعلى أثر ذلك تحركت القوات المخزنية<sup>26</sup> لتعقب فرسان البُوحميدي إلا أنها مُنيت بالفشل، وهذا ما تُشير إليه مُذكرات الأمير: «وما فاجأنا إلا وقومه وسط حللنا ونحن جلوس وخيلنا غائبة والجيش على مسافة يوم بخيله في الربيع [يعني المرعى] فركب أناس قليلون وتكلم البارود، فانهزموا بعون الله، ومن الغد حصلت لهم أنفة فركبوا وركبنا قبالتهم ثم رجعوا إلى محلّتهم»<sup>27</sup>، وقد ترك الجيش المغربي محلّته وقفل فارا باتجاه الغرب إلا أن الأمير عبد القادر لم يتعقبه، وبذلك تنتهي هذه الواقعة التي جرت بين الطرفين!.

## 2- معركة قبيلة قَلْعِيَّة:

جرت وقائعها عبر مرحلتين: فالمرحلة الأولى تبدأ بالتزامن مع واقعة قلعة تافريست، ففي ظلّ انشغال الأمير بهذه الواقعة قامت بعض القبائل المغربية بالإغارة على المتسوّقة من الدائرة ونهب أمتعتهم، فأمر الأمير أفرادها بردّ ما حَبُوه منهم، إلا أنهم رفضوا ذلك، فأجبرهم بالقوة على ردّ الأمتعة المسلوبة، وهذه الوقائع جرت خلال شهر جويلية 1847، والشاهد على ذلك رسالة السلطان إلى ولده سيدي محمد بتاريخ 21 جويلية 1847، التي تطرّق فيها إلى هذه الحادثة:

«وعلمنا ما ارتكب الفتان أهلكه الله من نزوله على قلعية حتى ردوا ما كانوا نهبوا لأصحابه ووظف عليهم الزعيرة زيادة على ذلك»<sup>28</sup>.

بينما تبدأ المرحلة الثانية بالتزامن مع معركة الحشم وبنو عامر خلال شهري أوت وسبتمبر 1847، فالأمير بعدما عاقب قلعية، توجه نحو الغرب لملاقاة الحشم وبنو عامر العائدين إلى الدائرة، قامت قبائل قلعية بالهجوم على دائرته للمرة الثانية، وعلى اثر عودة الأمير إليها ووقوفه على حجم الخسائر التي لحقت بها، بعث إلى قبائل العرب المحيطة به كالأحلاف والمطالسة والسبع وغيرهم لإستشارتهم في شأن ما حدث، فأجمعوا رأيهم على مساعدته، فهاجم قبائل قلعية وقتل من الطرفين المئات، وتعتبر هذه الواقعة الأليمة هي الحادثة الثانية ضمن تطورات هذه المرحلة!

### 3- معركة قبائل الحشم وبنو عامر:

تعود أسباب هذه المعركة إلى اكتشاف خطة تحرك قبائل الحشم وبنو عامر باتجاه الأمير وتراجعها عن قرار خروجها من الدائرة كما سبق وأن ذكرنا، حيث اتفقوا على اللقاء معه ببلاد مكناسة، ونظرا لخطورة تحرك هاتين القبيلتين باتجاه الأمير، بعث سيدي محمد بقوة مخزنية قوامها 3000 فارسا بقيادة القائد فرجي لمنعهم من هذا التحرك وإجبارهم على الانتقال إلى مراكش، لكن توفّر بنو عامر على 800 فارسا و 1200 راجلا؛ قد مكّنهم من اختراق صفوف قوات فرجي وسأروا قُدماً في اتجاه واد اللّبن، لكنهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى المكان الذي تواعدوا فيه مع الأمير، لأنّ الجيش الذي أرسله السلطان لملاحقتهم والمقدر بـ 15000 جندي قد لحق بهم ببلاد الحياينة وحاصرهم بالتعاون مع فرسان

قبائل تلك الناحية وقضى عليهم، وحُمل نساؤُهُم وأطفالُهُم إلى الأستِراق<sup>29</sup>، ولقد نقل لنا كل من محمد أكنسوس السّجلماسي (ت1294هـ/1877م)<sup>30</sup> وأحمد النَّاصري السّلاوي<sup>31</sup> تفاصيل هذه المعركة بالمزيد من الشرح والتعليق لمن يُريد الرّجوع إليها.

ونفس الشّيء حصل مع قبائل الحشّم الذين رفضوا هُم أيضًا تنفيذ الأُمر السّلطاني الذي صدر إليهم بالتّوجّه نحو مُراكش، وقصّلوا اللّجوء إلى عُزيب في مُلك زاوية وزّان حيث طلبوا من رئيسها سيدي عبد الكريم بن علي التّدخل لدى السلطان للعدول عن قرار نقلهم إلى مُراكش، فدبّر لهم مكيدهً وهي استِضافتهم بالمبيت عنده، ثمّ نقلَ الحَبْر إلى السلطان الذي أرسل في إثرهم قُوات ضخمة أدركتُهُم في الصّباح الباكر وأحاطت بهم من كل حدبٍ وصوبٍ إلى جانب القبائل المجاورة للزاوية، وتمّ الهجوم على الحشّم الذين قُتل أغلبُهُم وأسر الأحياء منهم، وبيعوا كعبيد في أسواق النّخاسة.

وهكذا واجه الحشّم وبنو عامر مصيرها دُونَ أن يتمكّن الأمير من الوصول إليهما وبجَدتهما، حيث منعتُهُ قبيلتي التّسول والبرانس من المرور عبر أراضيهم وأشهرتا السّلاح في وجهه، وفي هذه الأثناء اضطر الأمير للعودة إلى دائرته التي كانت قد أغارت عليها قبيلة قلعية وهبّتْها.

#### 4-الحملة العسكرية المخزنية (أكتوبر - ديسمبر 1847):

أثمرت هذه المواجهات الدّامية على مُواصلة إصرار السلطان المغربي على الحل العسكري؛ ولضمان نجاح هذه الحملة أشرف بنفسه على إعدادها وتجهيزها،

وهذا ما نلّمسه من خلال رسائله إلى وليّ عهده سيدي محمد بتاريخ 29 سبتمبر 1847م ومّا جاء فيها: «فبوصول كتابنا هذا إليك تأهب للنهوض لهذا الأمر المهم بنفسك ولا تظهر النهوض حتى تكون بمكناسة، وتوجه لك من المحلة التي معنا وتتوجه معك محلة الحوز والمدد الذي في الحياينة وغيره لتأزّا<sup>32</sup>... وأهل الحوز إن رأيتم يتشوفون لأعانتته [يعني ابن عبد الصادق] اجعل لهم درهما للفراس في اليوم... بيّن لنا عدد ما عند أبا محمد خيلا ورماتا( كذا) مخازني وغيرهم وعدد ما مع أخيك وكم عندك بفاس كذلك»<sup>33</sup>.

ولتّشمين هذه الحملة توجّه السلطان نحو فاس، وأثناء وُصوله إلى مكناس يوم 02 أكتوبر 1847 كتب إلى سيدي محمد ما نصه: «والنظر فيما ترتكب في تدمير الفتان وأنت بفاس، ورتب الأمور التي تحتاج إليها وتخاف تراخيها ولا تظهر حتى تُرتب الأمور وتهبى الأسباب... وبنفس وصولك إلى تازة يكون الشروع في مناجزته ومناذته، ولا تطول إقامتك هناك إلا نحو العشرة أيام وما قاربها، لأن الطول يوجب الملل عموما وخصوصا مع الغلاء والجذب»<sup>34</sup>.

ويُوصيه كذلك بِكَيْتْمَان هذا التحرك العسكري وباستخدام الحيلة والسياسة: «وأكتّم أمر نهوضك مع تهبى الأسباب، فهذا الجيش الفاسي ليس في أعيانهم رجل رئيس يقدم خدمة فيقوم بها أو يتولى خطه فيحسن التصرف فيها، فلا تعول على أحد منهم وإنما هم أجسام بلا عقول... وقد جرّناهم واحد بعد واحد فما رأينا منهم من يصلح لصالحه ولا من تعود منه فائدة ونجدة... ونحن إنما نجامل الناس ونقضي بهم على علاّتهم... ونبلسهم على حالاتهم إذ الضرورة أحوجت إليهم فكن من أمرهم على بال واقتفي آثارنا في معاملاتهم تتمد وترشد»<sup>35</sup>.

وفي يوم 18 أكتوبر 1847 يكتب له مرة أخرى: «ومقصودنا هو التيقظ والحزم والنظر في عواقب الأمور... وكان الواجب تقديم النظر في أمور المخازنية وإعداد من يتقدم ومن يتأخر، واختيار الخيل الصحيحة للسفر... وأن لا تتكل في ذلك على أحد فإنه لم يبق من يتكل عليه»<sup>36</sup>.

وبتاريخ خروج سيدي محمد من فاس على رأس جيش قوامه 15000 من الفرسان الرُماة، توجه في نفس الوقت شقيقه مؤلاي أحمد نحو تازة، وهذا ما تُشير إليه مُذكرات الأمير: «وعند هذا تحققنا أن العقون وإخوته الثلاثة أقام لهم أبوهم جنودا مجندة بقصدنا وبعثنا الجواسيس والحواسيس فمن مقلل ومكثر إلى أن اجتمعت المحال بالتازة (كذا)، استخبرنا على اليقين أنهم قسّموا المؤونة للعلف على خمسة وثلاثين ألف فارس... وتيقنا أن السلطان دخل فاس»<sup>37</sup>.

إنّ هذه التّحركات العسكرية الضّخمة سنّتقتي في الأخير وتجمّع كلها بقصبة سلوان قبل بدء العمليات العسكرية الأخيرة ضد الأمير، الذي لم يكن معه إلاّ عدد قليل من قوّاته التي لم تكن تتجاوز 20.00 نفر، غير أنه كان يوجد من بين هؤلاء 1200 فارس، وهم زهرة الفروسية الجزائرية، ومُعظم هؤلاء الرجال كانوا من أتباعه الملامزين له، والمشاركين معه في جميع الأخطار والمصاعب خلال مُقاومته البُطولية<sup>38</sup>.

في ظلّ هذه الظروف المشحونة بالتوتر الشّديد بين الأمير والسلطان، وفي ظلّ الصُّعوبات التي باتت تُعاني منها دائرة الأمير، كُنقص المؤونة، والتّضييق عليها من طرف القبائل المغربية<sup>39</sup>، جاءت سفارة محمد البوحيمي لتذليل هذه الصّعاب وتخفيف حدّة التوتر بين الطرفين؛ وقبل التّطرق إلى تفاصيل هذه السفارة

البوحميدية، أودُّ الإشارة إلى نُقطة رئيسية مَفادُها: مَنْ كان يَتَقَفُ وراءَ هذه السفارة؟ هل الأمير عبد القادر هو من بادر بِفِكرةِ إرسالِ البوحميدي إلى السلطان؟ أمْ أنَّ هُنَاكَ أطرافَ أُخرى اقترحت عليه التَّفَاوُضَ مع السلطان؟ بِخُصُوصِ الإجابة عن هذا السُّؤال وَفَعْنَا على اختلافِ حول هذه القضية بين المصادر والمراجع التي عُدنا إليها، وهذا ما سَنُوضِّحُه حسب الشَّواهد التاريخية التَّالية:

**1- مُذَكَّرَاتُ الأمير عبد القادر:** جاءت سفارة البوحميدي بِطَلَبٍ من الشَّيخ محمد بن عبد الرحمن الكُرُومي: «فبعدهما أخذ الأمان للبوحميدي من السلطان؛ قدم نحونا وطلب منا أن نأذن له في إرسال سفير إلى السلطان من لدنا فاستحيينا منه و أجبناه لما طلب من مرافقة البوحميدي فسرحناه معه»<sup>40</sup>.

**2- شارل هنري تُشرشل:** بعد أن يُشير إلى معركة الحشُم وبنو عامر، يقول بِشأن هذه السفارة: «وقد قرر [أي الأمير] أن يُوجِّه نداءً أخيراً إلى صديقه القاسم وحاميه والمعجب به، فأرسل خليفته البوحميدي في مهمة إلى فاس؛ ولجأ المبعوث [أي البوحميدي] إلى أكثر الطرق إقناعاً مُعدداً ذكريات الماضي المجيدة، وطالب بتطبيق أقدس شعائر الكرم باسم جميع علاقات الصداقة والدين»<sup>41</sup>.

**3- ابن عُودة المَزاري:** يَذْكُر بِشأن هذه النقطة: «ثم أن كبراء الأحلاف وغيرهم من العرب أتوا للأمير وحثوا عليه في إرسال الهدية التي كان يُجهزها لمولاي عبد الرحمان وتوانى عن إرسالها بسبب واقعة الأحمر وقلعية؛ فتشاور مع خلفائه وأعيان دائرته على ذلك فأشاروا عليه بإرسالها»<sup>42</sup>، وعيَّن خليفته البوحميدي ليكون على

رأس الوفد الذي سيرسله إلى السلطان لتبليغ هذه الهدية- التي سنشير إليها لاحقاً<sup>43</sup>.

**4- يحي بوعزيز:** بعدما يشير إلى المواجهات التي وقعت بين الأمير وجيش السلطان، يذكر لنا ما يلي: «ورغم ما في هذه الأحداث من آلام وفواجع، ورغم أن السلطان قد تجرّد من كل معاني الإنسانية، فضلاً عن الأخوة والقرابة والحوار، بحيث أصبح التعامل معه غير ذي موضوع، إلا أن الأمير رأى ألاّ يقطع حبل الأمل، حرصاً منه على إصلاح الوضع وتصحيحه بحقيقة الوضع فأرسل إليه وفداً يخبره بأن باللاحمر (كذا) هو الذي اضطره إلى القتال وأنه قام فقط بالدفاع عن النفس، ولكن السلطان رفض الاستماع إلى صوت الحق وألّف جيشاً ضخماً من حوالي خمسين ألف جندي أسند قيادته إلى ابنه أحمد ومحمد، وكلفهما بمحاربة عبد القادر»<sup>44</sup>.

من خلال هذه الشواهد يمكننا القول: إنّ سفارة البوحميدي وإنّ ساهمت فيها أطراف متعددة، فتطلّعات الأمير إلى تحسين العلاقات بينه وبين السلطان، كانت دائماً شغله الشاغل لتفويت الفرصة على الأعداء والمغرضين الذين يحاولون تسميم هذه العلاقات، والرّاجح هو أنّ الأمير زاد إعجابهُ بفكرة التّصالح مع السلطان عندما طُرحت عليه من هذه الأطراف، وبناءً عليه سُرّسل مبعوثاً عنه إلى حضرة السلطان قصد تجنّب إراقة المزيد من الدّماء بين المسلمين، والبحث عن حل يُرضي الطّرفين حول تواجد الأمير ودائرته بالمغرب.

**مُجرياتها:** بعد ما اقتنع الأمير بضرورة إرسال هذه السّفارة، وقّع اختياره على خليفته ورفيقه العالم الجليل محمد البوحميمي، ليكون على رأس الوفد الذي



سَيَّرسله إلى السلطان المغربي، تَشَكَّلت هذه السَّفارة من البوحميدي رئيسا ومحمد بن عبد الرحمان الكُرُومي، وبعض الأعيان من الدائرة ومن العرب المرينيين للهدية، وبعث معه بكتاب إلى السلطان ضَمَّنَه المعزى من هذه السَّفارة، وهذا ما يُمكن إيجازه في النقاط التالية:

1- إقناع السلطان في السَّماح للأمير بالانسحاب نحو الصحراء ريثما تسمح له الظروف بذلك.

2- عدم خروج الأمير من الأراضي المغربية لا يُفهم منه أنه تحدي للسلطان.

3- ما زُمي به الأمير من اتِّهامات حول الأطماع في عرش السلطان، ما هي إلا مجرد افتراءات كاذبة رَوَّجها العدو الفرنسي-بيجو، بول أزان، ليون روش-<sup>45</sup>.


4- قتل القائد الأحمر من قبل حرس البوحميدي كان بطريق الخطأ، وهو الذي أكرهه على استعمال القوة<sup>46</sup>.


5- بقاء الأمير عبد القادر على الطَّاعة والولاء للسلطان... الخ.


كما بعث مع هذا الوفد مَهديّة ثمينة إلى السلطان، وهذا ما أشار إليه ابن عُوْدَة في قوله: «انتخب [أي الأمير] من جيشه فرسين ذكرين من عتاق الخيل أحدهما للحيلاني ولد السايح، وثانيهما لمحمد ولد العزري الحشمي؛ وعندما تبيّن له أنه به عيب مفرط تركه وأخذ فرس السيد أحمد بن الشريف المعسكري، وكان كميتا وبأرجله الأربعة سواد خلقة يقال له البصري، وجعل عليهما سرجين جيّدين من ذهب خالص مع أشياء جلييلة في الهدية»<sup>47</sup>، وإضافة إلى هذه الهدية والكتاب وحسب ابن عُوْدَة دائما قام الأمير بتزويد البوحميدي بالرسائل التي كتبها له محمد

بن إدريس<sup>48</sup>، وأمره بأنه في حالة ما إذا لم يتعرض له أحد من الوُشاة بشيء فلا يُظهرها للسلطان؛ ثم شيّعه ورجع وقلبه في فلق من فراقه<sup>49</sup>.

وأثناء مُغادرة هذا الوفد للأمير عبد القادر، أنشد هذا الأخير قصيدةً شعريةً لتوديع البُوحميدي عُرفت بـ "يوم البين"<sup>50</sup>. وكان الأمير كان يعلم بمصير خليفته، لأنّه كان فعلاً الوداع الأخير، فعانق بعضهما بعضاً، وأحسّ الأمير بحسرة قاتلة تعصر قلبه، وممّا جاء في هذه القصيدة<sup>56</sup>:


قلّدت يوم البين جيد مودّعي  دررا نظمت عقودها من أدمعي

وحدا بهم حادي المطايا، فلم أجد  قلبي ولا جلدي ولا صبري معي

ودعتهم ثم انثنت بحسرة  تركت معالم معهدي كالبلقع

ورجعت لا أدري الطريق ولا تسل  رجعت عداك المبعوضون لمرجعي

يا صاح ع وأنصت لأخبار الهوى  حاشى لملكك أن أقول ولا يعي

إني أحدث في الهوى بغرائب  وعجائب حتى كأني الأصمعي

يا نفس قد فارقت يوم فراقهم  طيب الحياة ففي البقاء لا تطمعي.

تمكّنت قافلة البُوحميدي من الوصول إلى مدينة فاس يوم 27 نوفمبر 1847، وفي اليوم الثالث من شهر ديسمبر<sup>57</sup> استقبله السلطان، فسلمه البُوحميدي هدية الأمير وكتابه، ومن هنا تبدأ الروايات التاريخية في الاختلاف فيما بينها حول إدارة هذا اللقاء التاريخي، فهناك من يرى بأنّه كان لقاءً وُدّيّاً، من خلال الاستقبال

الذي حظي به الوفد الجزائري، وهناك من يرى عكس ذلك تمامًا، حيث لم يتم استقباله وفق الأعراف الدبلوماسية المتعارف عليها آنذاك<sup>58</sup>، ولكل طرف براهينه وحججه التي يستند إليها، وهذا ما سنعالجه وفق المنهج الفلسفي الجدلي على النحو التالي:

**1-الرأي الأول:** وقفنا بخصوصه على عدة شواهد تاريخية تُشاطرُه، يُمكن حصرها في ما يلي:

**-مصطفى بن التهامي:** اكتفى هذا المصدر بوضع عنوان رئيسي لهذه السفارة على النحو التالي: السُلطان يُنكّب بالبوحميدي في فاس، ومّا جاء فيه: «فحين تأمنوا من جانبنا بوصول البوحميدي إليهم، وجهوه لأبيهم وأصبحوا مُرتحلين زائدين نحونا ومن خدعنا بالله انخدعنا له»<sup>59</sup>، ولم يوضح لنا هذا المصدر المصير الذي آل إليه البوحميدي، ولم ترد أي إشارة أخرى للبوحميدي في هذا المصدر رغم أهميته.

**-الأمير محمد بن عبد القادر:** بعدما يُشير إلى وصول البوحميدي إلى السلطان، يذكر لنا: «فلم يحتفل به السلطان، ثم ألقى القبض عليه، وبعد أيام قلائل أتلفه بسمّ أكرهه ناظر الحبس على شربه، فمزق أمعاءه»<sup>60</sup>.

**-شارل هنري تشرشل:** جاء في روايته بعد ما أشار إلى اجتماع البوحميدي بالسلطان: «ولجأ المبعوث [أي البوحميدي] إلى أكثر الطرق إقناعاً مُعددا ذكريات الماضي المجيدة، وطالب بتطبيق أقدس شعائر الكرم باسم جميع علاقات الصداقة

والدين، ولكن أيام التضامن والأخوة والعاطفة قد ولّت بلا رجعة... وقد رمى بالبوحميدي في السجن حيث مات بعد قليل»<sup>61</sup>.

- أبو القاسم سعد الله: من بين ما أشار إليه في بعض مؤلفاته حول مصير البوحميدي: «فقد توفي البوحميدي في ظروف غامضة»<sup>62</sup>، ثم يُحاول ربط وفاته بوفاة كل من محمد البركاني: «ومات كذلك عضد الأمير الآخر، وهو محمد بن عيسى البركاني في تازة (المغرب)، وهكذا بقي الأمير وحيدا تقريبا»<sup>63</sup>، ومحمد بن عبد الله السقاط في المغرب؟! : «ونحن نعرف أن سقاط لم يكن الأول في هذا الموت المشبوه، فقد سبقه إليه محمد البوحميدي الوهاصي مبعوث الأمير إلى السلطان أيضا في نوفمبر 1847 في آخر محاولة للأمير لإصلاح العلاقات مع السلطان، ولكن البوحميدي لم يرجع وكان مصيره الموت وهو في ريعان الفتوة والاستعداد لمواصلة المقاومة»<sup>64</sup>.

وفي معرض حديثه عن لالة الزهرة-والدة الأمير- يُشير سعد الله أيضا إلى عملية قتل البوحميدي: «وقيل إنها هي التي نصحت ابنها الأمير سنة 1847 بتوقيف الحرب بعد مقتل البوحميدي في المغرب وفقدان الأمل في الهروب إلى الصحراء»<sup>65</sup>. نفهم من هذا أن عملية الاغتيال-الموت المشبوه- لم تَطال البوحميدي فحسب، بقدر ما مسّت عناصر جزائرية أخرى كانت على صلة قوية بالأمير؟؟؟.

-إسماعيل العربي: يقول بخصوص البوحميدي بعد وُصوله إلى السلطان: «واحتفظ السلطان بالبوحميدي تحت الحراسة، ثم أدخل السجن حيث أرغم على تناول مشروب مسموم ومات اثر ذلك»<sup>66</sup>.

-مولاي بالحميسي: يُشير إلى سفارة البوحميدي بعد وصوله إلى قَصبة سلوان: «من سلوان ذهب البوحميدي إلى فاس للتفاوض وتصفية الأجواء، فرفض السلطان أن يستقبله ورماه في السجن مدة ثم جرع مشروباً مسموماً قضى عليه في حينه»<sup>67</sup>.

-محمد المهناوي: جاء في روايته حول هذه السفارة بعد دخول البوحميدي على السلطان والجلوس بين يديه: «عندما دخل البوحميدي على السلطان وجلس بين يديه قال له أبو زيد-يعني السلطان-: ماذا تريدون؟ فقال له البوحميدي: نريد خاطرك ورضاك عنا والعفو عما سلف من الذنب، فقال له أبو زيد: اسمع أقول لك: إن أحب الحديث إلى الله أصدقه، وإنني لا أقبل منكم إلا إحدى الخطتين: إما الدخول لداخل الإيالة فتتزلون عندنا في عز وإكرام، وإما تخرجوا من الإيالة، وتتوجهوا حيث شئتم ولا أقبل منكم غيرها»<sup>68</sup>.

-يحيى جلال: جاء في معرض حديثه عن هذه السفارة، بعد وصول البوحميدي إلى السلطان: «حيث وجده في منتهى الغضب والاحتداد، ولقد أتممه السلطان بقتل القائد الأحمر، ومنعه من الكلام وأنه لن يعطي الأمان للأمير إلا إذا حظر بنفسه إلى مدينة فاس، وذكر الذين نقلوا المقابلة لـ "شاستو" أن السلطان كان يزيد كجمل هائج»<sup>69</sup>، معنى ذلك أن هذه الرواية تُفيدنا في معرفة الحالة النفسية المضطربة التي كان يمر بها السلطان، جرّاء ما كان يصله من أنباء مُغرّضة عن الأمير، وما كان يتعرّض له من تهديد وضغط فرنسي لتنفيذ ما هو مطلوب منه، وهو طرد الأمير من المغرب أو إلقاء القبض عليه والتخلص منه<sup>70</sup>.

-أديب حرب: بعدما يُشير إلى الاستعدادات المغربية لمُواجهة الأمير والمقدرة بحوالي 30.000 مقاتلا، يذكر بشأن هذه السّفارة: « وإزاء هذا الخطر المحدق به، انتدب ابن محي الدين خليفته البوحميدي إلى مراكش لإقناع مسؤوليها السماح للأمير بالانسحاب إلى الصحراء، وصل البوحميدي إلى فاس في 27 تشرين الأول [كذا وصوابه تشرين الثاني] واستقبله عبد الرحمان في 3 كانون الأول في قصره، وما إن بدأت المفاوضات بينهما حتى اتهم مبعوث الأمير بقتل ابن الأحمر، فألقي القبض عليه وأدخل السجن فمات فيه اثر تناوله السم»<sup>71</sup>.

من خلال ما جاء في هذه المرجعيات التاريخية التسعة، يُمكننا القول بأنّها جاءت كُلها تصب حول الطّريقة غير اللائقة التي أُستقبل بها البوحميدي في بلاط السلطان، ومن خلالها يُمكننا أن نُميّز بين مجموعتين منها، المجموعة الأولى: ترى بأن مصير البوحميدي تفرّز مُباشرة في حضرة السلطان وهو إلقاء القبض عليه وسجنه ثمّ قتله بالسم، ويتصدر هذه المجموعة كل من الأمير محمد، وشارل هنري تشرشل، كمصدرين أساسيين، ثمّ يليهم كل من إسماعيل العربي، مولاي بلحميسي، وأديب حرب، ويأتي في الأخير أبو القاسم سعد الله الذي لم يُحدّد لنا مصير البوحميدي بالضبط وإنّما اكتفى في روايته بقوله: تُوفي في ظروف غامضة، ويُقارن وفاته بوفاة البركاني والسّقاط، مما يجعل من حادثة قتل البوحميدي قصة واقعية، وهو ما عاد وذكرها لنا في روايته الثانية عندما تحدّث عن لالة الزّهرة والدة الأمير عبد القادر عندما نصحته بالخروج من المغرب والهروب نحو الصحراء بعد قتل البوحميدي.

أما المجموعة الثانية والتي يتصدرها ابن التُّهامي كمصدر اكتفى بتوظيف مُصطلح الخُدعة في قوله: ومن خَدَعنا بالله ائْخَدَعنا لَهُ، فهي إشارة واضحة تُفيد غَدْر السلطان البوحميدي والتَّنكيل به، ويليه كل من محمد المهناوي وجلال يحيى كمرجعيين في كَوْنِهِمَا اتفقا على أن السلطان طرح شَرطَيْن أساسيين على البوحميدي، وهما: خُرُوجه من المغرب، أو القدُوم إلى حضرة السلطان وتفكيك دائرته، بينما لم يشير إلى مصير البوحميدي.

غَيْرَ أَنَّ توصل الأمير فيما بعد بِهَاتَيْنِ الشَّرطَيْنِ من طرف بعض مُرافقي البوحميدي، يُفيدنا هذا بإلقاء القبض عليه، معنى ذلك أن أنصار الرأي الأول سواء المجموعة الأولى أو المجموعة الثانية يُجمعون على عملية إلقاء القبض على البوحميدي وأسرهِ كرهينة رَيشَما يَنْجَلِي موقف الأمير من الشرطين السالفين، ومن غير المستبعد أن تصاعد حدة التَوَثُّر على جبهة القتال فيما بعد دفعت بالسلطان إلى قتل البوحميدي والتخلص منه.

**2-الرأي الثاني:** تُشاطرهُ مجموعة من المصادر التاريخية، التي يمكن الإشارة إليها في ما يلي:

-**ابن عودة المزاري:** جاء في معرض حديثه عن هذه السَّفارة، بعد توديع الأمير عبد القادر لِبَعْتَةِ البُوحميدي: «...ثم جدّ البوحميدي السَّير بتلك الهدية وصحبته أعيان الدائرة وأعيان العرب المرادين للهدية؛ ولما وصل إلى فاس اجتمع بالسلطان فدفع له الهدية ووقع الكلام بينهما على الأمير بالإحسان فبالغ البوحميدي بالثناء على الأمير، وزَيَّته في قلب السلطان فأصغى له غاية الإصغاء بالتحريم، وفي هذه الأثناء قام الوزير [محمد بن إدريس] وبادر السلطان بالقول: يا سيدنا لا تصغى

لكلام هذا الخلاط الشيطان، فإنه هو وأميره وجميع الخلفاء شياطين مفسدين في الأرض وأن كلامه هو البهتان، قد أفسدوا المغرب الأوسط بفعلهم وقولهم وعثوا فيه إلى أن فر أهله منهم للفرنسيس فيأخذهم لأولاد إبليس لصلبه، ثم جاءوا لمغربنا وشرعوا في الفساد فغزوا الأحلاف ثم الأحمر وقتلوه وأخذوا محلته ثم قلعية وقتلوههم وأخذوا أموالهم وتصرفوا بالحكم فيهم، فقد وقع هذا كله منهم وظفرت بواحد منهم ولم تبادر بالفتك به، فعلا الغضب على وجه مولاي عبد الرحمان»<sup>72</sup>.

نفهم من هذه الرواية أشياء كثيرة منها: شكوك الأمير عبد القادر حول محمد بن ادريس كانت صادقة، وبالتالي فهو عندما زود البوحميدي بتلك الرسائل يكون قد وقر عليه كثير من الشروحات والتفاصيل لدى السلطان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نفهم وجود بعض المهندسين في بلاط السلطان الذين لم يكن من مصلحتهم عقد الصلح بين الطرفين، ولكن يبقى السؤال المطروح ما هي غاية هؤلاء المهندسين؟ ومن كان يقف ورائهم؟ خاصة إذا علمنا بأن ابن ادريس له وزنه الفقهية والعلمية، فكيف به يفعل ذلك؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال نعود إلى مواصلة الحديث عن رواية المزارى حول مقابلة البوحميدي للسلطان.

وعندما علا الغضب على وجه السلطان، بادره البوحميدي بالقول بعدما وضح له أن هذا الفعل لا يصدر من الأمير المقر بالطاعة والمذعن بالبيعة ورسائله لا تنقطع وهداياه لا تتوقف، وأن من يقف وراء ذلك هو وزيره: « وإنما الذي جعل الخلاط الجليل، وأبعد بينك وبين الفعل الجميل، وصار بينكما شيطان، وأوقد للحرب بينكما النيران، هو الغادر لك والماكر بك فرخ إبليس، وهو وزيرك هذا محمد بن إدريس لأنه كان يكاتب الأمير بغير قياس، ويقول له في مكاتبه جد



السير لتملك المغرب بأسره وتسكن مدينة فاس، فإن بابها من كل ناحية لك مفتوح، إن شئت فأدخل من باب القيسة وإن شئت من باب الفتوح واني متفق مع الكبراء من التجار والأعيان والعلماء وأهل الديوان، على تملك المغرب لك على حسب ما تريد، وتكون أنت سلطانه الطود العظيم والليث الشديد... وإن أكذبتني يا سيدنا في مقالتي وأصدقته في تغيير حالتي، فمكاتبه تحتي خُذها واقرأها ثم قل له اقرأ كتابك ليزول عنك الرّيب ويحل لك الانتقام منه لأنه عدو غادر ماكر لك وبك في الشهادة والغيب»<sup>73</sup>.

ولإقامة الحجّة على الوزير أخرج البوحميدي المكاتب من جيّبه بسرعة وقدمها للسلطان، فلما قرأها اشتدّ غضبه على وزيره، ابن إدريس الخادع الماكر، وقال له: «اقرأ كتابك يا خادع، لتعرف أنك أنت الماكر وهو الصدوق الذي بأمره مصادع، ثم أمر مولاي عبد الرحمان كل من حضر بقتل ابن إدريس بالنعال ولا يدعو له بابا للمفر، فاشتغلت الناس بضربه بالنعال، لكل ناحية من جسده إلى أن مات بأشد النكال، وأمر بطبع أبواب ما يملكه من الدور، ونزع الملك من يد الجسور، فنزعت في الحين، وصارت ورثته من جملة الفقراء والمساكين»<sup>74</sup>.

أمّا مصير البوحميدي فيذكر لنا بشأنه: «وقرب البوحميدي وأدناه، ولأحسن الدور بفاس ملكه وأعطاه، وزوجه من ابنة العلامة السيد محمد بن عبد الله سقاط، وتولى مئونه (كذا) وجعل له راتبا شهريا وأعطاه من يخدمه من الإماء فصار في عز وانبساط، ولا زال كذلك إلى أن سأل الزيارة لدار وازان، وضريح القطب مولاي عبد السلام فأذن له السلطان، ولما تمت زيارته ورجع لأهله بفاس قبض عليه السلطان لكون الوشاة قالوا له: إن جولانه ليس للزيارة وإنما هو للتجسس

والاختلاط والاتفاق مع الناس، وسجنه إلى أن سقاه سما به مات ثم ندم السلطان على ذلك، وعلم أن تلك شيطانة حلت به إلى أن ارتكب تلك المهالك»<sup>75</sup>.

-عبد الرحمان بن زيدان: يقول بشأن سفارة البوحميدي: «أكرم السلطان وفادته واقتبله بجنان أبي الجنود، ولما مثل بين يديه وبلغه ما أتى لأجله... فطلب البوحميدي الإمهال فأمهله صاحب الترجمة وأمنه وأبقاه في ضيافته»<sup>76</sup>.

ولم يكتف ابن زيدان بذلك بل أوردَ رسالة غريبة كتبها الأمير إلى البوحميدي، يسأل فيها عن أحواله، وهي رسالة مؤرخة في 10 ذو القعدة 1264هـ، ومما جاء فيها: «من عبد القادر بن محيي الدين كان الله له ولاخوته آمين، إلى أخي سيدي محمد بن أحمد البوحميدي السلام عليكم ورحمت (كذا) اله وبركاته وبعد فانا نسأل عن أحوالك ونرجو أن تكون في نعمة مثلنا، وبعد أن يخبره بحال أبنائه الذين تركهم في الجزائر، ينتقل إلى الحديث عن مكانة البوحميدي عند السلطان في قوله: .وقد بلغنا أن لك وجهها عند السلطان ووقعه الله للخير وأعانه عليه وأصلحه، ويختم رسالته بالعبارات التالية: ولا تنسانا عند ضريح الدرياق المحرب مولانا إدريس، وعند غيره من أهل الله أحياء وأمواتا»<sup>77</sup>.

-ميشو بيلار: "Michaux Bellaire": يذكر هذا الضابط الفرنسي بخصوص سي محمد البوحميدي، الذي فهم أن ثروة الأمير تكاد تنفذ، فاستغل هذه الفرصة وأراد الانفصال عن سلطته، ورغم نصائح الأمير عبد القادر له فقد توجه إلى فاس تحت ذريعة أنه يُريد محادثة مولاي عبد الرحمان مباشرة وبصفة شخصية، فما كان من السلطان إلا أن استقبله باحتفاء كبير، ومنح له معونة

يومية معتبرة، وأسكنه في منزل درب الدُّرُوج في العدو، وحينها يكون البوهيمي قد تزوج من ابنة الفقيه سي بن عبد الله السقاط<sup>78</sup>.

وشُّهور من بعد ذلك أوقفه مولاي عبد الرحمان وحبسه في دار بوتلاعة " Dâr Bou Dellaha " بفاس الجديد... ثم يذكر أن سي محمد البوهيمي قد مات مسموما بعد ذلك بوقت قصير كما يزعمون [après, empoisonné, dit-on.] ولم يترك أبناء من المرأة التي تزوجها في فاس، والتي ماتت هي الأخرى بعده بقليل، أما بقية أطفاله الآخرين فقد ظلوا في تلمسان<sup>79</sup>، وبعد حديثه عن تسميم البوهيمي يعود مباشرة للحديث عن مطاردة القوات الفرنسية وجيوش السلطان المغربي للأمير عبد القادر، وتضييق الخناق عليه.

وقبل العودة إلى الحديث عن موقف الأمير من مصير البوهيمي، نُسجِّل بعض الملاحظات حول موقف أنصار الرأي الثاني الذين يتصدّرتهم كل من ابن عودة المزاري وميشو بيلار حيث نفهم من رواية ابن عودة أن السلطان قرَّب البوهيمي ونال عنده حُضوة ومكانة راقية، فزوَّجه وأنعم عليه بالسكن والمال، فانبسط في حياته، وأثناء زيارته لضريح مولاي عبد السلام بإذن من السلطان وُشي به، فقبض عليه السلطان وسجنه ثم مات مسمومًا، ولكن تبيَّن للسلطان فيما بعد خطأ فعلته، أمَّا رواية "بيلار" فهي تتفق مع رواية المزاري، في كون البوهيمي بقي على قيد الحياة، ولكن شهرور من بعد ذلك أُلقي عليه القبض-بفعل الوشاية-

ورمي به في السجن حيث لقي حتفه ومات مَسْمُومًا، لكنه ينفرد بأن البوهيمي ذهب من تلقاء نفسه للسلطان وهذا غير صحيح.

أما رواية ابن زيدان فقد أضافت لنا الجديد من خلال رسالة الأمير إلى البُوهميدي، ومن خلال تاريخ الرسالة 10 ذو القعدة 1264هـ، فالأمير حينها كان في السَّجْن بفرنسا، وإذا تُبَيَّنَتْ صحة هذه الرِّسالة فالبُوهميدي يكون حينها لا يزال على قيد الحياة.

بعد هذه الملاحظات نَعُود الآن إلى الحديث عن التَّطورات التي حصلت بين الأمير والجيش المغربي، ففي الوقت الذي كانت فيه سفارة البوهيمي تُحاول رَأْب الصَّدْع والتَّخفيف من حِدَّة التَّوتر بين الطرفين، تحركت أطراف خفية وبسرعة لإفشال مُهمته، وهذا ما نَلْمسه من خلال تحرك الجيوش المغربية باتجاه قوات الأمير، لِدفْعِه نحو منطقة التُّخوم الشرقية حيث تُرابط القوات الفرنسية، وفي هذه الأثناء أرسل السلطان اثنين من مُرافقي البوهيمي-بعدهما احتفظ به تحت الحراسة<sup>80</sup> - لإبلاغ الأمير بنتيجة المقابلة التي جرت بينه وبين سفيره، وهذا ما ذكَّره هنري تشرشل: «إن على عبد القادر إما أن يستسلم شخصيا إلى السلطان عبد الرحمان، وإما أن يعود إلى الصحراء الجزائرية، وفي حالة الرفض أو التأخير يزحف الجيش السلطاني ضده»<sup>82</sup>.

ويُعلِّق ابن عودة على موقف الأمير عندما عَلِمَ بمصير البوهيمي بقوله: ولما رجع أصحاب البوهيمي المصاحبين له لفاس، أعلموا الأمير فتأسف كثيرا وحصلت له الندامة على إرساله، وقال: يا ليتني لم أتركه ذهب (ذهب) عند الظالمين البخاس<sup>83</sup>، وبأدر على الفور بكتابة رسالة مُطوَّلة إلى السلطان يشرح له فيها

موقفه من هذين الشرطين<sup>84</sup>. و لكن لا حياة لمن تنادي، فيئس الأمير من مواصلة السلطان له، وإعانتته على عدوه، وتبيّن له أنه أمسى وحيدا لا نصير له غريبا لا وطن له»<sup>85</sup>.

لم تُمهّل القوات المغربية الأمير في التّواصل مع السلطان من جديد، إذ سُرعان ما أعلنت الحرب ضيّده، وبدأت زحفها تُجاه دائرته، للظّفَر بها قبل عبورها نهر ملوية، ولكي تتمكن الدائرة من عبور هذا النهر، بادر الأمير بالهجوم ليلا على مُعسكر القوات المغربية لإرباكه، فعمد إلى إحضار جملين وشدّ على ظهر كل منهما حزمة من الحلفاء، وتوجّه نحو المعسكر المغربي ليلة 15 ديسمبر 1847، وعندما اقترب منه أشعل النار بالحلفاء ودفع بالجميلين نحوه، كما أمر بقرع الطُّبول لإحداث المزيد من الضّجيج، وليُدخل في ظن ولدي السلطان بأنّه قادم لمواجهتهما بجيش كبير، وعلى اثر هذه الحيلة تفرّق المعسكر المغربي وتشتّت، بينما خسر الأمير حوالي 150 جنديا من قواته، ثمّ تراجع باتجاه دائرته وتمكّن من عبور نهر ملوية باتجاه الجزائر مُحاذاة الساحل<sup>86</sup>.

لقد كانت هذه المعركة كما يذكر يحي بوعزيز آخر مِسمار دقّة السلطان في ظهر الأمير، الذي بات مُحاصرا بين القوات المغربية التي تتراوح ما بين 30.000 و50.000 مقاتل، و القوات الفرنسية المرابطة على التخوم الجزائرية-المغربية والمقدرة بحوالي 100.000 جندي<sup>87</sup>، التي تمركزت في النّقاط الإستراتيجية التي قد يسلكها الأمير كمر قَرْبُوس، هذا إلى جانب تمركز رؤساء القبائل المغربية في المناطق الحساسة، كتمركز أولاد سلطان على مقربة من دائرة الأمير، وتمركز قاضي وجدة مع قواته في أراضي بني سنان.

في هذه الأثناء استدعى الأمير ما بقي من أعضاء في مجلسه الشوري كابن التهامي، وقدر بن علال، ودرس معهم سبل الخروج من هذه الحلقة التي باتت تضيق حوله، وبعد أخذ ورد تمّ القبول باقتراح الفقيه بن علال الذي جاء فيه: سنطرق باب الاستئمان الرّمّي، أي بمعنى توقيع عهد الأمان مع الفرنسيين، فوافق الجميع على هذا الباب الفقهي، وهو باب معروف في الجهاد<sup>88</sup>، وتمّ الاتصال بالفرنسيين حول شروط وقف القتال، فأرسل الأمير مبعوثين عنه إلى الجنرال "لا مورسيير" وحوزتهما رسالة ضمنها شروط هذا الاتفاق<sup>89</sup> موقّعة ومختومة بختم الأمير، وما إن وصلا مبعوثي الأمير إلى معسكر الفرنسيين واطّلع الجنرال "لامورسيير Lamoricière" على شروط الأمير، رحّب بها ووافق عليها فوراً وأذمغها بختمه بعد أن تشاور مع أركان قيادته العسكرية، ثم أرسلها إلى الأمير.

وهكذا تحركت دائرة الأمير صوب المعسكر الفرنسي وكانت نُقطة اللقاء في سيدي إبراهيم حيث استقبله كل من العقيد "مونتوبان Montauban"، والجنرال لا مورسيير، وعندما وصل إلى جامع الغزوات ترجّل الأمير عن فرسه وسلّم سيّفه وقرّسه إلى القائد العام "الدوق دوماال Duc d'Aumale" في حضرة كل من "كافينياك، والعقيد بوفور Beaufort بعدما أُقيم له عرض عسكري على شرفه يوم 27 ديسمبر 1847، وبدلاً من تنفيذ شروط الأمير بنقله إلى المشرق تعرّض إلى خيانة عهد وخديعة مُنقطعة النظير، فتمّ أسرُه ونقله إلى فرنسا على متن الباخرة "لاسمودا L'Asmodée"<sup>90</sup>.

-نتائجها: يُمكننا تحديد نتائج هذه السّفارة بمعرفة مدى تحقيقها للأهداف التي سطرّها الأمير، كما سبق وأن ذكرناها، وبناءً على ذلك يُمكننا القول: رغم الآمال

التي علّقها الأمير عبد القادر على سفارة البوحميدي فإنها باءت بالفشل، ومرّد ذلك جُملة من الأسباب:

1- مُساهمة عدة أطراف في إفشال هذه السّفارة، يأتي في مُقدمتها الطّرف الفرنسي الذي كان يسعى مُنذ معركة واد ايسلي سنة 1844 إلى زرع الفتنة والشقاق بين الأمير والسلطان، وما مراسلات الجنرال بيجو إلى ولد السلطان سيدي محمد ومراسلات ليون روش إلى السلطان إلا دليلاً على ذلك، ناهيك عن نشاط البعثات الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب.

2- دور بعض الأطراف المُندسة والمأجورة، لخدمة مَصالحها الصّيقة للحصول على أكبر قدر من الرّشوة كلما تعمق الشرخ بين الطّرفين، ففي الوقت الذي كان البوحميدي يتفاوض مع السلطان تمّ تبليغه زوراً ومُهمّاتاً بأن الأمير هجم على المعسكر المغربي؟ وهذا لتشويه صورة الأمير من كونه يطلّب الصّلح ويُعلن الحرب في آن واحد، والظّروف كانت مناسبة لتصديق هذه الإشاعات التي لم يتبيّن منها السلطان، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلٰى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾<sup>91</sup>.

3- توتّر واضطراب السلطان أثناء اللّقاء الذي جمعه بالبوحميدي، جرّاء الإشاعات التي كانت تُصله حول خطر الأمير على عرش السلطان، والشّاهد في ذلك رواية "دي شاستو" الذي حضر هذا اللّقاء، ونقل لنا ملمحاً من الحالة النفسية للسلطان الذي كان يزيّد كحمل هائج واللّعب يتطاير من فمه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وحسب ما جاء به ابن عودة، فبعد عملية إلقاء القبض على البوحميدي عند ضريح أبو عبد السلام، وسجنه ثم قتله، نَدِم السلطان على فِعْلته،

واعتبرها شَيْطَنَةً حَلَّتْ به، وهذه تُعد المرة الثانية التي لم يتثبت فيها السلطان من خبير الوُشاة، ويُؤكّد لنا مرة أخرى ما ذهب إليه "دي شاستو"، حول نفسية السلطان، وعليه يمكن القول: إن البوهيمي كان ضحية للوشاية والدّعاية الكاذبة من طرف الأعداء والمعرضين، وفي نفس الوقت ضحية لِتَسْرُوع السلطان في إصدار الحكم بالسّجن على البوهيمي والتّخلص منه.

**خاتمة:** من خلال ما سبق ذكّرهُ يمكننا طرّح خُلاصة ما توصلنا إليه في هذا المقال ضمن العناصر التالية:

- تُجمّع الشّواهد التاريخية التي استندنا إليها -رغم اختلافها- حول عدم عودة البوهيمي إلى الأمير عبد القادر رُفقة أعضاء الوفد المرافقين له، بينما تختلف حول سبب بقاءه، هل هو في اغتقاله من طرف السلطان كرهينة ريثما يتجلى موقف الأمير، أم رغبة السلطان في البقاء بجانبه وأنعم عليه بما ذكرناه سابقاً؟.

- إذا كان الأمير مُتخوفاً من مصير البوهيمي كما مرّ بنا في ظل تلك الظروف فلمّاذا أرسله إلى السلطان؟، وبالتالي فإرسال البوهيمي للتفاوض كان من باب إقامة الحجّة على السلطان وتفنيد الإشاعات التي تُروّج حوله، لكن السلطان فوّت فرصة ثمينة على الأمير للخروج من الأراضي المغربية والتّوجه نحو الصّحراء الجزائرية، وليته اكتفى بذلك بل قام بأسر سفيره، وبالتالي أعلّق نهائياً باب التّفاوض أو التّصالح مع الأمير.

- إذا كان الأمير أبدى رغبته في الخروج من المغرب ريثما تسمع له الظروف، وهو ما توافق مع شرط السلطان فيما بعد، فَمَنْ أعطى الأوامر بتحرّك الجيوش المغربية



لِمُناوشة الأمير؟ وهو ما فوّت فرصة ثمينة على الأمير الذي بدأ فعلياً في التحرك باتجاه الشرق للدخول إلى الجزائر من الجنوب الغربي، وهذا ما يؤكد مسألة رغبة القوات المغربية ومن كان يقف وراءها في إلقاء القبض على الأمير والتخلص منه.

- ما يؤكد الطرح السابق هو في عدد الجيوش المغربية الصّحمة التي تم تجهيزها للقيام بهذه المهمة، فضلاً عن القبائل التي أعلنت عن عداوتها للأمير، فتمّ تجهيز 50.000 جندي مقابل 3200 جندي إن صحّ التعبير، وهذا فارق كبير جدا بين الطرفين، أي بمقدار كل (16) جندي مغربي يقابله (1) جندي جزائري ناهيك عن 100.000 جندي فرنسي مُرابطة على الحدود؟؟؟؟، فلماذا كل هذا العدد؟ ولماذا أقحم السلطان نفسه بالدخول في مواجهة غير متكافئة العدة والعدد مع مهاجرين لاجئين ومُحتمين بإخوانهم المغاربة، وهذا ما فتح الباب على مصراعيه لإحداث فجوة وشرخ كبير في العلاقات الجزائرية المغربية لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم، وهذا ما نلمسه في الكتابات التاريخية المعاصرة، التي تنطلق من هذه التقطع وتزيد الطين بلة، فبدلاً من رَأب الصدع ورثق الخرق بجُداها تَصُب الرّيت على التّار لتأجيج نار العداوة بين أبناء الجيل الحالي.

-هُناك مجموعة من المصادر والمراجع تُجمع على أنّ البوحميدي أُعتقل مباشرة بعد وُصوله إلى السلطان، ثم قُتل مسموماً في سجنه، فالمراجع في مُعظمها أخذت عن: تحفة الزائر للأمير محمد، ومذكرات الأمير، وعن هنري تشرشل، وهي كلّها تقف في صفّ الأمير، ومقابل ذلك هُناك مصادر ومراجع أخرى تُجمع على أن السلطان احتفظ بالبوحميدي بغض النظر عن كونه رهينةً أو في كونه قد رَغِبَهُ بالبقاء معه، كما تُجمع على النّهاية المُساوية للبوحميدي، وهي سجنه وتسميمه،

وهو ما يُوافق المجموعة الأولى، ويبقى الاختلاف في المدة الزمنية التي قضاها البوحميدي في المغرب، فابن عودة لم يحددها لنا، أما "ميشو بيلار" فيذكر لفظ: وشهور من بعد ذلك دون تحديدها لنا، بينما ابن زيدان ومن خلال رسالة الأمير إلى البوحميدي يكون هذا الأخير لا يزال على قيد الحياة تاريخ صدور الرسالة، ومن غير المستبعد أن تكون هذه هي الرواية التاريخية الصحيحة.

-انفراد ابن عودة في روايته بحادثة قتل ابن إدريس بعدما فضّحه البوحميدي؛ وإذا كنا نُوافق ابن عودة على رأيه فَمِن غير المستبعد أن تكون للسلطان مآخذ أخرى ضد وزيره، وما الرسائل التي قدّمها البوحميدي للسلطان إلاّ ذريعة فقط، أي بمعنى كيف يُعقل أن يُصدّق السلطان ما جاء به البوحميدي من رسائل تتهم الوزير وفي نفس الوقت يُصدر الحكم عليه مباشرة وفي نفس المجلس؟. فالمسألة أكثر من هذا في نظرنا وإلاّ أتهم السلطان أيضًا بالتسرع وعدم تقدير العواقب، اللهم إلاّ إذا كان للسلطان حُجج قوية تُدين الوزير في ما قدّمه البوحميدي.

### الهوامش:

1-يراجع بهذا الخصوص: علي، تابليت: ((اتصالات الأمير عبد القادر بالقنصلين البريطاني والأمريكي في المغرب 1835-1836))، ص-ص71-81، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، 1998، جامعة الجزائر، مطبعة دار الحكمة، ص-ص71-81.

2- يراجع تفاصيل هذه السفارة في مقاله الموسوم ب: ((سفارة ميلود بن عراش لدى الملك لويس فيليب خلفياتها ونتائجها))، مجلة التاريخ، ع.6، المركز الوطني

- للدراسات التاريخية، جويلية 1978، ص-ص. 101-129. كما يمكن مراجعة تفاصيلها أيضا في كتابه الموسوم بالعلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، الفصل السابع، ص-ص. 167-194.
- 3- مذكرات الكولونيل اسكوت: ترجمة وتعليق، إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- 4- يراجع بشأنه: يحي، بوعزيز: علاقة الأمير عبد القادر وخلفائه بالمملكة التونسية، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، جامعة الجزائر، دار الحكمة، 1998، ص-ص 84-112، احمده عيمراوي: علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، ص-ص 83-86.
- 5- إحدى أهم دوائر ولاية عين تموشنت حاليا، وهي تقع على تخوم جبال طرارة، وهي في الأصل قبيلة من قبائل الغرب الجزائري مشهورة بكفاحها ونضالها التحرري خلال المقاومات الشعبية وأثناء الثورة التحريرية.
- 6- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، ط، 1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص. 207.
- 7- فريدة، قاسي: مفهوم الدولة في فكر الأمير عبد القادر، أطروحة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ص. 196.
- 8- شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ط. 2، ترجمة وتقديم أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص. 86.

- 9- يوهان كارل، بيرنت: الأمير عبد القادر، ترجمة أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 2005، ص.158
- 10- ا.ف. دينيزن: الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 2003، ص.114
- 11- يوهان كارل، برنت: المصدر السابق، ص.188
- 12- مناصرية، يوسف: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، م. و. ك، الجزائر، 1990، ص.27..
- 13- المرجع نفسه، ص. 28.
- 14- أحمد بن عبد الرحمان الشقراني، الراشدي: القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقدم ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991، ص. 40.
- 15- ابن عودة، المازري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج.2، ط. 1، تحقيق ودراسة الدكتور يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ص. 224.
- 16- أحمد بن عبد الرحمان الشقراني، الراشدي: المصدر السابق، ص. 40.
- 17- شارل هنري تشرشل: المصدر السابق، ص. 144.

18- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، المرجع السابق، ص. 207.

19- محمد بن عبد القادر، الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج. 1، ط. 2، شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، 1384هـ/1963م، ص. 453.

20- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص. 235.

21- محمد بن عبد القادر، الجزائري: المصدر السابق، ص. 465.

22- بوعزيز، يحيى، ميكيل دوايالزا: مراسلات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بمليبية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص. 20. وبخصوص الأسرى يذكر بوعزيز بأن البوهميدي راسل الحكومة الفرنسية في شأنهم بأمر من الأمير وعرض مبادلتهم بالأسرى المسلمين الذين نُقوا إلى جزر سان مارقوريت، فلم تجبه ولم تعبأ به؛ وكتب الأمير نفسه رسائل إلى الملك الفرنسي والحكومة الفرنسية فلكم يتلق أي جواب، ص. 20.

23- محمد بن عبد القادر، الجزائري: المصدر السابق، ص. 465. يرى الأمير محمد أن ما ارتكبه مصطفى بن التهامي يعود إلى خلاف بينه وبين البوهميدي من جهة ومحاولة ردع بني عامر الذين أخذوا في التوجه إلى المغرب من جهة أخرى، أما عدد الأسرى فهو مبالغ فيه حيث يعتبر هذا المصدر الوحيد الذي يقدر لنا عدد الأسرى بـ 600 جندي، [وهو المصدر أخذ عنه يحيى بوعزيز في كتابة ثورات الجزائر في الصفحة 31 حيث يقدر عددهم بـ 600 أسير] ثم أثناء الحديث عن

قتلهم ينخفض العدد إلى 187 جندي، أي بفارق قدره 403 جندي؟! لم يشر الى مصيرهم فهل تم إطلاق سراحهم قبل هذه الحادثة؟ وهذا غير مستبعد أم أن عدد الأسرى كان يقدر بهذا العدد؟ وهذا هو الراجح.

24- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص-ص. 235.-237

25- محمد، أكنسوس: الجيش العرمرم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي، ج2، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة الوراقية الوطنية، المغرب، دون تاريخ، ص.25

26- بلغ عدد القوات المخزنية حوالي 9000 مقاتل، بينما لم يكن يتوفر الأمير إلا على 1500 فارس و400 مشاة، وعليه فالمعركة لم تتم مباشرة-وجه لوجه- ومرد انهزام القوات المغربية الفوضى والاضطراب الذي حل بها.

27- محمد السعيد: نبذة عن حياة الأمير عبد القادر وأسرته، مخطوط، رقم 09، بالمكتبة الوطنية بالحامة، الجزائر، ص..13

28- --Ismail , HAMET: Le gouvernement Marocain Et La Conquête D'Alger. Présenté par: Ali, Tablit, Thala Edition. Les Editions CHIHAB , n ,d. P.106..

29- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص. 240.

30- الجيش العرمم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي، ج2، المصدر السابق، ص25.

31- الناصري، أبو العباس أحمد: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى الدولة العلوية، القسم الثالث، ج. 9، تحقيق وتعليق ولديه جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، دون تاريخ، ص.56 كما توجد بعض الإشارات إلى هذه المعركة في الإتحاف لابن زيدان، ج5، ص.60

32- Ismail, Hamet: op-cit, p.108.

33- Ibid, p. 110.

34- Ibid, p. 110-111.

35- Ibid, p. 111-112.

36- Ibid, p. 114.

37 الأمير عبد القادر: المذكرات، المصدر السابق، ص123.

38- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص. 240.

39- يمكن مراجعة ظروف الأمير العسكرية في سنواته الأخيرة من خلال المقال الذي نشره الدكتور يحي بوعزيز رحمه الله في كتابه الموسوم ب: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص-ص. 236-244.

40- مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص. 123.

- 41- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص. 240.
- 42- ابن عودة، المزارى: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج. 2، ط. 1، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب بالإسلامي، 1990، ص. 244.
- 43- المصدر نفسه، ص. 245.
- 44- يحي، بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط، 1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1400هـ/1980م ص. 32.
- 45- علي، تابلت: المرجع السابق، ص. 63.
- 46- يحي، بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص. 431.
- 47- ابن عودة، المزارى: المصدر السابق، ص. 245.66.
- 48- هو وزير السلطان المغربي، حيث كان الأمير يشك في مراسلاته حول تأليه ضد السلطان، وتزيينه لفكرة الاستيلاء على العرش.
- 49- ابن عودة، المزارى: المصدر السابق، ص. 245.
- 50- يذكر سعد الله أنه وقع خلاف حول هذه القصيدة بين كاتبين فرنسيين: قال "أوغست شيربونو": إن الأمير قالها في امرأة فرنسية، أما المستعرب ف. "باتورني" فقد حصل على نص القصيدة ونشر نصها العربي في المجلة الإفريقية



1896، وما يؤكد أن القصيدة قيلت في وفد البوحميدي عائلة ابن رحال (من ندرومة) التي كانت تحتفظ بنص القصيدة وتُعرف مُناسبتِها؛ لأن حمزة بن رحال كان قاضيا في عهد الأمير ثم أصبح آغا لدى الفرنسيين، وكان يعرف أنّ قصيدة "يوم البين" قالها الأمير في توديع الوفد الذي أرسله إلى السلطان المغربي سنة 1847. يراجع: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، ص. 206.

Une improvisation de L'emire – F. PATORNI:51  
EL-Hadj Abdel-Kader, P280.REVUE  
AFRICAINNE, Volume 40. ANNEE 1896.  
OFFICE DES PUBLICATIONS  
UNIVERSITAIRES, Alger

52- إبراهيم، ياسين: موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1847، دبلوم الدراسات العليا، إشراف أحمد بوتالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط. المغرب، 1407هـ/ 1987، ص. 417.

53- يمكن الاستناد هنا إلى مدة انتظار الوفد للقاء السلطان، فوصوله كان في يوم 27 نوفمبر وتاريخ استقبالهم كان يوم 03 ديسمبر 1847، بمعنى أن الوفد بقي مدة 08 أيام في انتظار استقباله من طرف السلطان، فلماذا كل هذا الانتظار؟ هذا من جهة. ومن جهة أخرى وللتأكيد على وجود عناصر مُندسة في تفتيت العلاقات بين الطرفين، ففي نفس الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات بين الطرفين وقعت مناقشات بين قوات الأمير عبد القادر وبعض

القبائل المغربية مدعومة بعناصر من جيش السلطان، للتشويش على هذه السفارة وإفشالها، من خلال إعلام السلطان بذلك؟.

54- مصطفى بن التهامي: سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتقدم وتعليق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص. 164.

55- محمد بن عبد القادر، الجزائري: المصدر السابق، ص. 493.

56- شارل هنري تشرشل: المصدر السابق، ص. 240.

57- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، ص-ص. 206-207.

58- المرجع نفسه، ص. 207.

59- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، المرجع السابق، ص. 42.

60- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 6، المرجع السابق، ص. 342.

61- إسماعيل، العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط. 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص. 317.

62- الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمان من الألفة والوثام إلى الجفوة والخصام، ملتقى الأمير، جامعة الجزائر، دار الحكمة، 1998، ص. 68.

63- محمد، المهناوي: ((مقاومة المولى عبد الرحمان لفرنسي الجزائر من خلال مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام لأبي العلا إدريس))، مركز البحوث والدراسات العلوية، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، أعمال الدورة الخامسة، ديسمبر 1993، ص. 79.

64- يحي، جلال وآخرون: مسألة الحدود المغربية الجزائرية والمشكلة الصحراوية، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص. 311 كما يراجع بشأن هذه النقطة أيضا : إسماعيل، العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص. 317.

65- لعبت الدعاية الفرنسية دورا كبيرا في الحرب النفسية للتأثير على السلطان، والتلويح بورقة العرش الذي بات مُهددًا من طرف الأمير، وهذا ما وقفنا عليه من خلال الرسائل التي بعثها الجنرال بيحو إلى سيدي محمد نجل السلطان، وما قام به الجاسوس ليون روش بالمغرب، بعد فراره من عند الأمير عبد القادر، وليت السلطان تفطن إلى هذه المكيدة والمؤامرة التي حيكت ضدّهما.

66- التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر 1808-1847، ج. 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1403هـ/ 1983، ص. 571.

67- ابن عودة، المزاري: المصدر السابق، ص. 245.

68- المصدر نفسه، ص-ص. 245.-246.

69- المصدر نفسه، ص. 246.

70- المصدر نفسه، ص. 246.

71- عبد الرحمان، ابن زيدان: إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج. 5، طبعة حجرية، المغرب، 1937، ص. 62.

72--المصدر نفسه، ص-ص. 65-67.

- Michaux-Bellaire Edouard: **Les musulmans d'Algérie au Maroc**, Archives Marocaines, Volume XI, année 1907, Publication de la Mission Scientifique du Maroc, Paris, Kraus Reprint Nendeln/ Liechtenstein, 1974. P. 60.

74- Ibid. P. 60.

75- إسماعيل، العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 317.

76- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص. 240.

77- المصدر نفسه، ص. 246.

78- يمكن العودة إلى مضمون هذه الرسالة في مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص-ص 180-182.

79- تحفة الزائر، ص. 493.

80- يحيى، بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، المرجع السابق، ص-ص32-33.

81- قد نتعجب كثيرا إذا أجرينا مقارنة بين القوات المغربية والقوات الفرنسية التي تقدر ما بين 130.000-150.000 جندي ، وبين ما يتوفر عليه الأمير من جيش قوامه 120.00 فارسا، و20.00 مشاة حسب ما ذكره صاحب التحفة في الصفحة 493، فهل الأمير كان يستحق فعلا كل هذه القوات؟.

82- الأميرة بديعة الحسني، الجزائري: وما بدلوا تبديلا، ط2، دار الفكر، دمشق، 2008، ص.176.

83- يُراجع بشأنها: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص33، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر، ج2، ص.573.

84- أديب، حرب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر، ج2، المرجع السابق، ص.573.

85- سورة الحجرات، الآية رقم 6.

## خصوصية امكانية المرأة

## في حكم الشرق الادنى القديم

الأستاذ الدكتور: شاكر محمود اسماعيل

جامعة ديالى/ كلية التربية للعلوم الانسانية/ العراق

ملخص البحث :

سنتناول في هذا البحث اربع شخصيات نسائية ملكية حكمت في مجتمعات الشرق الادنى القديم ، موزعة احدهنَّ في الشرق والآخرى في الغرب والثالثة في الشمال والرابعة في الجنوب ، لكي نصل الى تصور عن امكانية المرأة العربية في حكم مجتمعتها ، التي تميزت بها عن غيرها من النساء في المجتمعات الاخرى ، وسنحاول ان نبين كذلك اثر ثقة المجتمع العربي القديم وتعامله مع المرأة باعتبارها عنصر فاعل ومهم في المجتمع ، الأمر الذي ساعدها في الوصول الى هذه المكانة .

يقسم هذا البحث الى اربعة مطالب سنتناول في المطلب الاول شخصية الملكة المصرية ( حت شبسوت 1436-1490 ق.م) والظروف السياسية التي وصلت فيها الى الحكم ، وفي المطلب الثاني سنتناول شخصية الملكة الآشورية ( سمو رامات 810-805 ق.م ) والظروف السياسية التي تهيأت لها ووصلت بها الى الحكم ، وفي المطلب الثالث سنتناول شخصية الملكة اليمنية ( بلقيس ) ملكة سبأ ، في حين سيكون المطلب الرابع عن الملكة ( زنوبيا ) ملكة تدمر ، ولا بد لنا ان نذكر هنا ان هذا البحث الموجز لا يمكن ان يغطي هذه الشخصيات الملكية المهمة بصورة متكاملة ، إذ سيكون التركيز فقط على

وصولهنّ الى الحكم وقوة شخصيتهنّ فضلاً عن نظرة مجتمع الشرق الادنى القديم للمرأة التي من خلالها تمكنت المرأة العربية الوصول الى هذه المكانة .

### المقدمة :

لقد تفوقت المرأة في البلاد العربية على سواها من النساء في المجتمعات القديمة ، في اخذ مكانتها وتحقيق رسالتها في الحياة ، فقد شغلت المرأة العربية معظم المناصب ومارست معظم المهن التي كانت حكراً على الرجال في المجتمعات الاخرى ، فوجدناها ملكة ووزيرة وكاهنة ومقاتلة وطبيبة وشاعرة وتاجرة ومربية اجيال .

ويبدو ان رقي المجتمع القديم في البلاد العربية وتطوره الفكري الذي فاق به سواه من المجتمعات ، قد منح المرأة مكانة تفوق مكانة مثيلاتها من النساء في المجتمعات الاخرى ، فقد عاملها مجتمع الشرق الادنى القديم على انها نصف المجتمع ومنحها ثقة عالية أهلتها لارتقاء المناصب العالية ، ومنها ممارسة الحكم في المجتمع .

سنتناول في هذا البحث الموجز سيرة حياة أربع نساء مشهورات في مجتمع الشرق الادنى القديم ، كان لهنّ دور ملكي واضح في مجتمعاتهنّ ، مع ان تاريخ البلاد العربية القديم حافل بأكثر من هذا العدد من الملكات ، إلا اننا سنتناول في هذا البحث الموجز اربع ملكات حكمنّ مجتمعاتهنّ في حقب تاريخية قديمة مختلفة ومن مواقع جغرافية مختلفة ، لكي تكون الصورة متكاملة عن مجتمع الشرق الادنى القديم باعتبار جزء رئيس تاريخ المجتمعات القديمة<sup>(1)</sup> ، وأول هذه الملكات هي الملكة المصرية (حتشبسوت) والملكة الثانية هي الملكة العراقية الاشورية (سمو رامات - محبوبة الحمام ) او (سمير اميس) ، والملكة الثالثة هي

الملكة اليمينية(بليقيس) ملكة سبأ ، والملكة الرابعة هي الملكة السورية(زنوبيا) ملكة  
تدمر .

وبناءً على ذلك سيقسم البحث الى اربعة مطالب سنوجز الكلام فيها  
عن هذه الشخصيات النسائية المهمة ، إذ انه لا يمكن لنا من خلال هذا البحث  
الموجز ان نتناول هذه الشخصيات بصورة مفصلة ، فكل واحدة منهنّ تصلح  
لأن تكون بحث اكاديمي مستقل ، وسيكون تركيزنا كما ذكرنا على مسألة امكانية  
المرأة العربية في حكم هذه المجتمعات ، من خلال قوة شخصيتها والثقة التي  
منحها اياها مجتمعا ، تلك الثقة التي تطورت بناءً على التطور الحضاري في  
مجتمع كل واحدة منهنّ ، ومن ثم كان لتلك الثقة اثر كبير على شخصيتها  
وأهلتها لتشارك في معظم جوانب حياة المجتمع وتتقلد جميع المناصب .

#### المطلب الاول : الملكة حتشبسوت (1489- 1469 ق.م) :

لقد اخترنا شخصية ملكية من حضارة مصر القديمة ، وتعد حضارة  
وادي النيل واحدة من الحضارات العالمية المهمة بإنتاجاتها الحضارية ، وقد تم  
تصنيفها ضمن الحضارات العالمية الأصيلة حالها كحال الحضارة العراقية القديمة  
(<sup>2</sup>) ، وقد كان للمرأة دور واضح في الحياة السياسية المصرية ، وبعض نساها تمكنّ  
من ارتداء التاج المزدوج أي حكم بلاد مصر السفلى ومصر العليا (<sup>3</sup>) ، مثل الملكة  
(سبك نفرو) التي شاركت ابيها امنمحات الرابع في الحكم نهاية عصر المملكة  
الوسطى (<sup>4</sup>) ، لكننا سنختار ملكة مصرية حكمت بلاد مصر بالفعل لمدة طويلة  
ولوحدها ، وهي الملكة حتشبسوت (1490-1469 ق.م) ، التي وصلت الى  
حكم الدولة المصرية في العصر الامبراطوري (1570-1090 ق.م) ، وبعد  
تشكيل الامبراطورية المصرية في عهد والدها (تحتمس الاول او طوطمس الاول  
1525-1495 ق.م) الذي وصل الى بلاد الشام عند نهر الفرات وسماه النهر



المقلوب لأنه يسير باتجاهه عكس نهر النيل ، وان هذا الفرعون الذي لم يكن لديه وريث يرث العرش المصري من الزوجة الملكية الأولى لأنها لم تنجب له إلا ابنته حتشبسوت ، لذلك قرر الفرعون قبل وفاته ان يزوجه من ابن له اخر من زوجة ثانية هو (تحتمس الثاني) ، لكي يضمن العرش بين ابنائه ، وبالفعل انتقلت السلطة الى (تحتمس الثاني) بعد وفاة والده ، إلا ان السلطة الفعلية كانت بيد حتشبسوت باعتبارها الوريثة الملكية من الآلهة ، مع ان (تحتمس الثاني) قام ببعض الاعمال منها القضاء على ثورة في بلاد النوبة أي السودان الحالية ، وقيامه ببناء معبد في مدينة اسنا المصرية ونحت تمثالاً لوالده تحتمس الاول ، وكان للفرعون تحتمس الثاني ابن من امرأة ثانية غير حتشبسوت ، التي لم تنجب هي الاخرى إلا ابنة واحدة هي (نفروع) ، وقد اطلق على ذلك الابن اسم (تحتمس الثالث) ، لذلك فقد نصبه ملكا على بلاد مصر مع ان عمره كان صغيراً في حينها ، ليترث العرش من بعده على ان يتزوج اخته (نفروع) بعد ان يبلغ الحلم ، وبعد وفاة (تحتمس الثاني) ، استغلت الفرصة الملكة حتشبسوت واعلنت نفسها الوصية على (تحتمس الثالث) وعلى ابنتها لأنها كانا صغيرا السن ، واعلنت نفسها ملكة على مصر السفلى ومصر العليا ، وتشبهت بالرجال ولبست التاج المزوج واللحية الصناعية رمز الملك ، وكان ذلك بالتعاون مع كهنة الإله أمون ، التي اتفقت معهم من اجل تبرير قصة ارتقائها الحكم ، عن طريق سبغ قصة مولدها الإلهي المقدس لكي تنال الرضى والقبول من المجتمع المصري في حكمها للبلاد ، وقد سجلت قصة مولدها الإلهي على جدران معبد الدير البحري وفي مباني معبد الكرنك ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد ادعت ان والدها (تحتمس الاول) قد نصبها على عرش البلاد وجعلها الوريثة الشرعية له ، فلقد ربطت هذه الملكة قصة ولادتها مع الآلهة المصرية ولاسيما الإله أمون ، وكيف انه وجد والدتها (احمس) الجميلة بغفوة في قصرها الجميل ، وقد تقمص بزى (تحتمس الاول)

زوجها ، وضاجعها وعلقت منه وبعدها أنجبت ابنتها حتشبسوت ، فقال لها الإله أمون : ان ابنتي التي وضعتها في جسمك هي حتشبسوت وستتولى الحكم في هذه البلاد قاطبةً ، وستكون روعي روحها وفضلي فضلها (5).

لقد تمكنت الملكة حتشبسوت بالقيام بالعديد من الاعمال التي خلدت نفسها ، فقد ظهرت في احدى المنحوتات وهي ترتدي بدلة الملوكية والتاج المزدوج لمصر السفلى ومصر العليا كما ذكرنا ، ومعظم اثارها في المعبد الملكي الخاص بها في منطقة الدير البحري بالقرب من مدينة طيبة ، والذي يعد من المعابد الفريدة والشهيرة المعروفة في مصر (6) ، فهو بناء جميل مشيد بالحجر الجيري الابيض ، اسفل سفح الجبل وقد بني المعبد بمهئة مدارج مستند على اعمدة ، ويوجد داخل الجبل مقبرة الملكة التي حوت على العديد من الكنوز ، وقد نقشت هناك قصة ولادتها الالهية المقدسة ، ورحلتها الى بلاد البنوت أي الحبشة ، التي جلبت منها منتجات مختلفة مثل اخشاب العاج والابنوس والاحشاب الاخرى وجلود الفهد والذهب والبخور والقردة الحية وغيرها (7) .

وكان من اعمالها الاخرى هي المسلة القائمة الى الان ، التي ترتفع الى علو 97,5 قدم ويبلغ حجمها (180) ياردة مكعبة من حجر الكرانيت ، ووزنها ( 700 ) الف باون بالقرب من معبد الكرنك ، وقد وجد لها اثاراً عديدة في مناطق من شبه جزيرة سيناء ، ووجد لها معبداً اخر في وادي حلفا من بلاد النوبة جنوب مصر (8) ، ان هذه الاعمال العمرانية المميزة لهي دليل واضح على الرخاء الاقتصادي الذي عاشته مصر زمن حكم هذه الملكة ، وهو ما يؤكد قابليتها الفذة في الحكم وقوة شخصيتها التي تمكنت من خلالها ان تحكم بلاد مصر السفلى والعليا وان تحقق هذه الانجازات المتتالية ، وهذا كله بفضل تقدير

المجتمع المصري القديم واحترامه لهذه الملكة وتعاونها معها ، وهو دلالة من ناحية اخرى على ان المرأة لها مكانة في ذلك المجتمع .

المطلب الثاني : الملكة سمورامات (محبوبة الحمام)(810-805ق.م):

لقد نالت المرأة في المجتمع العراقي القديم مكانة متقدمة فاقت فيه مكانتها في المجتمعات الاخرى ولاسيما في الجوانب الاجتماعية والدينية ، فقد ضمنت لها هذه المكانة القوانين العراقية العديدة<sup>(9)</sup> واهمها قانون حمورابي ذائع الصيت ، فقد كانت هناك العديد من المواد القانونية التي كفلت حق المرأة وبينت حقوقها وواجباتها في المجتمع واعطتها مكانة متميزة ، وقد اصبحت هذه المكانة عرف اجتماعي متوارث لدى المجتمع العراقي القديم ، ومن ثم انتقل هذا التقدير للمرأة الى معظم المجتمعات العربية اللاحقة مع وجود بعض الاستثناءات في بعض المراحل التاريخية .

لقد تطورت افكار المجتمع العراقي القديم في العصور التاريخية المتتالية ووصلت الى مراحل متقدمة في نظرتها الى المرأة ودورها في المجتمع ، لذلك اصبح وصول المرأة الحرة الى المناصب المهمة امر مقبول ومتعارف عليه ، سواء كان هذا المنصب ديني او اجتماعي او عسكري او اقتصادي ، واستمرت هذه النظرة الى امكانية المرأة ومشاركتها في جميع جوانب الحياة ، تتطور في جميع العصور التاريخية اللاحقة الى عصر قبل الاسلام وكذلك في العصور الاسلامية التي وصلت فيها المرأة الى قمة مكانتها السامية ، فقد حفظ القرآن الكريم بالعديد من آياته الكريمة مكانة المرأة ورفع من شأنها كثيراً ، ولقد اصبح المحافظة على المرأة ومكانتها وحقوقها في الدين الاسلامي يدخل ضمن المحافظة على الدين ، وهو اعلى درجات السمو والرفعة التي وصلت اليها المرأة على طول تاريخها القديم والحديث .

لقد تطورت الحياة السياسية في بلاد اشور وذلك عندما جاء العصر الاشوري الوسيط (1500-911 ق.م)<sup>(10)</sup> فقد بدأت الظروف السياسية والاحوال الاجتماعية تتبلور باتجاه ظهور اشور كقوة سياسية بارزة ولاسيما في اعالي ما بين النهرين ، وقد برز في هذا العصر العديد من الملوك الذين استطاعوا ان يثبتوا كفاءتهم السياسية ومقدرتهم العسكرية في حكم البلاد ، وكان ابرزهم الملك (شيلمنصر الاول 1274-1244 ق.م ) الذي كانت من ابرز اعماله العمرانية هو بناء عاصمة اشورية جديدة هي مدينة ( كاخو ) التي اطلق عليها اسم النمرود وذلك بسبب ان ابرز آلهة المدينة هو الإله ( نورتا ) إله الكتابة والمعرفة ، وبعد خراب المدينة بدأت القبائل العربية التي سكنت تلك المنطقة تطلق باسم (نورتا) لارتباطه باسم الإله (نورتا) وبمرور الزمن تغير اسمها الى (نورتا) وبتحول حرف التاء الى دال اصبح اسم المدينة (نورد) واختصر بعد ذلك الى اسم (نمرود)<sup>(11)</sup> ، وكان من الملوك البارزين في الدولة الاشورية الوسيطة هو (تجلا تيليزر الاول 1115-1076 ق.م) الذي انتهت بمقتله حالة الازدهار فيها ، فدخلت البلاد بحالة من الضعف السياسي الى نهاية العصر الاشوري الوسيط ،<sup>(12)</sup>

وبعدها جاء العهد الاشوري الحديث مع حكم الملك (ادد- نراري الثاني 911-891 ق.م) الذي يعد العصر الابرز في تاريخ الاشوريين وفي تاريخ العراق القديم عامة ، وكان ذلك الملك من الشخصيات الفذة التي تمكنت من اعادة هبة بلاد اشور ، كذلك كان من الشخصيات البارزة هو الملك (شيلمنصر الثالث 858-824 ق.م) الذي له انتصارات عسكرية عديدة على الممالك الآرامية السورية في معركة القرقار التي حدثت عام 854 ق.م ، وقد دونها على مسلته المعروفة بالمسلة السوداء ، التي ورد فيها لأول مرة ذكر اسم العرب بصيغة (أريبو) ، وكذلك

صورت تلك المسلة ملك يهوذا المدعو (يهوا) وهو يسجد تحت اقدام الملك الأشوري (شيلمنصر الثالث) <sup>(13)</sup>.

لقد تهيئت ظروف سياسية لوصول الملكة (سمورامات - محبوبة الحمام) الاشورية الى حكم الدولة ، فقد حدث تمرد داخل العائلة الأشورية الحاكمة زمن الملك (شيلمنصر الثالث) قاده احد ابناؤه ، فتولى ولي العهد (شمشي ادد الخامس) مهمة القضاء على هذا التمرد ، وقد توفي الملك اثناء هذه الاضطرابات ، فحل محله ولي العهد (شمشي ادد الخامس) الذي حكم للمدة (823-811 ق.م) ، وقد واجه انسلاخ العديد من الممالك التي كانت تابعة للدولة الأشورية ، لذلك فقد قضى معظم مدة حكمه وهو منشغل بالقضاء على هذه التمردات التي حدثت في اقاليم مختلفة من بلاد الدولة الأشورية ، وفي اخر ايام حكمه توفي الملك (شمشي ادد الخامس) وكان ابنه (ادد نيراري الثالث) ما يزال صغيراً <sup>(14)</sup> ، وكان هذا اهم ظرف سياسي خدم الملكة (سمورامات - محبوبة الحمام) للوصول الى الحكم كوصية على ابنها ولتثبت بقوة شخصيتها انها تستطيع ان تحكم هذه الدولة التي تحيط بها الاخطار من جوانب شتى .

وبناءً على هذا الظرف الملكي العائلي فقد تولت الملكة (سمورامات - محبوبة الحمام) التي يعني اسمها بالأشورية محبوبة الحمام ، الحكم في الدولة الأشورية بمثابة وصية على العرش بدلاً عن ابنها صغير السن وحكمت للمدة (810-805 ق.م) ، وبعد توليها الحكم أثبتت جدارة في ادارة الدولة واقامة المشاريع العمرانية ، مع ان مدة حكمها كوصية على العرش لم تكن طويلة <sup>(15)</sup> ، الا انها نجد انها مدة حكم فعلية فكانت صلاحياتها كاملة تتحكم بها في ادارة المملكة الاشورية وذلك في نهاية الامبراطورية الاشورية الاولى .

وكان من بين اعمالها التي مازالت شاهدة عليها هو قيامها ببناء مسلة حجرية لتخليد ذكراها واعمالها ، وامرت بإقامتها في ساحة المسلات في معبد (اشور) وقد جاء في تلك المسلة العبارات الآتية :

( مسلة سمورامات سيدة قصر شمشي ادد ، ملك العالم ، ملك بلاد اشور ، أم ادد نيزاري ، ملك العالم ، ملك بلاد اشور، ام (ادد نيزاري ) ملك العالم ، ملك بلاد آشور ، زوجة ابن الملك شيلمنصر (الثالث) ملك الجهات الاربع )<sup>(16)</sup>.

وقد حكمت الدولة الأشورية الملكة (سمورامات- محبوبة الحمام) كوصية على ابنها لمدة خمس سنوات (810-805 ق.م)<sup>(17)</sup> ، ومع انها مدة قصيرة إلا انها مليئة بظروف سياسية قاسية تمثلت بظهور الكثير من حركات التمرد والانسلاخ عن جسم الدولة الأشورية ، وان دل ذلك على شيء فهو دلالة واضحة على قوة هذه الشخصية الملكية التي استطاعت ان تحكم في ظل هذه الظروف القاسية والصعبة ، وكونها من بين اول النساء في العالم القديم اللواتي وصلن الى دفة ادارة دولة معينة ، فهو دلالة على امكانية المرأة وقدرتها على دخول المعترك السياسي والوصول الى اعلى مرتبة فيه .

لقد وصلت اخبار هذه الملكة الى العديد من دول العالم عن طريق القوافل التجارية ومنها بلاد اليونان التي تحولت في نظر مؤرخيهم الى بطلنة اسطورية ، ولذلك فان المعلومات التي ذكرت عن هذه الملكة في المصادر اليونانية يتناهب الجانب الاسطوري ، وقد اطلقت تلك المصادر على تلك الملكة اسم (سمير اميس) .

وقد تناول مؤرخي اليونان اخبار هذه الملكة بصورة واضحة ، واقدم من تناول اخبار هذه الملكة المؤرخ اليوناني الشهير هيروdotus (القرن الخامس قبل

الميلاد) في كتابه الاول ، وكذلك المؤرخ سترابو(64ق.م-19م) وذكرها ديودورس الصقلي (منتصف القرن ق.م) وغيرهما ، وقد ذكروا ان الملكة سمير اميس هي ابنة (ديرسيت) إلهة مدينة عسقلون في بلاد الشام ، التي غضبت عليها (أي على ديرسيت) الإلهة (افروديت) فخلقت فيها رغبة جامحة نحو احد الكهنة التابعين لها ، فحملت الإلهة (ديرسيت) من جراء رغبتها هذه ثم ولدت طفلة خارقة الجمال ، ولكن لشدة خجلها من اتصالها بأحد كهنة معبدها ، فقد اخذت ابنتها الى الصحراء وتركتها على صخرة هناك ورمت بنفسها في بحيرة للأسماك ، فانقلبت (ديرسيت) على اثر ذلك الى سمكة برأس انسان ، ومن بعد ذلك جاءت الحمائم وحامت حول الطفلة على الصخرة وهي معجبة بجمالها فأخذت تعني بالطفلة الصغيرة ، حتى عثر عليها كبير رعاة الملك فتولى تربيتها واطلق عليها اسم (سمير اميس) ، ولما كبرت شاهدها (أونيس) وهو مبعوث الملك الأشوري وحاكم بلاد سورية ، فوقع في حبها ثم تزوجها ، وعندما شنت الجيوش الأشورية الحرب على منطقة (باكتريا) الواقعة على الحدود الشرقية لبلاد اشور ، تنكرت سمير اميس بزى رجل واشتركت الى جانب زوجها في الحرب الى جانب الآشوريين ، وقد انتصر الآشوريون في هذه المعركة ، وكان احد الاسباب بطولة سمير اميس التي سمع عن اخبارها الملك الاشوري (نينوس) ومن ثم رآها فأعجب بها كثيرا لشدة جمالها وقوة شخصيتها ، ولذلك احبر زوجها على التخلي عنها ليتزوجها هو ، فحزن زوجها (أونيس) عليها كثيراً ولم يتحمل فراقها فقتل نفسه (18).

واضافت تلك المصادر ان سمير اميس انجبت بعد زواجها من الملك الاشوري (نينوس) ابناً ، وبعد مدة قصيرة توفي الملك وابنه ما زال صغيراً ، لذلك تولت سمير اميس العرش الأشوري ، وتقول الرواية اليونانية ان سمير اميس استمرت

في الحكم مدة اثنان واربعون عاماً ، قامت خلالها بالعديد من المشاريع العمرانية اهمها بناء مدينة بابل بمعايها وقصورها الفخمة واحاطتها بأسوار عالية ، وقامت أيضا ببناء ممر مقبب من الحجر تحت مجرى النهر يوصل طريقي المدينة<sup>(19)</sup> ، وقامت كذلك الملكة سمير اميس بفتوحات كثيرة وصل فيها الى بلاد الشام ومصر وبلاد الميديين الى الشرق من بلاد اشور ، حتى وصلت الى الهند ، وتذكر المصادر اليونانية ان هذه الحملة الى الهند قد جهزتها الملكة بثيران سوداء ضخمة اصبحت تشبه الفيلة من شدة الزينة التي وضعت عليها ، اما الملكة فقد ارتدت ملابس ودروع بحيث لا يمكن تمييزها رجل ام امرأة ، وعندما كبر ابنها واسمه (فيناس) ثار ضدها ولكنها لم تقاومه بل سلمته الحكم ، واختفت عن عمر يقارب من (62) عام ، وتذكر الاسطورة اليونانية ان الملكة سمير اميس قد تحولت الى حمامة بعد موتها وطارت بعيدا حتى اختفت عن الانظار<sup>(20)</sup> .

ان هذه الاخبار عن الملكة سمورامات ( سمير اميس) في المصادر اليونانية ، مع ما فيها من جانب اسطوري كما ذكرنا ولا سيما بخصوص الفتوح العسكرية ، إلا انها تؤكد على وجود هذه الملكة وتدلل دلالة واضحة على قوة شخصيتها وامكانياتها في حكم الدولة الأشورية ، وان تلك المكانة السياسية الكبيرة التي وصلتها في بلاد اشور وتقبلهم بان تحكمهم امرأة ، لم تصلها لولا وجود حالة متقدمة من الرقي الحضاري الاجتماعي الذي وصل اليه المجتمع العراقي القديم ، المتمثل بقبول حكم المرأة عليهم .

### المطب الثالث : الملكة بلقيس :

وتعد واحدة من الشخصيات الملكية العربية المعروفة في بلاد العرب الجنوبية ، وهي بلقيس بنت شراحيل الهدهاد بن شرحبيل<sup>(21)</sup> ، وهناك من يذكر ان اسمها يلقمة بنت البشير بن الحارث بن قيس<sup>(22)</sup> ، وهي ملكة سبأ اليمانية



(23) ، التي اشار اليها القرآن الكريم ولم يسمها ، فملك بلقيس وكانت من افضل الناس في زمانها واعقلهم واحزمهم (24) ، وامها جنية ابنة ملك الجن واسمها رواحة (25) ، وكان لمولدها خبر ظريف ذكره الرواة فيما ذكر : انه تصور لأبيها الهدهاد في بعض قنصه حيتان تقتتلان ، حية بيضاء وحية سوداء ، فأمر بقتل السوداء ، وظهر له بعد ذلك شاب جميل ، فذعر منه ، فقال له : لا تخف انا الحية التي انجيتني ، وقد زوجه ملك الجن ابنته على شروط لها ، فعلمت منه بلقيس ، وعند نقض الشروط المأخوذة عليه لها ، غابت عنه (26) ، وقد ملكت بلقيس بعد ابيها (27) ، وطمع بها ذو الأذعار (28) ، صاحب غمدان ، فزحف اليها فانهمت اول الأمر ، ورحلت متخفية بزى اعرابي دهاءً منها ، ومن ثم صالحته مقابل التزويج منها ، فقتلته بعد ذلك (29) ، وفي هذا دلالة واضحة على رباطة جأشها وقوة شخصيتها وعلى الدهاء الذي امتازت به ، وكل ذلك تمكنت به ان تخلص مملكتها واهلها من شر ذي الأذعار ، وتحافظ على مملكتها ، وقد كبرت مكانتها كثيراً في نظر ابناء مجتمعها وبدأوا ينظرون اليها نظرة احترام وتقديس .

وبعد هذه الحادثة وليت الملكة بلقيس أمر بلاد اليمن كلها ، ولم تذكر المصادر تاريخ حكمها لبلاد اليمن بصورة محددة ويمكن لنا ان نحمن تاريخها بحدود القرن السادس الميلادي تاريخ وجود وانحيار سد مأرب على اعتبار ان الملكة بلقيس قد عملت في بنائه او صيانتته حسب ما سيأتي ذكره ، ويذكر المؤرخون والمفسرون الذي تناولوا سيرة حياتها ، ان الملكة بلقيس هي ملكة سبأ كانت تجلس على عرش عظيم هائل في مأرب (30) .

وازدهرت بلاد اليمن زمن حكم الملكة بلقيس واستقرت البلاد وتمتع اهل اليمن بالرخاء وال عمران والمدنية ، ووطدت بلقيس اركان ملكها بالعدل

وسادت قومها بالحكمة واحترام عليّة القوم ، ولها من القوة والسلطة اذا جلست على عرشها يقف بين يديها ألف رجل متقلدون السيوف كل رجل منهم ملك على قومه او مدينته (31) .

ويذكر ابن الأثير ان الملكة بلقيس هي التي ضربت سد مأرب بالحجر والقيار ، فحقت به ماء العيون والامطار وتركت فيه خروفاً على قدر ما يحتاجون اليه في سقيهم ، وقد كان اهل سبأ في زمن الملكة بلقيس يسجدون للشمس (32) ، وقد وردت قصتها المشهورة في القرآن الكريم مع نبي الله سليمان بن داود(عليهما السلام) ، عندما جاء طائر الهدد بعذر مقبول لتأخره عن سليمان (عليه السلام) ، فقال لنبي الله : (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنياً يقين (33) ) ، فقال نبي الله للهدد ( وما نبؤك ؟ ) (34) ، اجابه الهدد : (إني وجدت امرأة تملكهم وأتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ) (35) ، وعلى الرغم مما اتى الله قوم سبأ من النعم ، إلا انهم كانوا لا يعبدون الله ، فكما ذكر الهدد : ( وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ) (36) ، وكانت الملكة بلقيس وقومها يدينون في عبادتهم للشمس (37) ، كحال الديانات الوثنية قبل الاسلام وكما هو معروف ، واراد النبي سليمان (عليه السلام) ان يتحرى صدق كلام الطائر ، فدعا برق وكتب فيه بيده وطواه وختمه بخاتمه ولم يكتب فيه عنواناً (38) ، ثم قال للهدد: ( قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين \* اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ) (39) ، فوافقها الهدد وهي في قصرها والقى الكتاب في حجرها ، فلما فتحت الكتاب ورأت الخاتم ارتعدت ومن معها من الجنود ، فقرأت هي الكتاب وكانت عربية من قوم تبع الحميري ، واخبرتهم بما فيه (40) ، ( انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم \* ألا تعلموا عليّ وأتوني مسلمين ) (41) ، فقالت بلقيس لقومها : افتوني لا أبت أمراً إلا

بمشورتكم ، وبعد ابداء الرأي تركوا الأمر موكول إليها <sup>(42)</sup> ، وقررت ان ترسل لسليمان (عليه السلام) هدية مع اشراف قومها فقالت لهم : فان قبلها فهذا ملك من ملوك الدنيا وانا اعز منه واقوى <sup>(43)</sup> ، وان كان نبياً فانه لا يرضى دون ان تأتيه مسلمين او مقهورين <sup>(44)</sup> ، ولما وصلت الهدية الى نبي الله سليمان(عليه السلام) قال للرسول : (أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ) <sup>(45)</sup> ، فلما رجعت الرسل اليها ، سارت إليه واخذت الأقبال <sup>(46)</sup> من قومها معها ، وقدمت على نبي الله سليمان (عليه السلام) في الخامسة والعشرين من ملكه <sup>(47)</sup> ، وقيل اتى معها ثلاثمائة واثنان عشر قيلاً مع كل قيل عشرة الاف رجل ، ومعها من النساء ستمائة امرأة تخدمها <sup>(48)</sup> ، وقبل وصولها جيء بعرشها ، وقد امر سليمان (عليه السلام) بان يبني لها صرحاً ، ودخلته بلقيس وحسبته لجة <sup>(49)</sup> ورفعت ثيابها عن ساقها وكانت بيضاء كثيرة الشعر ، فقيل لهل أرسلني ثوبك فانه صرح ممد من قوارير ، فأدركت انها وقومها كانوا على ظلالة ، ومن ثم دخلت الاسلام مع نبي الله سليمان (عليه السلام) وحسن اسلامها <sup>(50)</sup> ، وهي اول من عملت لها النورة لإزالة الشعر عن جسمها ، فتزوجها سليمان واحبها ونزلت منه بمنزلة لم ينزلها احد من نساؤه <sup>(51)</sup> ، وردها الى ملكها باليمن وكان يزورها كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة ايام ، واقامت بلقيس مع نبي الله سليمان(عليه السلام) سبع سنين وعدة اشهر ، وماتت قبله في الشام ودفنها في تدمر واخفى قبرها <sup>(52)</sup> ، وان سماح النبي سليمان (عليه السلام) لبلقيس في الاستمرار بحكم اليمن بعد اسلامها هو دلالة واضحة على تقبل المجتمع العربي بحكم المرأة ان توفرت فيها شروط الحكم ، من العفة والكرم واحترام القوم والشجاعة ورباطة الجأش وقوة الشخصية وغيرها من الصفات ، وان نظرة المجتمع للمرأة ودورها فيه امر مهم جدا في وصول المرأة لهذه المكانة السياسية المتقدمة .

ويذكر انه كسر برج من ابراج مدينة تدمر ، فأصابوا فيه تماثيل لامرأة حسناء عليها عمامة طولها ثمانين ذراعاً مكتوب على طرف العمامة بالذهب : (بسم الله الرحمن الرحيم انا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود ملكت الدنيا كافرة ومؤمنة ملكت ما لم يملكه احد قبلي ولا يملكه احد بعدي صار مصيري الى الموت فأقصروا يا طلاب الدنيا ) (53) ، وتابوت بلقيس انكشف في عهد الوليد بن عبد الملك وعليه كتابه تدل على إنها ماتت لأحدى وعشرين سنة حلت من ملك نبي الله سليمان (عليه السلام) ، ورفع غطاء التابوت فاذا هي غضة لم يتغير جسها ، فرفع ذلك الى الوليد ، فأمر بترك التابوت في مكانه (54) ، وامر ان يبني عليها وعلى التابوت بالصخر ، وهكذا انتهت حياة ملكة عربية مشهورة ، ذكرها خالد في القرآن الكريم وبشخصيتها الغدة التي استطاعت بما ان تحكم بلاد اليمن بأقياها العديدة .

#### المطلب الرابع : الملكة زنوبيا (240-274م):

واحدة من النساء العربيات اللواتي تمكنن من الوصول الى حكم مجتمعهما ، ولمع نجمها في تاريخ العرب قبل الاسلام منه بلاد الشام وبالتحديد في مملكة تدمر السورية ، وقد كان لها امكانية واضحة في حكم مملكتها ومجتمعها .

لقد تناقلت المصادر العربية اخبار اسمين لشخصيتين نسائيتين حكمتا في المنطقة والمدة الزمنية ذاتها ، فقد ذكرت المصادر التاريخية اسم الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوير العمليقي ، واسمها نائلة (55) ، وقيل سميت بالزباء لطول شعرها وهو احد خصائص جمالها (56) ، وقد ذكرتها الكتابات التدمرية التي تستخدم الأبجدية الآرامية ، بصيغة (بت زباي ) أي : بنت زباي (57) ، وقد ذكرتها المصادر العربية بأنها عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان ، وشديدة الزهادة في الرجال (58) ، وكانت شديدة الجمال فلم

يكن اجمل منها في نساء عصرها ، وهي عذراء بتول لا ترغب في المال ولا في الرجال (59) .

وكانت الزباء ابنة ملك الجزيرة او بادية الجزيرة (بادية الشام) (60)، وكان ذلك على ايام جذيمة الأبرش (61) ، وقد كانت منازل عمرو والد الزباء بالمضيق بين الحابور وقرقيسيا (62)، ودارت حرب بينه وبين جذيمة الأبرش وانتصر جذيمة عليه فقتله ، وطرد ابنته الزباء الى الشام فالتحقت بالروم ، وملكت بعد عمرو ابنته الزباء وكان لها من الفرات الى تدمر (63) ، وكانت لها همة عالية في الجانب المعماري فقد بنت مدينتين متقابلتين على نهر الفرات ، فضلا عن قيامها ببعض الحروب (64) .

وعند هذه الأحداث التاريخية يبدأ الحكم الفعلي للملكة الزباء او زنوبيا ، وهنا يبدو لنا ان الاسمين (الزباء و زنوبيا) هما اسمان لشخصية واحدة اختلفت صيغتهما في المصادر التاريخية العربية وفي الكتابات التدمرية التي استخدمت اللغة الآرامية كما ذكرنا ، والذي يؤكد ذلك ان معظم الممالك العربية قبل الاسلام ولا سيما في العراق وبلاد الشام قد استخدمت الخط الآرامي الأبجدي في كتابتها مع انها اقوام عربية بأصولها ولهجاتها ، ومنها مملكة الحضر (الحضر) العربية في شمال العراق ، فقد جاءت اخبار المصادر العربية عنها ولا سيما اسماء ملوكها واهمهم (الساطرون) ، تختلف عن ما ذكرته كتاباتها المنقوشة على جدران معابدها وبنياتها وبالخط الآرامي ، التي أوردت اسم اهم ملك في تلك المملكة باسم (سنطروق) (65) ، ومن الممكن ان يكون للتقارب في لفظ الاسمين (الزباء و زنوبيا) اثر في هذا الالتباس الذي ظهر في المصادر التاريخية ، وعلى ذلك سيكون كلامنا في هذا البحث عن أي من الشخصيتين هو عن الشخصية ذاتها

، لأنهما حسب رأينا المتواضع شخصية واحدة اقترنت بصيغة اسمين مختلفين ليس إلا .

وبعد ان استجمع للملكة زنوبيا الأمر واستحكم ملكها على تدمر (240-274م) ، قررت غزو جذيمة الأبرش والأخذ بثأر ابيها ، وقد كان للملكة اخت تدعى (زيبية) وكانت عاقلة تحب الدهاء ولا تحب الحروب ، فأشارت على زنوبيا أخذ الثأر بالحيلة ، فأجابتها الزباء الى ذلك<sup>(66)</sup> ، فاحتالت الزباء (زنوبيا) على جذيمة واطمعت بنفسها وبجمالها الخلاب ، فخطبها واجابته ، حتى وقع في الفخ وقدم أليها<sup>(67)</sup> ، فلما دخل عليها قطعت رواهشه<sup>(68)</sup> واجرت دمه الى ان هلك ، فلما مات قالت الزباء (زنوبيا) : (والله ما وقى دمك ولا شفى قتلك ولكنه غيظ من فيض ) ، ثم امرت بدفنه<sup>(69)</sup> ، ان هذه المقولة لهذه الملكة تدل دلالة واضحة على رباطة جأشها وصبرها على الأخذ بثأرها من قاتل ابيها ، وان رباطة الجأش هذه قد لا يمتلكها كثير من الرجال .

وبعد ان قتل جذيمة ملك مكانه ابن اخته عمرو بن عدي بن نصر ، فقدم عليه غلام كان يعمل عند خاله وهو مخلصاً له اسمه (قصير) ويمتاز بالدهاء ، فقال له قصير : تمياً ولا تطل دم خالك ، فقال له عمرو : وكيف لي بها وهي أمنع من عقاب الجو ؟ ، فقال له قصير : أجدع انفي واضرب ظهري ودعني وإياها<sup>(70)</sup> ، ففعل ذلك وصار قصير الى الزباء ، ولم يزل قصير يحتال عليها إلا ان اعجبها فوثقت به ، لذلك قرر ان ينفذ انتقامه منها غدرًا وفي مدينتها ، فأدخل الى المدينة رجالاً في صناديق التجار ، ثم خرجوا من الصناديق واخذوا المدينة عنوةً ونادوا : يا ثأر القتيل غدرًا<sup>(71)</sup> ، واقبلت الزباء تريد الخروج ولكنها أبصرت عدوها عمرو بن عدي فشربت سمًا كان في خاتمها ، فقالت : بيدي لا بيد عمرو ، ولكنه تلقاها بالسيف فقتلها<sup>(72)</sup> .

هذه نهاية الزباء بنت الظرب التي نعتقد بأنها هي ذاتها الملكة زنوبيا ملكة تدمر وهو ما ذهب اليه بعض المؤرخين المحدثين<sup>(73)</sup>، إلا ان المصادر العربية تباينت في بعض الاخبار والروايات حولهما وكذلك تباين اسميهنَّ (الزباء وزنوبيا) كما ذكرنا سابقا، ونجد ان مرد ذلك الى بعد المدة التاريخية بين احداث هذه الملكة وبين تاريخ تدوين هذه المصادر التي اعتمدت على الروايات الشفوية التي ينتابها الكثير من التغييرات والمبالغات ، وهو امر معروف في تاريخ العرب قبل الاسلام .

وكما هو معلوم ان قصة نهاية الملكة زنوبيا التي ذكرتها بعض الكتابات التدمرية واليونانية ، تختلف عن نهاية الزباء مع اننا نجد انهما شخصية واحدة ، فقد ذكرت الكتابات التدمرية اسم ملكة تدمر باسم (بنت زباي) ، التي ترد بصيغة زنوبيا في الآرامية وبث زباي في العربية التي تعني الزباء او زبيب<sup>(74)</sup> ، لقد كانت لها مقدرة سياسية فائقة في ادارة الملك ، وتقربت من الأعراب والتودد الى القبائل العربية من اجل جمع كلمتهم معها والاعتماد عليهم في الحروب ، وقد قابلها مجتمعها بالاحترام والتقدير العالين ، لأنهم وجدوا فيها امرأة قوية الشخصية تستطيع ان تقودهم ضد اعدائهم الطامعين ببلادهم ، ولقد كانت النظرة الاجتماعية للمرأة في مرحلة العرب قبل الاسلام قد تطورت كثيراً ، إذ ان حكم المرأة التي تتوفر فيها شروط معينة ، للمجتمع اصبح امراً مقبولاً .

فخاف الرومان من ذلك ولاسيما بعد قيامها بطرد الحامية الرومانية في تدمر وهزمت القائد الروماني (هيرقليوس) ، وامتد حكمها من الفرات الى البحر المتوسط ومن صحراء العرب الى اسيا الصغرى (تركيا الحالية) ، وانتصرت على الامبراطور الروماني غالينوس ، وبعد ذلك قاتلها الامبراطور أورليان فانتصر عليها في انطاكية في سوريا ، وحاصر اهلها في تدمر واضطروا للتسليم سنة 272م

مجلة دورية دولية محكمة  
(75)، وقد اتجهت الملكة زنوبيا بعد هذه الخسارة الفادحة الى الفرات محاولة الهرب الى مكان جديد ربما لإعادة قوتها من جديد ، وكانت متتكرة على ناقة ، إلا ان فرسان الامبراطور تمكنوا من الإمساك بها ، ومن ثم قاد الامبراطور أورليان ملكة الشرق زنوبيا الى حمص ومنها الى روما (76) .

وهكذا انتهت الحياة السياسية لهذه الملكة وان اختلفت المصادر في تناول نهاية الملكة زنوبيا او الزياء ، فلقد كانت مثلاً رائعاً للمرأة العربية التي امتازت عن غيرها من النساء بفصاحة اللسان وحكمة البيان ورباطة الجأش وقوة الشخصية التي فاقت بها الرجال .

#### الخاتمة :

بعد انجاز هذا البحث الموجز عن خصوصية امكانية المرأة في حكم مجتمع الشرق الادنى القديم توصلنا الى عدة استنتاجات مهمة :

- المرأة في الشرق الادنى القديم تمتاز عن غيرها من نساء العالم بخصائص جعلها الخالق عليها ، فهي تمتلك مقدرة عالية تستطيع من خلالها الولوج وبنجاح كبير ، الى أي جانب من جوانب حياة المجتمع ان توفرت لها الفرصة والظروف المناسبة .

- لقد قدم لنا التاريخ العربي القديم والاسلامي العديد من الأمثلة العديدة لنساء عربيات سطرن تاريخهن وتاريخ امتهن بأحرف من نور ، فقد برزت المرأة العربية في المجال السياسي فنجد الكثير منهن وصلن الى الحكم ، ومنهن من برزن في المجال الديني فاصبحن أهلات وانصاف أهلات وكاهنات ، ومنهن اصبحن مقاتلات يحملن السيوف ويمتطين الخيول ، ومنهن اصبحن حكيماوات وامتزن بالقول المأثور ، ومنهن اصبحن شاعرات ينافسن الرجال في اسواق العرب الشعرية



، ومنهنَّ اصبحنَّ طبيبات يضمندنَّ الجرحى في المعارك ، ومنهنَّ برزن في التجارة ، وغيرهنَّ كثير ، وهو ما لم نجده عند المجتمعات الاخرى .

- لقد ظهرت في تاريخ الشرق الادنى القلم العديد من النساء اللواتي اصبحنَّ ملكات مشهورات لهنَّ فعل عسكري وسياسي ومعماري مميز ، واخترنا هذه الأمثلة التي أوردناها في هذا البحث ، لنعطي من خلالها صورة عامة عن الدور السياسي للمرأة في المجتمع القلم .

- لقد كانت لنظرة المجتمع الى المرأة باعتبارها عنصر فاعل فيه ، والى كونها تمثل نصف المجتمع ، أثر كبير في وصول المرأة الى حكم مجتمعتها ، ولذلك وجب احترامها واحترام حقوقها من اجل ان يستمر المجتمع ، فالمرأة أم واخت وزوجة و بنت وعمة وخالة وجدة وغيرها ، فلولا تلك النظرة من المجتمع الى المرأة لما وصلت الى تلك المكانة ، مع وجود بعض الاستثناءات في عصور زمنية وفي مناطق جغرافية محددة .

- لقد اهتم المجتمع العراقي القلم منذ عصور تاريخه الأولى السومرية والبابلية ، بالمرأة وحفظ حقوقها في قوانينه العديدة المدونة التي تمثل قمة الرقي الحضاري ، والتي امتاز بها عن غيره من المجتمعات وحتى المجتمعات العربية الاخرى .

- لقد ترسخت نظرة الاحترام والتقدير للمرأة في جميع انحاء مجتمع الشرق الادنى القلم بشرقه وغربه وشماله وجنوبه ، وانتشرت تلك النظرة بفضل التشريعات القانونية التي فرضتها الدول الامبراطورية العراقية الى المناطق المجاورة كافة ، ولذلك نجد المرأة في معظم مجتمعات الشرق الادنى القلم ، قد نالت مكانة لم تنلها نظيراتها في المجتمعات الاخرى .

. لقد اصبحت امكانية حكم المجتمع في الشرق الادنى القديم من قبل امرأة ، أمر مقبول دائماً وذلك عند توفر ظروف وشروط معينة ، أهمها اذا لم يكن هناك رجل يرث الحكم ، واذا كانت تلك المرأة من العائلة الحاكمة وتمتاز بالشجاعة وقوة البيان وفصاحة اللسان وحكمة العقل ودهاء الفعل وقوة الشكيمة ورباطة الجأش والصبر في الشدائد ، وحب مجتمعتها واحترامه ، والتضحية من اجله ، كل هذه الظروف والصفات وغيرها ان توفرت لمرأة معينة تستطيع ان تحكم مجتمعتها بكل نجاح ، لأنه سيحبها ويضحي من اجلها .

. لم تصل المرأة في المجتمعات الاخرى الى هذه المكانة التي وصلتها المرأة في مجتمع الشرق الادنى القديم ، لأن تلك المجتمعات ومنها المجتمعات الاغريقية واليونانية وحتى المجتمعات الأوربية ، والى مدة زمنية قريبة كانت تنظر الى المرأة نظرة احتقار ، وتعدّها سلعة ليس لها أي حقوق ، وكانت المرأة في تلك المجتمعات تعيش في حالة العبودية .

### الإحالات والمصادر :

<sup>1</sup> - يطلق مصطلح (الشرق الادنى القديم) على الاجزاء الغربية من قارة اسيا والاجزاء الشرقية من قارة افريقيا ، ويشمل حضارة العراق القديمة وحضارة مصر القديمة وحضارة بلاد الشام القديمة وحضارة شبه الجزيرة العربية واجزاء من بلاد ايران واجزاء من اسيا الصغرى ، وكان اول من اطلقه المستشرقين بحكم كونه قريب من بلاد اوربا .

<sup>2</sup> - تقسم الحضارات العالمية الى نوعين ، حضارات أصيلة وحضارات فرعية ، والحضارة الأصيلة هي الحضارة التي تنشأ في بيئة بدائية محلية دون الاعتماد على الحضارات الاخرى ، بينما الحضارة الفرعية هي الحضارة التي تنشأ نتيجة للاحتكاك مع الحضارات الاخرى ، وتصنف حضارة العراق القديم وحضارة مصر

القديمة ضمن الحضارات الأصيلية ، وحضارة بلاد الشام ضمن الحضارات الفرعية ، ينظر ، سليمان ، عامر واحمد مالك الفتیان : محاضرات في التاريخ القديم ، (الموصل : مؤسسة الكتب للطباعة والنشر ، 1978م) ، ص 11 .  
 3 - Land Troy:Tha Ancient Egyption -  
 Queen,(London:Aitamira Press,2003),p.94.

- 4 - محمد ، نبيلة : معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية ، (الاسكندرية: منشأة المعارف ، 1977م) ، ص 146 .
- 5 - حسن ، سليم : مختصر موسوعة مصر القديمة ، اعداد :عريان لبيب حنا ، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2007) ، ج 1، ص 203-210 .
- 6 - نوبلكور ، كرسيتيان ديروس : حثشبسوت (عظمة وسحر وغموض) ، ترجمة : فاطمة عبدالله محمود ، (القاهرة : المجلس الاعلى للثقافة ، 2005م) ، ص 269 .
- 7 - سليمان ، عامر واحمد الفتیان : محاضرات في التاريخ القديم ، ص 281 .
- 8 - حسن ، سليم : مختصر موسوعة مصر القديمة ، ص 211 .
- 9 - يعد المجتمع العراقي القديم المجتمع الوحيد الذي نظمت حياته القوانين المدونة العديدة ، وتناولت العديد من مواد تلك القوانين حقوق المرأة وصانت مكانتها في المجتمع ، وكان اقدم هذه القوانين قانون الملك أور نمو مؤسس سلالة أور الثالثة ( العصر السومري الثاني والاخير ) ( 2113-2006 ق.م ) ، وهو مدون باللغة السومرية ويحتوي على (22) مادة قانونية ، وجاء بعده ثلاث قوانين مهمة وهي تعود الى العصر البابلي القديم ( 2006-1595 ق.م ، أولها قانون الملك لبت عشتار خامس ملوك سلالة ايسن الذي حكم في المدة (1934- 1924 ق.م ( واستمر حكم هذه السلالة اكثر من مئتي سنة ( 1794-2017 ق.م ) ، إلا انه مدون باللغة السومرية ويحتوي على (38) مادة قانونية ، ويأتي بعد ذلك قانون مملكة اشنتنا الذي يرجع الى تلك المملكة الواقعة بين نهري دجلة وديالى

وامتدت حدودها الى مدينة بغداد الحالية ، ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ تدوينه ومن دونه ، إلا انه يسبق قانون الملك حمورابي بحدود (200) او (150) سنة ، وقد دون قانون اشنونا باللغة الاكدية وهو يحتوي على (60) مادة قانونية ، وتوّجت هذه المجموعة القانونية بقانون الملك حمورابي الذي يعد القانون الوحيد المتكامل ، فقد وجد على مسلة حجرية وهو مكتوب باللغة الاكدية و يحتوي على (282) مادة قانونية ، وقد دونه حمورابي (1750-1792 ق.م) سادس ملوك سلالة بابل الاولى (1894-1595 ق.م) ، فضلا عن هذه القوانين هناك مجموعة من المواد القانونية الاشورية ، لمزيد من التفاصيل ينظر ، سليمان ، عامر : القانون في العراق القديم ، ط2 ، ( بغداد : دار الشؤون الثقافية ، 1987م ) ، ص 199-275 .

<sup>10</sup> - يقسم التاريخ الاشوري السياسي والحضاري الى ثلاثة ادوار ( العصر الاشوري القديم الذي يبدأ من العصور القديمة التي ظهر فيها الانسان في بلاد اشور شمال العراق ، ويستمر هذا العصر الى حدود 1500 قبل الميلاد ، والدور الثاني هو العصر الاشوري الوسيط ( 1500 - 911 ق.م ) وفي هذا الدور بدأت مملكة اشور تظهر كقوة سياسية تنافس القوى السياسية الموجودة وذلك بظهور الممالك الأمورية في بلاد العراق القديم وبلاد الشام واهمها مملكة بابل الأولى وملكها الشهير حمورابي وكذلك ظهور الحثيون في اسيا الصغرى والميتانيون في اعالي ما بين النهرين ، والدور الثالث هو العصر الأشوري الحديث (911-612 ق.م) ، لمزيد من التفاصيل ينظر ، باقر، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة،(بغداد: دار الوراق ، 2009م) ، ج 1 ، ص 254 .

<sup>11</sup> - نجبة من الباحثين : تاريخ العراق قديمه وحديثه ، (بغداد : دار الوفاق ، 1998م ) ، ص 47 .

<sup>12</sup> - سليمان ، عامر و احمد مالك الفتیان : محاضرات في التاريخ القديم ، (الموصل : مؤسسة الكتب العلمية ، 1978م) ، ص 152 .

<sup>13</sup> - باقر، طه : مقدمة ، ج 1 ، ص 342 .

- 14 - الاحمد ، سامي سعيد : المدخل الى تاريخ العراق القديم ،(بغداد : مطبعة الجامعة ، 1983م) ، ص 78 .
- 15 - ساكنز ، هاري : عظمة بابل ، ترجمة : عامر سليمان ، (الموصل : دار الكتب ، 1995م) ، ص 89 .
- 16 - Rivkan Harris:Gender and Aging in Mesopotaian,the Gilgamesh Epic and other Ancieent Literature,(Oklahoma press,2003),p.115.
- 17 - باقر ، طه : مقدمة ، ج1، ص 557 .
- 18 - المصدر نفسه ، ص 558 .
- 19 - نخبة من الباحثين : تاريخ العراق قديمه وحديثه ، ص 48 .
- 20 المصدر نفسه .
- 21 - ابن عساكر ، ابي القاسم بن حسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي (ت 571هـ - 1175م) : تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الاماثل ، تحقيق : محب الدين ابي سعيد بن غرامة العمري،(بيروت : دار الفكر ، 1995م) ، ج59، ص 67 .
- 22 - الطبري ، ابي جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ - 922م ) : تاريخ الرسل والملوك ، ( بيروت : دار الكتب العلمية ، بلات) ، ج1 ، ص 289 .
- 23 - سبأ هي أرض باليمن مدينتها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة ايام ، ينظر ، ياقوت الحموي ، ابو عبدالله بن عبدالله (ت 626هـ - 1228م) : معجم البلدان ، (بيروت : دار الفكر ، بلات) ؛ المصطاوي ، عبد الرحمن : اعلام النساء ، اشرف عبد المجيد طعمة حلبي ، (بيروت :دار المعرفة ، 2002م) ، ص 58 .

- 24 - ابن قتيبة ، ابو محمد عبدالله بن مسلم (ت276هـ - 889م) : المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة، (القاهرة: دار المعارف ، بلات) ، ج1 ، ص628 .
- 25 - ابن الأثير ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم الشيباني (ت 630هـ - 1232م) : الكامل في التاريخ ، تحقيق : عبدالله القاضي ، ط2 ، (بيروت :دار الكتب العلمية ، 1994م) ، ج1 ، ص176 .
- 26 - المصدر نفسه ، ج1 ، ص177 .
- 27 - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ( ت 808هـ - 1410م) : مقدمة ابن خلدون ، ط5 ، (بيروت : دار القلم ، 1984م) ، ج2 ، ص59 .
- 28 - ذو الاذعار هو عمر بن ابرهة ذي المنار بن الحرث الرائش ، المصدر نفسه .
- 29 - الزركلي ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي ( ت1364هـ - 1976م): الاعلام ، قاموس تراجم لأشهر النساء والرجال من المستغربين والمستشرقين ، ط5 ، (بيروت : دار العلم للملايين ، 1980م) ، ج2، ص74 .
- 30 - ابن عساكر، تاريخ دمشق ، ج 69، ص 68 ؛ ابن كثير ، اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ابو الفداء (ت774هـ - 1372م) ، تفسير القرآن العظيم ، (بيروت : دار الفكر ، 1980م) ، ج3 ، ص361 .
- 31 - ابن عساكر، تاريخ دمشق ، ج69، ص 71 .
- 32 - الكامل في التاريخ ، ج1 ، ص179 .
- 33 - سورة النمل ، الآية 22 .
- 34 - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج69، ص71 .
- 35 - سورة النمل ، الآية 23 .
- 36 - سورة النمل ، الآية 24 .

- 37 - الرمخشري ، ابو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت538هـ - 1143م) :  
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق : عبد  
الرزاق المهدي ، (بيروت : دار احياء التراث ، لا. ت) ، ج3 ، ص365 .
- 38 - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج69 ، ص71 .
- 39 - سورة النمل ، الآية 27-28 .
- 40 - مقاتل ، ابو الحسن بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت150هـ -  
767م) : تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق : احمد فريد ، ( بيروت : دار  
الكتب العلمية ، 2003م) ، ج2 ، ص474 .
- 41 - سورة النمل ، الآية 30-31 .
- 42 - الرمخشري : الكشاف ، ج3 ، ص369 .
- 43 - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج1 ، ص290 .
- 44 - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج69 ، ص72 .
- 45 - سورة النمل ، الآية 37 .
- 46 - الأقبال ملوك في اليمن ، ومفرده القبل وهو دون الملك الأعظم ، وهو ما  
يكون رئيساً على قومه ، ابن منظور ، محمد بن مكرن منظور الافريقي المصري ( )  
ت 711هـ - 1311م) : لسان العرب ، ( بيروت : دار صادر ، لا. ت) ،  
ج11 ، ص576 .
- 47 - ابن الوردي ، زين الدين عمر بن مظفر ( ت 749هـ - 1348م) :  
تاريخ ابن الوردي ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، 1996م) ، ج1 ، ص24 .
- 48 - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج1 ، ص290 .
- 49 - حسبته لجة : ظنته ماء كثير ، الألوسي ، ابي الفضل شهاب الدين محمود  
الألوسي البغدادي ( ت 1270هـ - 1853م) : روح المعاني في تفسير القرآن  
العظيم والسبع المثاني ، ( بيروت : دار احياء التراث العربي ، لا. ت) ، ج19 ،  
ص209 .
- 50 - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج1 ، ص292 .

- 51 - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج 69 ، ص 75 .
- 52 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 1 ، ص 181 .
- 53 - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج 69 ، ص 78 .
- 54 - الزركلي : الاعلام ، ج 2 ، ص 74 .
- 55 - ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد ابو الفرج ( ت 597هـ - 1200م ) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ( بيروت : دار صادر ، 1960م ) ، ج 2 ، ص 56 ؛ ابن الوردي ، تاريخ ، ج 1 ، ص 58 .
- 56 - ابن الجوزي : المنتظم ، ج 2 ، ص 60 .
- 57 - علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط 2 ، ( ساعدت جامعة بغداد على نشره ، 1993م ) ، ج 3 ، ص 107 .
- 58 - ابن الجوزي : المنتظم ، ج 2 ، ص 60 ؛ اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ( ت 284 - 897هـ ) : تاريخ اليعقوبي ، ( بيروت : دار صادر ، لا.ت ) ، ج 1 ، ص 208 .
- 59 - ابن الجوزي : المنتظم ، ج 2 ، ص 61 .
- 60 - ابن قتيبة : المعارف ، ج 1 ، ص 646 ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 1 ، ص 265 .
- 61 - وهو جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن عرب اليمن ، ومالك هو اول ملك من العرب بأرض الجزيرة ، وملك جذيمة بعد عمه عمرو ، وجذيمة بن مالك كان فيه برص فسُمي جذيمة الأبرش او جذيمة الأبرص كناية عنه ، ابن الوردي : تاريخ ، ج 1 ، ص 5 .
- 62 - وهي بلدة على نهر الخابور وعندها مصب الخابور في نهر الفرات ، فهي مثلث بين الخابور والفرات ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 4 ، ص 328 .
- 63 - ابن الجوزي : المنتظم ، ج 2 ، ص 60 .
- 64 - ابن الوردي : تاريخ ، ج 1 ، ص 58 .



- 65 - لقد ورد اسم مدينة الحظر بالطاء اخت الطاء حسب ترجمة اسمها المنقوش في كتابات المدينة التي ترجمها المختصون بالكتابات القديمة ، وليس الحضر كما هو شائع ، لمزيد من التفاصيل ، ينظر : العبيدي ، شاعر محمود : مملكة الحضر العربية ، (ديالى : مطبعة الجامعة المركزية ، 2011م) ، ص 33 .
- 66 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 1 ، ص 265 .
- 67 - ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص 311 .
- 68 - رواهشيه أي عصب يديه ، والواحدة راهشة ، وكذلك في يد الانسان رواهشها وهي عصبها من باطن الذراع ، الأزهرى ، ابو منصور محمد بن احمد (ت 370هـ . 980م ) : تهذيب اللغة ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، ( بيروت : دار احياء التراث العربي ، 2000م) ، ج 6 ، ص 52 .
- 69 - ابن الجوزي : المنتظم ، ج 2 ، ص 68 ؛ ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص 311 .
- 70 - اليعقوبي : تاريخ ، ج 1 ، ص 209 ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 1 ، ص 267 .
- 71 - اليعقوبي : تاريخ ، ج 1 ، ص 209 .
- 72 - ابن الجوزي : المنتظم ، ج 2 ، ص 68 ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج 1 ، ص 59 .
- 73 - الزركلي : الاعلام ، ج 3 ، ص 41 .
- 74 - علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج 3 ، ص 107 ؛ حتي ، فيليب وآخرون : تاريخ العرب (مطول) ، (بيروت : دار الكشاف ، 1949م) ، ج 1 ، ص 99 .
- 75 - الزركلي : الاعلام ، ج 3 ، ص 41 .
- 76 - علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج 3 ، ص 123 .

تأثير الثورة الجزائرية على السياسة الفرنسية في إفريقيا السوداء (1956-1960)

(1960)

الأستاذ: لتييم عيسى

جامعة الحاج لخضر - باتنة -

### ملخص

دفعت الثورة الجزائرية بخطابها القومي التحرري، الاستعمار الفرنسي إلى إدخال إصلاحات على منظومته السياسية في إفريقيا السوداء الغربية بداية بسن قانون الإطار، ومحاولة احتواء التيار الفرنكوفوني عبر ما يسمى بقانون المجموعة، وهذا لتفادي انتقال مفعول النظرية التهديمية التي تبنتها جبهة التحرير الوطني في سياستها الإفريقية، ومع ذلك أدى الاندفاع الدبلوماسي المضاد للمشاريع الفرنسية في إفريقيا السوداء إلى توعية الأفارقة وتسريع عملية حصول هذه الأقاليم على استقلالها

### résumé

A incité la révolution algérienne gerge libération nationale, le colonialisme français à introduire des réformes à son système de politique dans l'Afrique de l'ouest de l'adoption du loi cadre, et essayer de contenir le groupe francophone actuelle par la loi de la communauté et ce afin d'éviter l'effet de transmission théorie subversion adoptée par le Front de libération nationale dans sa politique

africaine, mais cette pointe diplomatique mené des projets anti-françaises en Afrique pour sensibiliser les Africains noirs et d'accélérer le processus pour ces régions sur l'indépendance

### مقدمة

لقد تميزت الثورة الجزائرية عن باقي ثورات القرن العشرين، بأنها حركة تتجاوز في أهدافها النضالية حدودها المحلية والإقليمية لتطرح مفهوم شمولي يقوم على رفض الاستعمار بجميع إشكاله والتحالف مع جميع القوى المناهضة لهذه الظاهرة. وتحت هذا الإطار حرصت قيادة الثورة على الإعلان في موثيقها الرسمية وتصريحاتها في مختلف التظاهرات الإقليمية والدولية أن تحرير القارة الإفريقية من الاستعمار جزء لا يتجزأ من كفاح الشعب الجزائري، وسعت إلى نشر هذه القناعات في كل الأوساط التحررية الإفريقية عبر أجهزتها السياسية الخارجية المختلفة، بدفعهم إلى انتهاج النموذج الجزائري في الكفاح لتحقيق تحرير القارة الإفريقية وبناء وحدتها.

إن هذا الطرح دفع الاستعمار الفرنسي إلى تبني إستراتيجية مضادة تهدف إلى حرمان الثورة من عمقها الإفريقي، وتعطيل عملية تثوير الشعوب الإفريقية بتبني سياسات مرحلية، منها القانون الإطار، ومحاولات إيجاد الشرعية القانونية لاحتواء التيار الفرانكفوني عبر ما يسمى بالمجموعة الفرنسية الإفريقية.

إن قوة الكفاح المسلح الجزائري، وصداءه في إفريقيا، وانعكاساته على الرأي العام الفرنسي داخليا وخارجيا ، أجبر الاستعمار الفرنسي على الاعتراف باستقلال إفريقيا.

## السياسة الفرنسية في أقاليم ما وراء البحار قبيل اندلاع الثورة

الجزائرية:

أفزت الحرب العالمية الثانية بنتائج خطيرة على وضع فرنسا الدولي، فقد تدهورت حالتها الاقتصادية والاجتماعية، والعسكرية، فكان عليها تقبل حقائق وضعها الجديد، أو تتابع سياسة العظمة غير آبهة بما يتطلبه هذا الجانب من إمكانيات اقتصادية ومادية وعسكرية.

وبالعودة إلى تاريخ فرنسا- يمكن أن يفيد في هذه الدراسة- نجد أنها تركز اهتمامها على مجالين فهي تهتم بدورها في المجال الأوروبي كدولة أوربية، ومن ناحية ثانية بمجال إمبراطوريتها المترامية الأطراف التي تمتد بها إلى إفريقيا والمحيط الهادي والهندي والأطلسي، لكن حالة فرنسا تغيرت بعد الحرب العالمية الثانية، فلم يعد بمقدورها الاضطلاع بأعباء المجالين، ورغم ذلك وتحت ضغط رجال الأعمال الفرنسيين، وتأثير أساطير ومعتقدات القرن 19 ساد اعتقاد بأنه على فرنسا الاهتمام بالمجالين، و انطلاقا من هذا الوضع سترسم سياسة فرنسا تجاه أوربا، وأقاليم ما وراء البحار<sup>(1)</sup>.

## مؤتمر برازافيل وتحديد معالم السياسة الفرنسية في إفريقيا السوداء

لقد دعي مؤتمر برازافيل للانعقاد في عام 1944، لمناقشة مستقبل السياسة الفرنسية في المستعمرات خاصة في إفريقيا السوداء، ووضع الأسس العلمية التي تؤدي إلى وحدة الأقاليم الفرنسية في إفريقيا، رغم أن المؤتمر خصص لجميع مستعمرات فرنسا في العالم، إلا إن الصعوبات العملية التي تتعلق بوضع فرنسا في هذه الفترة قد قصرت مجاله على إفريقيا السوداء<sup>(2)</sup> وإن كان بعض الدارسين المتخصصين أكدوا حضور ممثلين عن شمال إفريقيا وأعطيت لهم صفة ملاحظ<sup>(3)</sup>.

إن النظرة الأولية للمؤتمر تبرز رغبة فرنسا استيعاب (assimilation) رعايا المستعمرات ليس فقط على المستوى الثقافي، بل قانونيا وسياسيا، بالشكل الذي يجعل الأفارقة فرنسيين حقيقيين<sup>(4)</sup> ويمكن فهم هذه المسألة أكثر باستعراض أهم النقاط التي أكد عليها المؤتمر.

**ففي المجال السياسي:** أكد المؤتمر أن أهداف المهمة الحضارية التي تقوم بها فرنسا في المستعمرات الإفريقية تستبعد أية فكرة تتعلق بالاستقلال، وحتى الحكم الذاتي آنيا ومستقبلا، وأفصح أن سلطة فرنسا ستطبق بكل صرامة في جميع أنحاء الإمبراطورية.

أيد المؤتمر فكرة تمتع المستعمرات بقدر كافي من الحرية في الإدارة والاقتصاد حيث ذكر " لقد مارس سكان المستعمرات حريتهم الشخصية وبدأت سلطتهم تتكون تدريجيا من خلال قدرتهم على التعامل مع الإدارة والشؤون العامة وهذا ما يؤهلهم للتمتع بالحرية السياسية والمشاركة في البناء الجديد وأصر المؤتمر أيضا على تمثيل المستعمرات في الجمعية التشريعية القادمة، وأن هذا التمثيل سيتلاءم مع أهمية المستعمرات داخل التكوين الفرنسي المقترح، ومع أهمية الخدمات التي قدمتها تلك المستعمرات لإنفاذ فرنسا، ولكن لم يتم تحديد عدد المقاعد بالنسبة للملايين من سكان المستعمرات ، عدا أنه وعد بأن تكون أكثر من تلك التي كانت موجودة أيام الجمهورية الثالثة.

**أما عن المسائل الاجتماعية** فقد أعلن المؤتمر "أن الاحترام والتقدم وحيوة الأمة هي السياسة الجديدة لفرنسا في المستعمرات، ويجب أن تخضع تلك الأمور وبشكل حازم لمنطق الضرورة الاستبداد غير موجود، فتح باب الوظائف أمام الإفريقيين باستثناء الوظائف العليا التي تظل مقصورة على الفرنسيين.

نظر سكان المستعمرات الفرنسية في إفريقيا إلى هذه السياسة بالرغم من أن القوانين السابقة قد انصرفت عن وجود الفرد في إفريقيا الفرنسية على أنها طموحة وشبهوها بالفكرة (the famous editop caraculla) في الإمبراطورية الرومانية، ملخصها أن المواطن في الإمبراطورية سيحتفظ بكل حقوقه داخل أقاليمها. (5)

ومنذ هذا التاريخ وحتى قيام الثورة الجزائرية لم يتبادر إلى ذهن الأفارقة فكرة الاستقلال، إذ كانت مطالبهم سياسية لا تتعدى المطالبة بالمساواة في مجال العمل وتوسيع نطاق الانتخابات، وزيادة الأعضاء الممثلين لتلك الأقاليم في الجمعية الوطنية، وكانت وسيلتهم في ذلك الضغط على رجال الأحزاب في فرنسا وقت الانتخابات عن طريق إعطاء أصواتهم أو عدم إعطائها لذلك الحزب. (6)

فصل دستور 1946 بشكل نهائي في سياسة فرنسا تجاه أقاليم ما وراء البحار، باستبعاده لفكرة الاستقلال أو منح حتى الحكم الذاتي لتلك الأقاليم، وأكد على مسألة ان التطور السياسي يتم في إطار ما أطلق عليه "الاتحاد الفرنسي" الذي حدد فلسفته مقدمة الدستور التي تنص على "تؤلف فرنسا مع شعوب ما وراء البحار، اتحاد يقوم على المساواة في الحقوق والواجبات بدون تفرقة بسبب الجنس واللون... يتكون الاتحاد الفرنسي من شعوب تضع مواردها وتبذل جهودها مشتركة في سبيل الحضارة وزيادة الثروة... وإيمان فرنسا برسالتها التقليدية يجعلها تقود شعوب هذه البلاد حتى يديروا شؤونهم بأنفسهم، وتضمن لكل الأفراد الحريات والحقوق المعلنة في الدستور وحق تولى الوظائف. (7)

### جبهة التحرير الوطني وإستراتيجية تنوير القارة الإفريقية:

اكتشفت جبهة التحرير الوطني أهمية القارة الإفريقية بشقيها الشمالي والجنوبي في نضالها ضد الاستعمار، لذلك قامت بوضع إستراتيجية ثورية تتجاوز

حدودها الإقليمية فطرحت مسألة إنهاء الاستعمار في كامل أجزاء القارة الإفريقية بالاعتماد على الكفاح المسلح، بعيدا عن النضال المطلي (الشرعية البرلمانية) الذي أثبت فشله في الميدان وكان هدفها من هذا الطرح هو تصدير "النموذج الجزائري" في الكفاح إلى إفريقيا وجعل الأفارقة ينتهجون نفس النهج، وبذلك يتحقق تحرير القارة الإفريقية ككل، فمفهومها للوحدة الإفريقية هي تحالف عنيف لكل المحتلين ضد الاستعمار، وبناء يقع تشيده بعد ذلك (بعد الاستقلال)

أكد فانون هذه الإستراتيجية في مذكراته "من أجل إفريقيا" حيث ذكر أن الشعب الجزائري رفع منذ 1954 شعارا له: التحرير الوطني للجزائر وتحرير القارة الإفريقية"<sup>(8)</sup>، ودعمتها تصريحات قادة الثورة في العديد من اللقاءات التي جرت على مستوى القارة "إن الجزائر طابعها إفريقي، وأن كفاحها يدخل ضمن كفاح كامل شعوب القارة الإفريقية. وأن كفاح الشعب الجزائري من أجل استقلاله هو جزء من انطلاقة لا رجعة فيها وهي حركة التحرر الإفريقية، وأن إفريقيا هي مقبرة الاستعمار وهي اليوم وقفت على رجليها، وأن هذه الانطلاقة تحمل معها الوعي الحقيقي للعالم الحر والموحد وهي قادرة على صنع كل شيء".<sup>(9)</sup>

ومن أجل تحقيق هذا الهدف "تنوير إفريقيا" تطور عمل الثورة الجزائرية على صعيدين مانحا الوحدة الإفريقية بعدين هما:

1- التنديد بالوحدة الإفريقية-الفرنسية التي جاء بها الاصلاحان : القانون الإطار والجماعة الفرنسية، عن طريق وسائلها الإعلامية خاصة مجلة المجاهد ، ويهدف هذا الإجراء إلى فصل إفريقيا عن فرنسا (الوحدة السلبية)

2- ضم إفريقيا إلى حرب التحرير عن طريق المشاركة كعضو فاعل في التظاهرات التي عرفتها القارة بداية من عام 1958، سواء تلك التي جرت على مستوى الدول أو تلك التي عقدتها الشعوب الإفريقية(الوحدة الايجابية)<sup>(10)</sup>.

## السياسة الفرنسية في إفريقيا السوداء وموقف الثورة الجزائرية منها

(54-60)

هذه الإستراتيجية بينت للاستعمار الفرنسي أن الثورة الجزائرية هي الخطر الرئيسي الذي يجب مواجهته، بل يجب التفرغ له قبل أن تتعاظم الثورة وتسري "العدوى" لكامل شعوب هذه القارة الزاخرة بالثروة واليد العاملة التي يمكن إدماجها ضمن مصادر الثروة بدون مقابل، كما أن القضاء على الثورة يعتبر ضمان أكيد للبقاء في كامل إفريقيا، لأنها تعرف تاريخيا أن احتلال الجزائر كان بمثابة الانطلاق الفعلي للحملة الاستعمارية نحو إفريقيا ومجموع البقاع التي خضعت للاستعمار الأوروبي.

ادت الثورة الجزائرية إلى طرح نقاش حاد حول مستقبل المستعمرات الفرنسية في إفريقيا لدرجة أن أصبح التخوف داخل الأوساط السياسية الفرنسية في أن تهنز الثورة في إفريقيا العرش الاستعماري على شكل ما يجري في الجزائر، ورأت أن أي خطر في توجيه الضربة للقضاء على هذه الثورة من شأنه أن يعزز البأس في كامل أجزاء العالم الحر الرأسمالي، وهذا ما ذهب إليه رئيس الوزراء الفرنسي في تصريحه أمام مجلس العموم الفرنسي في 1956/5/8 عندما قال "إننا نعتقد أن سياستنا هي الوحيدة التي تستطيع إدامة الوجود الفرنسي في الجزائر، وإذا ما قدر لنا سوء الطالع أن نفقد الجزائر، فإننا سنفقد معها جميع أجزاء الإمبراطورية، وأننا نعلم النتائج المترتبة على ذلك في جميع الأصعدة الاقتصادية والسياسية والأدبية لفرنسا والعالم الحر ككل".<sup>(11)</sup>

من هنا وكبداية يتبين لنا مدى العلاقة بين فقدان الجزائر أي استقلالها وبين فقدان أجزاء الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا (استقلالها)، وحيث أن استقلال الجزائر تم



بواسطة الحرب فإن العلاقة بين تلك الحرب وبين استقلال إفريقيا تصبح قائمة، وفي كلتا الحالتين نتائج وخيمة على فرنسا والعالم الرأسمالي.

وعلى العموم إن الكفاح المسلح الجزائري، وصداه في إفريقيا وضع فرنسا أمام خيارين لا ثالث لهما.

**الأول:** هو مواجهة عاصفة الثورة على مستوى كامل مستعمراتها عبر القارة الإفريقية، مما يجعل بنهايتها ويفقدها كل شيء خصوصا و أنها لم تنس بعد هزيمة "ديان بيان فو" على يد الشعب الفيتنامي.

**الثاني:** هو تلبية مطالب الشعوب الإفريقية بما فيها الشعب الجزائري، مع ما يمكن أن تحتفظ به من هيمنة عبر أسلوب جديد يبقى سيطرتها الاقتصادية والثقافية ويحافظ على تبعية هذه القارة، ويبدو أنها اختارت الخيار الثاني<sup>(12)</sup>.

لقد سعى الاستعمار الفرنسي إلى إجهاض إستراتيجية جبهة التحرير الوطني الإفريقية وحرمان الثورة الجزائرية من عمقها الإفريقية بتبني عدة سياسات مرحلية منها القانون الإطار، ومحاولات إيجاد الشرعية القانونية لاحتواء التيار الفرنكفوني عبر ما يسمى "بالمجموعة الفرنسية"

## 1- القانون الإطاري (la loi cadre)

لقد دفعت الحرب في الجزائر "غاستون دوفري (Gaston Defferre) وأقنعت بضرورة تفادي نكبة مثيلة لها في إفريقيا السوداء، هذا بتطبيق سياسة واضحة روحا لا نصا تؤكد أن منح أقاليم ما وراء البحار حقها في تقرير مصيرها، أصبح ضرورة ملحة يمكن من خلالها تفادي تبعات حرب تضر بالمصالح الفرنسية في إفريقيا السوداء.

تأكد "دوفري" من خلال خبرته السياسية ومعاشرته للواقع الإفريقي خاصة بعد الحرب العالمية الثانية أن سياسة الاستيعاب أصبحت متأخرة لتعطي الأثر

المطلوب في أذهان الأفارقة، لكن هذا الفهم لم يصل إلى حد التصريح بالاستقلال، وإنما حاول تعويض هذه الفكرة بمطلب المساواة داخل أقاليم ما وراء البحار، اقتداء بما حصلت عليه الطوغو في عام 1955. وهذا بطبيعة الحال مرتبط بأسباب نجملها فيما يلي:

- أن معظم مجموعات الرأي العام الفرنسي غير مستعدة لهذه الفكرة.

- بعض السياسيين الأفارقة، وخاصة "هفوات بوانييه" كانوا ضد الفكرة أصلا.

- أنه سيكون من الصعب التعهد بالاستقلال بدون تحديد تاريخ له، وكذلك إعطاء المساعدة للإفريقيين الذين يكون من المحتم عليهم أن يذهبوا بعيدا وسريعا عن فرنسا<sup>(13)</sup>.

أخذ "دوفري العبرة من تصرف سابقه "منديس فرانس" الذي اعتقد أن تفهمه لأوضاع ما وراء البحار سيعود عليه بالنفع الحقيقي، فقد حقق السلام في الفيتنام، وبدأ المفاوضات مع "الحبيب بورقيبة" لكن سياسته هذه أدت سقوط حكومته في فيفري 1955 م لأن الرأي العام الفرنسي كان ما يزال ضد فكرة تسوية قضايا فرنسا في أقاليم ما وراء البحار متجاهلا أثر نمو الحركات التحررية في هذه الأقاليم، ومعتقدا أن الحرب في الجزائر ستحسم في صالح فرنسا في فترة قصيرة.

ترجم دوفري خلاصة افكاره وتجاربه في قانون عرف باسمه (القانون الإطاري) عرض على الجمعية الوطنية الفرنسية لدراسته والموافقة عليه في 1956/6/23. بين فيه أسباب اقتراح هذا المشروع والذي بالطبع جاء بناء على تطور المسألة الجزائرية وعجز الحكومة الفرنسية على التصدي لها مما تطلب إدخال

إصلاحات على النظم المسيرة لأقاليم ما وراء البحار تفاديا لانتقال "عدوى" النموذج الجزائري إلى هذه الأقاليم، حيث صرح "دوفري بما يلي" لا يجب أن تسبقنا وتسيطر علينا الأحداث، لنستسلم بعدها للمطالب عندما يعبر عنها بشكل عنيف.... إنه من المهم أن نتخذ الإجراءات التي تسمح بتفادي النزاعات الخطيرة في الوقت المناسب". (14)

نصت مقدمة القانون "الإطاري" على الهدف من القانون، وبينت نوع النظام السياسي المزمع إتباعه في أقاليم ما وراء البحار إذا جاء فيها "إنه من أجل توثيق الصلة بين فرنسا وأقاليم ما وراء البحار، فإن خطوات من اللامركزية سوف تركز بواسطة هذا القانون، وتكون الخدمات المركزية من اختصاص وزارة أقاليم ما وراء البحار".

وحلل القانون هذه الصيغة السياسية الجديدة في إفريقيا على النحو التالي.  
 . تقام في جميع أقاليم ومديريات ما وراء البحار- ما عدا الجزائر- جمعيات برلمانية على أساس الاقتراع العام. وقائمة موحدة لجميع الانتخابات بالنسبة للجمعيات المحلية أو الجمعيات البرلمانية في باريس، ويكون من حق هذه الجمعيات البرلمانية التشريع في الشؤون الداخلية.

. إنشاء مجلس تنفيذي يكون مسؤولا عن الإدارة الحكومية في الأقاليم مع زيادة عدد الإفريقيين في وظائف الحكومة باستمرار.  
 وتضمن النظام اللامركزي الذي جاء به القانون أمرين:

1- تصبح الخدمات الإدارية من اختصاص الحكومات الإقليمية داخل كل إقليم، وتنقل إليها السلطة من الاتحادات التي كانت موجودة، اتحاد إفريقيا الفرنسية الاستوائية (A.E.F) واتحاد إفريقيا الفرنسية الغربية (A.O.F)

2- تحويل سلطة التشريع من سلطة باريس إلى البرلمانات الإقليمية المنتخبة. (15)

من خلال هذا العرض البسيط لفحوى "القانون الإطاري" يتضح أن هذا القانون أوجد تفرقة بين مسائل الدولة ومسائل الأقاليم، وهذا يمكن اعتباره تصريح بـ "شخصية الإقليم" الذي يتمتع برلمان محلي، يناقش ويوافق على الميزانية والمشاريع الإدارية كما ينتخب مجلس الحكومة الذي يمثل الإقليم، ويشكل الجهاز التنفيذي المحلي، والحاكم له رتبة حاكم الإقليم ويمثل الجمهورية (16).

غير أن اللامركزية التي أقرها هذا القانون أدت إلى تجريد الأجهزة الفيدرالية من صلاحياتها، لصالح الأقاليم، مما جعل هذا البناء القانوني يحمل خطراً يتجاوز الزمن، فيما أنه تمت التوصية باللامركزية فإن الجماعة الموحدة والاقتراع العام اللذان أقرهما القانون يحتمان إيجاد استقلالية أكثر فأكثر لأقاليم ما وراء البحار. ذلك أن الطوغو والكامرون اللذان اتجها ابتداء من 1957 نحو وضع الحكم الذاتي أحدثا حجة جديدة للمطالبة بالاستقلال في أقاليم ما وراء البحار (17).

اعتبرت جبهة التحرير الوطني على لسان ناطقتها الرسمي (جريدة المجاهد) أن القانون الإطار وسيلة ملتوية تمكن من إدامة الهيمنة الفرنسية في إفريقيا، وأكدت أن الاستقلالية الإدارية المنصوص عليها في هذا القانون ليست إلا أمراً شكلياً، بحكم أن إدارة الأقاليم موجهة دوماً من قبل حاكم يتلقى أوامره من باريس، وهذا ما يحرم بطبيعة الحال السلطات التنفيذية من حق المبادرة، وتبقى مجرد لجان استشارية تمارس وظائفها بأمر من الحاكم العام الذي لديه الكلمة الأخيرة، وفي النهاية الخطر الأكبر الذي تستنكره جبهة التحرير هو محاولة "بلقنة إفريقيا" إذ بدلا من إعطاء مؤسسات وحدوية في إطار المجموعات الكبرى (A.E.F.) - (A.O.F.) "زادت من حدة الخصوصيات المحلية" (18).

تم تكرار هذا النقد من طرف الفيدراليين المجتمعين حول "سنغور" الذي أنشأ في مؤتمر داكار "المؤتمر الإفريقي" الذي كان من بين أهدافه الأساسية إنشاء إتحادين هما (A.O.F.) و (A.E.F.) المدعوان للاندماج داخل إتحاد كبير

فرنسي . إفريقي<sup>(19)</sup>. حيث هاجم سنغور "قانون الإطار" واتهمه بأنه يريد "بلقنة" إفريقيا (أي تمزيق إفريقيا إلى كيانات سياسية منفصلة) كما مزقت البلقان في الوقت الذي تسعى فيه أوروبا للإتحاد، والبلقنة ليست منطقية لأنها تشتت المراكز السياسية في إفريقيا الفرنسية بحيث تجعلها ضعيفة أمام جيرانها الأقوياء في إفريقيا البريطانية، أما عن التنظيم أو الإطار الفرنسي الإفريقي فقد عرض "سنغور" بشأنه نوعا من الاتحاد مع فرنسا، يضم مجلسين أحدهما في العاصمة الفرنسية والآخر له صفة اتحادية ينظر في قضايا ما وراء البحار وفيما يتعلق بالمصلحة العامة.<sup>(20)</sup>

برز هذا الاتجاه أكثر في مؤتمر حزب التجمع الديمقراطي المنعقد في كوتونو يوم 28 جويلية 1958 باتخاذ أفكار فيدرالية بأولية مؤكدة لصالح الفدرالية الإفريقية حيث صرح "سنغور" نريد المجموعة الإفريقية قبل المجموعة الفرنسية<sup>(21)</sup> وصادق المؤتمر على لائحة تطالب بالاستقلال فورا وتقرر اتخاذ جميع الإجراءات الضرورية لتجديد الجماهير الإفريقية حول هذا القرار، وشملت اللائحة أيضا إنشاء مجلس تأسيسي إفريقي يقرر الوضع الفيدرالي الاستقلالي بين دول إفريقيا السوداء وفرنسا وإنشاء مجموعة واسعة للأمم المتحدة الإفريقية تدخل فيها جميع الأقطار الإفريقية المستعمرة.<sup>(22)</sup>

إن هذه القرارات تشكل بحق مرحلة حاسمة في تاريخ إفريقيا السوداء، استحسنتها جبهة التحرير وحاولت الترويج لمؤتمر "كوتونو" على أنه يمثل نقطة البداية نحو تحرير إفريقيا، وبهذه المناسبة كتبت جريدة المجاهد مقالا مطولا جاء فيه "إن كوتونو تمهيد لحرب كبيرة يحصل من خلالها 30 مليون إفريقي على الاستقلال... إن المطلب الوطني للشعوب الإفريقية مستلهم بقدر كبير من ثورتنا" وتحتم الجريدة تعليقها بدعوة الأفارقة إلى الثورة ضد الاستعمار الفرنسي حيث

قالت "أيها الأفارقة أيتها الإفريقيات إلى السلاح الموت للاستعمار الفرنسي (23)."

في الحقيقة- كما يبدو- أن القفص الفرنسي المسمى "القانون الإطار" لم يعد يقوى على حمل القيل الإفريقي الضخم(\*)<sup>(24)</sup>، فقد جاء نصه وروحه بعيدا عن طموحات الوطنية الإفريقية في الوحدة والاستقلال، وهذا ما أدركه الاستعمار الفرنسي في نهاية المطاف حيث صرح دفري في تقييمه لأثر القانون الإطار على أقاليم ما وراء البحار أمام المجلس الوطني الفرنسي يوم 1957/01/30 بما يلي: "اليوم ليست الاعترافات السياسية هي التي تعرقل الحكومة في إتباع لجنة الأقاليم الفرنسية للطريق الذي سلكته ولكن عندما تكون ديمقراطيين لا نستطيع التحرك إلا في الإطار الذي يسطره الدستور" ويتحديده لأثر عدم تكيف الدستور مع مطالب الوطنية الإفريقية، "يمكن أن يفتح الطريق أمام أعمال العنف ويسير باتجاه الشعار الذي أطلقته جبهة التحرير الوطني.<sup>(25)</sup>

غير أن انقلاب 13 ماي 1958 غير الوضع بتعجيله في إسقاط الجمهورية الرابعة وفتح آفاق لتطور جديد عرف ب"المجموعة" أو الشكل الجديد للإتحاد الإفريقي الفرنسي

## 2- المجموعة (la communauté)

لقد أحس الجنرال ديغول بحكم تجربته خلال الحرب العالمية الثانية، بالخطر الذي يهدد ممتلكات فرنسا في إفريقيا جنوب الصحراء، إذا تركت خارج خطة فرنسية شاملة تأخذ بعين الاعتبار الوضع العام المحيط بإفريقيا، لذلك جعل مجال اهتمامه الأساسي إفريقيا السوداء بعد المغرب العربي.

تحت هذا الإطار أعلن "ديغول" عن سياسة جديدة تطبق في إفريقيا السوداء وضح فيها أن الإتحاد الفرنسي السابق أصبح متأخرا، معلنا عن فكرة جديدة تحدد العلاقة بين فرنسا وأقاليم ما وراء البحار هي "الجماعة" وأبرز هذا في خطابه سبتمبر 1958" إن فرنسا تطلب حقيقة إلى ذوي العلاقات القديمة أن يؤسسوا أممهم للحصول على حريتهم" وأوضح أنه من غير اللائق الإبقاء على ما كان يسمى بـ "الإمبراطورية" إن هذا يعد حلما، ولكن الأعلام لها شقين مختلفين لقد تغير العالم ويجب على فرنسا أيضا أن تتغير.

لقد كان "ديغول" صادقا في كلامه هذا، تغيرت على إثره السياسة الاستعمارية لفرنسا تغيرا واضحا وبدون إراقة الدماء أو العنف، تغير مباشرة مع وضع الجزائر، لأن "ديغول" يعرف أن المشاكل في الجزائر وفي إفريقيا السوداء لا يمكن أن تنفصل، وكان على حق عندما شعر أن الوقت أصبح قصير لتسوية مشاكل إفريقيا وكذلك تحقيق دفعة قوية لمستقبل الجزائر<sup>(26)</sup>.

جسد "ديغول" فلسفة أفكاره السابقة في دستور 5 أكتوبر 1958، الذي وضح فيه العلاقة الجديدة التي تربط فرنسا بأقاليم ما وراء البحار، وهي إلى حد ما تختلف بشكل جذري عن مرحلة القانون الإطار، تراعي التغيرات التي حدثت في الساحة الإفريقية، وتستجيب لمتطلبات الوضع الراهن الذي تتحكم فيه الثورة الجزائرية بشكل أساسي ومن أهم ما جاء فيه:

-تكوين إتحاد "فيدرالي" يضم فرنسا ومستعمراتها الإفريقية التي تقبل هذا الدستور تحت اسم "رابطة الجماعة الفرنسية" (Franco -african community)

- تتكون حكومة الجماعة من رئيس الجمهورية الفرنسية، ومندوب عن كل دولة، تتولى هذه الحكومة تصريف الشؤون الخارجية، والدفاع والنقد والشؤون الاقتصادية، والتعليم العالي، والنقل والمخابرات.

- المجلس التنفيذي: ويضم رؤساء الدول والحكومات الأعضاء في الجماعة وعدد من وزراء الحكومة الفرنسية.

- مجلس الجماعة (مجلس الشيوخ): يتكون من مندوبي برلمانات الحكومات الأعضاء، وقد صدر قرار رئيس الجماعة الفرنسية عام 1959، بتحديد عدد مقاعد المجلس بـ 284 مقعداً، نصيب فرنسا منها 176 ويتم توزيع الباقي على الحكومات الأعضاء بحد أدنى ثلاث مقاعد لكل دولة

- محكمة التحكيم: وتختص بفض المنازعات التي تنشأ بين الدول (27)

فبقراءة بسيطة لمواد هذا الدستور يمكن القول أنه كرس تفوق فرنسا من خلال تمتعها بسلطة القرار في الأجهزة السيادية للمجموعة (الدبلوماسية، الدفاع، النقد) وأجهزتها المحلية (المجلس التنفيذي، مجلس الشيوخ، والمجلس التحكيمي)، في حين يمنح صلاحيات قليلة لسلطة الأقاليم لا تتعدى الأمور الداخلية فهو بهذا الشكل لا يختلف عن سابقه، ولا يلي طموحات الشعوب الإفريقية، كما أن النظام الذي جاء به دستور 1958 بعيد كل البعد عن الفيدرالية، وقريب حسب بعض الباحثين في القانون الدستوري إلى "الفيدرالية الرئاسية" "أو الدولة الوحدية لا مركزية" (28)



وفقا لتقاليد الديمقراطية الفرنسية طرح الدستور للاستفتاء، منح فيه الجنرال ديغول للأقاليم الإفريقية إمكانيتين على شكل مأزق، الاستقلال الذي سماه الانفصال أو البقاء في المجموعة مع كل الامتيازات لإتحاد مثمر

حاولت جبهة التحرير القيام بحملة دعائية مضادة للاستفتاء، حيث أطلقت عن طريق جريدة المحاهد نداء إلى الأفارقة أكدت فيه أن المساهمة في هذا الاستفتاء معناه الاعتراف الضمني بالانتماء إلى عائلة واحدة في حين أن الواقع خلاف ذلك لأن كل إفريقي يصوت بمناسبة هذا الاستفتاء سيساعد على شد وثاق شعبه وبلده بأحبايل الاستعمار الفرنسي<sup>(29)</sup>

والجدير بالقول أن هذا النداء أطلق لشعوب إفريقيا من وراء الأحزاب السياسية والزعماء الأفارقة وهو نداء يدعو إلى التمرد والعصيان والمعارضة الجذرية للسياسة الاستعمارية تجاهل متعمدا -انطلاقا من قناعة ذاتية رأت جبهة التحرير نفسها مؤهلة لتوجيه هذا النداء- الأحزاب السياسية الوطنية الإفريقية، ولم يتحفظ في انتقاداته لاضطراب رجال السياسة المتواطئين مع الاستعمار وتصريحاتهم ودعواتهم بأن يصوتوا لصالح الدستور<sup>(30)</sup>

إن هذا النداء وجد صدى له على الساحة السياسية الإفريقية، فقد أثار الاستفتاء نقاشات حادة داخل الأحزاب السياسية الإفريقية، والمنظمات النقابية، وصل إلى حد حدوث انشقاقات داخل الأحزاب الاتحادية والإقليمية الإفريقية، ففي داخل حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي (R.D.A) تزعم "هفوات بوانيية" ( phouet boigny ) الراي القائل بقبول الدستور، بينما رفض "سيكوتوري" (skou touré) الدستور ما لم يتم تعديله قبل الاستفتاء لينص صراحة على التنظيم الفيدرالي في إفريقيا، ويتم على أساسه الاستقلال أو الارتباط

مع فرنسا، وفي حزب التجمع الإفريقي (P.R.A) طالب سنغور (Senghor) بقبول الدستور ثم إتمام إجراءات الوحدة الفيدرالية، وانشق عنه السكرتير العام للحزب ديوبكاراي (Djibo Bakary) معارضا الفكرة، وفي النيجر تزعم حزب سوابا (swaba) الرأي القائل بالتنظيم الفيدرالي يكون متحدا على قدم المساواة مع الجمهورية الفرنسية، وفي المجال النقابي عملت النقابتين: الإتحاد العام لعمال إفريقيا (U.G.T.A.N) وإتحاد طلاب إفريقيا (F.E.A.N.F) على دفع الأفارقة نحو معارضة الاستفتاء<sup>(31)</sup>

وفي النهاية تم قبول الدستور بأغلبية 95% مع وجود تفاوت بين الدول الإفريقية<sup>(32)</sup> وهي نتيجة متوقعة نظرا لمجموعة عوامل نجملها فيما يلي:

- تحالف الزعماء الأفارقة مع الإدارة الفرنسية

- نظرة بعض الأفارقة إلى هذا الدستور على أنه أمل نحو الاستقلال أو الحكم الفيدرالي خاصة وأن المادتين 73 و83 من الدستور تنص صراحة على إمكانية انتقال الاختصاص المشترك إلى دولة عضو في المجموعة وتسمح بالتغيير الشامل لقانون الدولة بناء على طلب من مجلسها التشريعي بشرط أن يتأيد هذا القرار باستفتاء محلي يجري تحت إشراف منظمات الجماعة<sup>(33)</sup> ولعل هذا ما ذهب إليه سنغور عندما سئل عن أسباب اختياره للمجموعة يقوله " لو نعطي للدستور تفسير حكي ستبقي في المجموعة لأنه أي الدستور ينص على إمكانية انتقال الاختصاصات المرتبطة بالمجموعة إلى الدولة مما يعني أن الدولة تستطيع التمتع باستقلال تدريجي.... حتى تصل في النهاية إلى استقلال حقيقي"<sup>(34)</sup>

إلا أن تطور الأحداث أثبتت هشاشة نظام الجماعة وفشله خاصة بعد التصويت السلمي لغينيا التي حصلت حينئذ على الاستقلال، وتمكنت رغم

حادثة استقلالها من تجاوز مصاعب الفترة الانتقالية، بفضل المساعدات الفنية والاقتصادية التي قدمها الاتحاد السوفيتي والمقدرة بـ 140 مليون روبل واحتضان غانا لها بإبرام اتفاقية الاتحاد معها في 23 نوفمبر 1958<sup>(35)</sup>

بطبيعة الحال إن هذا التصرف من غينيا سيدخل اختلالا كبيرا على النظام الاستعماري في إفريقيا السوداء، بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي التي لها حدود مشتركة مع السودان والسنغال وساحل العاج، وتحولت مع مرور الوقت إلى نقطة استقطاب لحركات التحرر الإفريقية بعد غانا

تماشيا مع سياسة التأثير على المستعمرات الفرنسية في إفريقيا استساغت جبهة التحرير الوطني المبادرة الغنية وروجت لها على أنها المثل أو النموذج الذي يجب أن يقتدي به حيث كتب جريدة المجاهد مقالا مطولا بعنوان "تحية لغينيا" مما جاء فيه "إن جمهورية غينيا حية كل الحياة، وارتقاؤها إلى الاستقلال يعتبر منحى هام نحو وحدة واستقلال إفريقيا..... لتبرهن على أنها تستطيع الحياة من دون فرنسا وغيرها من شعوب إفريقيا المخدوعة اليوم من قبل قادتها فستطلب الاستقلال، وتحصل عليه. ومنذ الآن نجد في كل الأراضي المسماة "فرنسية" أصوات ترتفع لتقدم تحية للشعب الغيني" (36)

بالإضافة إلى الانشقاق الغيني وآثاره على دول المجموعة فإن خطة ديغول الخاصة بخلق محور فرانكفوني يكون حليف الاستعمار في إفريقيا، لم تلبث أن اهتزت إذ ظهر الخلاف بين دول المجموعة نفسها بين أنصار الفيدرالية والاتحاد الفرنسي، وهو ما أدى إلى تحول عام اتجه تدريجيا نحو المطالبة بالاستقلال، فقد أسس "سنغور" في 8 جانفي 1958 اتحاد "داكار" الذي حكم كل من السنغال والسودان الفرنسي (المالي) وفولتا العليا والداهومي على شكل فيدرالية إفريقية

ضمن الفيدرالية الفرنكو -إفريقية وفي اتجاه معاكس نشط معارضي الفيدرالية بقيادة" هفوات بوانيه" في السر وتمكنوا بمساعدة فرنسا من إقناع كل من فولتا العليا والداهومي على الانسحاب من الاتحاد السابق، وقاموا بتشكيل تنظيم جديد عرف ب"مجلس الوفاق أو "اتحاد ساحل بنين" الذي ضم كل من ساحل العاج بنين والنيجر. واقتصر اتحاد "داكار" على السنغال والسودان الفرنسي واعترف به ديغول في خطابه الذي ألقاه بمدينة "داكار" في 13 ديسمبر 1959 وواعد هاتين الدولتين بالاستقلال الكامل<sup>(37)</sup>

ان هذا الإخفاق دفع ديغول إلى إدخال تعديلات على الدستور بالشكل الذي يستجيب لمطالب الاستقلالية الوطنية الإفريقية الراهنة، وصدر هذا التعديل في 14 جوان 1960 ومس المادة 86 من الدستور لتنص على:....يجوز أيضا للدولة العضو في الجماعة أن تصبح مستقلة بطريق الاتفاق، دون أن يترتب على هذا الاستقلال توقف انتمائها إلى الجماعة" "وللدولة المستقلة التي ليست عضو في الجماعة أن تنضم إليها بطريق الاتفاق دون أن تفقد بذلك استقلالها"<sup>(38)</sup>

وطبقا لهذا التعديل يمكن القول من الناحية النظرية بأن الجماعة الفرنسية قد تحولت إلى اتحاد "كفدرالي" يتمتع أعضاؤه بالسيادة الداخلية والخارجية ولها الشخصية الدستورية والدولية معا، من حيث قدرتها على توقيع اتفاقات منحها السيادة الدولية، وتليها في معظم الحالات اتفاقات تعاونية لتنسيق العلاقات الاقتصادية والثقافية وغيرها من العلاقات الأخرى مع فرنسا، كما أعطت هذه الاتفاقات لدول الجماعة الحق في إنشاء بعثات دبلوماسية في الدول الأجنبية، والحصول على مقعد في الأمم المتحدة واتحاد نظام جمركي خاص وغير ذلك من الحقوق المترتبة على حق السيادة، ولكنها رغم ذلك احتفظت بالكثير من الوضع القائم (statu quo) وهو إشراف فرنسا على التعليم العالي وحرية الاتجار معها

و السير على نهج السياسة الخارجية الفرنسية، والاشتراك معها في نظامها النقدي وفي عضوية لجنة الدفاع المشترك، وفي نظام مواصلاتها البحرية والجوية، كما ظلت هذه الدول تتلقى المعونة الاقتصادية من فرنسا<sup>(39)</sup>.

على العموم بموجب صدور هذا التعديل اعترفت فرنسا باستقلال اثني عشر بلدا في غرب إفريقيا ووسطها، بعد الاعتراف باستقلال موريتانيا في نفس العام، ومن ضمن هذه الدول: مالي، السنغال، فولتا العليا، ساحل العاج، الداومي، إفريقيا الوسطى، تشاد، النيجر، الغابون، الكونغو برازافيل، الكامرون<sup>(40)</sup>

أكدت جبهة التحرير أن هذا الانتقال السريع نحو الاستقلال إنما تم بفصل الكفاح الذي يخوضه الشعب الجزائري، فقد نشرت جريدة المجاهد بهذه المناسبة مقال بعنوان "تصدع المجموعة تعرضت فيه إلى الأثر الذي أحدثته الثورة الجزائرية في دول المجموعة الفرنسية التي اضطرت بعضها تحت ضغط شعوبها إلى إعلان تأييدها ومساندتها للثورة رغم ما يمثله ذلك من تعارض مع مصالحها وعلاقاتها بفرنسا"<sup>(41)</sup>

في رأينا إن صدور هذا المقال في هذا التوقيت بالذات كان هدفة إشعار الدول الإفريقية المستقلة حديثا، أنها مدينة أخلاقيا لحركات التحرر الإفريقية وفي مقدمتها جبهة التحرير، وبالتالي هي دعوة لتحمل المسؤولية ورد الجميل للدول التي مازالت في معركة التحرير بتشكيل جبهة معادية للاستعمار في إفريقيا.

أرادت الثورة الجزائرية من خلال هذا الاندفاع الدبلوماسي الراض للسيااسة الفرنسية في إفريقيا التأكيد على أن تجربتها الاستعمارية، وهويتها الإفريقية تحتمان عليها تنوير الشعوب الإفريقية بخطورة الاستعمار الفرنسي، وتأثيراته السلبية على واقع القارة الاقتصادية والإنساني أنيا ومستقبليا، وترقية

القارة يمر أولا على إنهاء تواجد فرنسا في إفريقيا، ثم بناء وحدة قومية تستغل الإمكانيات المتاحة لتحقيق التقدم والازدهار لإفريقيا وإنسانها. تلك هي قومية جبهة التحرير الإفريقية (panafricanisme du FLN)، وهي بدون شك تختلف عن بانا افريكانيزم التي طرحها هنري سلفستر وليامس، و مركوس جارفي وجورج بادامور، و دييوا، وتتعارض مع الطرح الاستعماري العنصري الذي يفصل شمال القارة الإفريقية عن جنوبها، يتحسد هذا الطرح الثوري لجبهة التحرير بداية من مؤتمر أكرّا 1958 ويصبح كمبدأ أساسي من مبادئ دبلوماسية الجزائر بعد الاستقلال(42).

### الخاتمة

إن الأهمية الجيو سياسية للجزائر وطرح الثورة لمفهوم نضالي تدمي يتجاوز حدودها الإقليمية ليدخل القارية والعالمية، بوجود التضامن بين الأفارقة لإنهاء الظاهرة الاستعمارية وتحقيق الوحدة بين الشعوب الإفريقية، للنهوض بواقع القارة التنموي، حتم على منظرو السياسة الفرنسية إدخال إصلاحات على منظومة سياستهم الإفريقية، لتفادي تكرار النموذج الجزائري في المستعمرات الفرنسية في إفريقيا، انتهت بمنح الاستقلال السياسي للدول الإفريقية في عام 1960 وهذا في نظرنا يهدف إلى:

\* حرمان الثورة الجزائرية من عمقها الإفريقي

\* التصدي للنظرية التهديمية التي تبنتها الثورة في إفريقيا

\* إدراك الاستعمار الفرنسي أن استقلال إفريقيا في ظل بقاء الجزائر مستعمرة لا

يغير في واقع إفريقيا في شيء

## الهوامش

- 1- روي مكريديس وآخرون: مناهج السياسة الخارجية في دول العالم ترجمة عفيف الناصر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، الأردن، 1961، ص. 220
- 2- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل: دراسات في غرب إفريقيا الحديث والمعاصر، دار النشر، القاهرة، 1988، ص. 82
- 3- فرحات جمال: السياسة الأمريكية في الجزائر، دار الريحانة للكتاب، الجزائر، 2006، ص. 56
- 4- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل: مرجع سابق، ص. 79
- 5-Mortimer(e) ;. France and the Africans, 1944-1960, Apolitical history, London, 1969, pp.51-57
- 6- فيج-جي-دي: تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعارف، مصر، 1982، ص-ص. 391-388
- 7- عبد المالك عودة: السياسة والحكم في إفريقيا، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1969، ص. 184
- 8- فرانتز فانون: من اجل إفريقيا، ترجمة محمد المليي، الشركة الوطني للنشر والتوزيع الجزائر، بسط، ص. 152
- 9- حسن رويح: "مكانة الثورة الجزائرية في إفريقيا"، جريدة الشعب، الجزائر، 1979، ص. 6
- 10-Chikh Slimane ;L Alegeie porte de L Afrique, Edition Gasba,Algerie, 1999,p114
- 11-le monde du 8/5/1956
- 12-حسن رويح: مرجع سابق، ص. 6
- 13- عبد المالك عودة: مرجع ، سابق، ص، ص. 173-172
- 14-Leo.Hamon ;” Introduction a L étude des partis politiques de l Afrique noire, revue juridique

et politique d autre –mer ,paris,avril-juin,  
1959,p.165

15-عبد المالك عودة:مرجع سابق،ص،ص.182-183

16-Chikh Slimane ;” L Algérie et L Afrique 1954-  
1962”,revue algérienne des sciences juridiques et  
économiques et politiques,N° 3,sep  
1968,Algerie,p.707

17-Ibid ,pp.707-708

18-”contre la balkanisation de l Afrique noire

”,EL-Moujahid ,N° 22,16/4/1958

19- Francois Borela ;” la fédéralisme dans la  
constitution française du 5 octobre 1958”, annaire  
français du droit internationale ,N°8, paris,8-15  
janvier 1959,p.663 <http://www.persee.com>

20- جوزيف-كي-زيريو: تاريخ افريقيا السوداء، القسم الثاني، ترجمة يوسف  
سلب الشام، سورية، 1994، ص،ص.-912911

21- Francois Borela ; po-cit,663

22-عبد الله شريط:الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية،ج2، منشورات وزارة  
المجاهدين،الجزائر ص،ص.201-202

23- " دروس من كوتونو"،المجاهدعدد22،28/8/1958

\*هو رمز حزب التجمع الديمقراطي

24-محمد الصالح الصديق: القاهرة الاستعمار،دار هومة،  
الجزائر،2011،ص.212

25- Chikh Slimane ;L Alegeie porte de L  
Afrique,op-cit,p.117



26 -اسماعيل حلمي محروس: تاريخ افريقيا الحديث مؤسسة شباب الجامعة  
مصر، 2004، ص، ص. 225-226

27- Lusgnon (e);Franch-speaking Africa since  
independence, Pall mall press, london, 1969, p.84

28-Rene Lacharriere ;”L’évolution de la  
communauté franco-africaine , annaire français du  
droit internationale V6 , paris , 1960 p.13

<http://www.persee.com>

29- فرانتر فانون: مرجع سابق، ص. 136.

30- Chikh Slimane ;” L Algérie et L Afrique, op-  
cit, p.710

31- Mortimer(e) ; Op-cit, p.295

32- كانت نتائج الاستفتاء على النحو التالي: غينيا 95% لا، النيجر 78%  
نعم، كودي فوار 99% نعم، السنغال 97% نعم...انظر

Xavier Yocono ; Les étapes de la décolonisation  
française , presses universitaires de la France , paris,  
1970, p.119

33- Chikh Slimane ;L Algérie porte de L  
Afrique, op-cit, p.119

34-Henri Grimal ; la décolonisation de 1919 a nos  
gours, Editions complexe, Belgique, 1984, p.305

35- Guitard Odette ; Bandung et réveil des peuples  
colonisés, P. U. F, paris, 1969, p.105

36- تحية لغينيا، المجاهد، عدد 10، 1958/10/30،

37- بطرس بطرس غالي: العلاقات الدولية في إطار منظمة الوحدة الإفريقية،  
مكتبة الانجلو المصرية مصر، 1978، ص، ص. 12-14

38- Rene Lacharriere ;op-cit,pp.21-22

39- محمد حسنين:الاستعمار الفرنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب ،  
الجزائر،1986،ص.483

40- يحي بوعزيز: َمكانة الثورة الجزائرية بين الثورات العالمية،ودورها في تحرير  
افريقيا"، الملتقى الدولي الجزائري حول الثورة وصداها في العالم، المركز الوطني  
للدراستات التاريخية، الجزائر،1984،ص.97

41- "الجزائر تصدع هيكل المجموعة"، المجاهد،عدد 9،1960/9/77،

42-Guy Pervile ;le panafricanisme du FLN  
algérien, colloque intitulé l Afrique noire heure des  
indépendances ,Aix-en-Provence ,Marseille  
,paris,26-29/4/1990,pp514-517

## المقريزي خلدوني يكتب عن الخطط والملوك

د . يسري عبد الغني عبد الله

باحث وخبير في التراث الثقافي

## ملخص المقالة

ما زلنا في حاجة ماسة لتفعيل البحث المقارن في عصور التاريخ ، لأنه ميدان يساعدنا على استجلاء الأسس العامة في الحضارة الإنسانية ، والقرن الخامس عشر الميلادي الموافق التاسع الهجري تقريباً ، من أهم العصور بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحوال الدول والجماعات بالشرق والغرب .

إن قصة المؤرخين في مصر خلال القرن المشار إليه لا يمكن أن تتم إلا بذكر العلامة / ابن خلدون والإشارة إلى فضله الكبير ، وإلى تلاميذه الذين نهلوا من منهجه وعلمه ، وقد أخذنا أول تلاميذه ، ونعني به المؤرخ المصري / أحمد بن علي المقريزي ، حاولنا أن نعرف به ، ونلقي الضوء الكاشف على رحلة حياته ، وأهم مؤلفاته التاريخية ، وأسلوبه في التأليف ، وأخلاقياته ، ورأي معاصريه فيه ، ذلك بالإضافة إلى الوقوف على تأثره بفكر ابن خلدون فيما كتبه من آراء وأفكار وتحليلات ورؤى تاريخية ، فلعلنا نكون قد وفقنا إلى ذلك .

**Article Summary**

We are still in dire need to activate comparative research in periods of history, because the field will help us to elucidate general principles in human civilization, and the Horn of the fifth century AD, corresponding to almost the ninth AH, of the most important times because of what appeared to be its guiding elements and events marking the change conditions of countries and groups in the Middle and West. The story of historians in Egypt during the mentioned century can only be done by mentioning the brand / Ibn

Khaldun and the reference to the great virtues, and to his disciples who are energized by his approach and his knowledge, have taken the first disciples, and we mean of Egyptian / Ahmed Bin Ali Maqrizi, we tried to know it, and take a light detector on the journey of his life, and the most important historical writings, and his style of writing, and ethics, and the opinion of his contemporaries in which, in addition to stand on influenced by the ideas of Ibn Khaldun in his books of opinions and ideas and analyzes and visions of a historic, Let us we have been successful at it.

### نص المقالة

ربما دل البحث المقارن في عصور التاريخ ، وهو ميدان يجب علينا الاهتمام به لاستحلاء الأسس العامة في الحضارة الإنسانية ، على أن القرن الخامس عشر الميلادي ، أي القرن التاسع الهجري تقريبًا ، أهم العصور التاريخية عند الإطلاق ، وذلك بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحوال الدول ، والجماعات والأفراد ، بالغرب والشرق على حد سواء .

ودليلنا على ذلك أي على صحة هذا الفرض التاريخي أن الأوربيين مضوا جاهدين أن يصلوا مباشرة إلى بلاد الهند وتجارها طوال هذا القرن ، حتى إذا وصل البرتغاليون منهم إلى الشواطئ الهندية صار مصير الشرق كله في كفة المقادير العاجلة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد البعيد ، بل عثر الأوربيون . حوالي ذلك الوقت . على أرض أخرى حسبوها الناحية الغربية من بلاد الهند ، وسموا أهلها الهنود الحمر ، ثم استقروا على تسمية تلك الأرض وسكانها بأمريكا والأمريكيين<sup>1</sup> . وولوا وجوههم شطرها ، وشطر الهند الحقيقية في عنف لا هوادة فيه ونهم شديد ، مما يرجع كله في الأصل إلى القرن الخامس عشر الميلادي وحوادثه .

وللمؤرخين في مصر في ذلك القرن ظاهرة توجب على الباحث أن يلتفت إليها ، وهي في الواقع برهان على بدء العالم الإسلامي في شيء من

اليقظة أو الإفاقة لفهم كيانه ، ولعل أكبر دليل على ذلك تاريخ عبد الرحمن بن خلدون ، والمسمى كتاب : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ولا سيما الجزء الأول منه ، وهو الجزء المعروف باسم المقدمة ، إذ يرى القارئ بصفتها الافتتاحية تعريفاً أخذاً للتاريخ بأنه : " في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى ... ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"<sup>2</sup>

والواقع أن ابن خلدون يشير إلى العلل والكيفيات والأسباب والنتائج ، بتلك الصفحات الافتتاحية إشارات كثيرة ، مما يدل على فقهه التام للتاريخ بالمعنى الحديث الذي ندرسه في زماننا هذا ، كما أنه يشير إلى ما يجب أن يتدرج به المشتغل بالتاريخ من المؤهلات ، وذلك حين يقول : إن المؤرخ الصالح محتاج إلى مأخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على تحري النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها الشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فرما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ...<sup>3</sup>

لقد كتب ابن خلدون تاريخه بعد تنقل في البلاد العربية والإسلامية بالأندلس والمغرب ، وعاش في بلاط سلاطينها المسلمين ، وتقلد في خدمة دواوينهم ، وأواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، كما عمل سفيراً لأحد أولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة الأندلسية ، عند الملك (بيترو) صاحب قشتالة المسيحية ، وبذا شهد بنفسه أحوال العديد من الدول عن قرب ، ولمس بيده عوامل التدهور والانحطاط الناشئة أظفارها بين المسلمين والمسلمين ، مما جعل لكتابه على وجه التعميم ، والمقدمة على وجه التخصيص قيمة تاريخية فريدة .

ابن خلدون وفد إلى مصر سنة 1382 م ، وكان قد انتهى من كتابة أو تأليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين ، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة ، وحج أكثر من مرة إلى بيت الله الحرام ، وألقى محاضرات في رحاب

الجامع الأزهر الشريف ، والمدرسة القمحية وموضعها قرب جامع عمرو بن العاص جنوب القاهرة الآن ، بل تولى منصب قاضي قضاة المالكية بمصر ، كما رافق الحملة المملوكية التي قادها السلطان فرج إلى بلاد الشام سنة 1401 م ، لدفع تيمورلانك عن دمشق السورية ، وشارك في وفد المفاوضات للصلح بين الدولتين المملوكية والمغولية .

إن منبع الأهمية في هذه التفاصيل التي ذكرتها لك والخاصة بحياة ابن خلدون ، فهو أنها تنبئ بأصناف التجارب التي تمرس بها الرجل وأودع منها في كتابه ، كما أنها تدل على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين في مصر وبلاد الشام وغيرهما من البلاد ، بل تدل المراجع التي بين أيدينا على أن اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها بالذات أدت إلى تكوين مدرسة حوله من المعجبين والمتلمذيين على طريقتة ، كما أدت إلى قيام فئة من الكارهين له والغامطين لمقامه ، والمنددين بمقدرته .

ونؤكد هنا على أن إذ لم يتسع البحث في هذه السطور لأكثر من هذه الإشارة العابرة ، فإن في أخبار تلاميذه والتابعين له بإحسان وغير إحسان ، أكبر دليل على أن قصة المؤرخين في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي لا تتم إلا بذكر ابن خلدون والإشارة إلى فضله ، ولو لم يتسع الأمر لشيء سوى كلمات معدودة .

ونحب أن نضيف هنا إلى أن العلامة / ابن خلدون جبل أشم في أفكاره وآرائه وتحليلاته وتخرجاته المستشرفة للمستقبل ، وعليه فلن تنال منه تلك الترهات الزاعمة إفكًا وبهتانًا بأنه أخذ أفكاره من فلان أو علان ، لأن الأدلة التاريخية ثابتة وواضحة ومؤكدة على أصالة الفكر الخلدوني الذي علم البشرية وبالذات كل من له علاقة بالعلوم الإنسانية ، وبمعنى آخر سيظل هذا الفكر منارة مضيئة مهما مرت الأيام والسنون .

أما أول أولئك التلاميذ فهو أحمد بن علي المقرئ<sup>4</sup> ( أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني ) ، الذي ولد بالقاهرة سنة 1364 م ، بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالي ، والمقصود بالحارة هنا : الفندق أو الخان أو

الوكالة على قول المصطلح المصري في العصور الوسيطة ، أو العمارة الكبيرة على حد التعبير الحديث ، وحسب علم الباحث فلا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم سائدًا ببلاد الشام .

جاءت أسرة المقريزي إلى القاهرة من مدينة بعلبك اللبنانية إلى القاهرة في حياة أبيه علي المقريزي ، وأصل نسبتها يرجع إلى حارة المقارزة بتلك المدينة اللبنانية القديمة ، ولا يسع الباحث هنا (ووفقًا لاطلاعه) أن يشير إلى الشبه الملحوظ بين هذه التسمية ولفظ مقريزي ، وهي جهة بإيطاليا قرب عاصمتها روما .

ولم يستطع الباحث أن يجد تعريفًا لهذه الجهة بمختلف المراجع الجغرافية والموسوعات والمصادر التي عاد إليها ، ما عدا أطلس (التايمز) حيث ورد بفهرسه ما نصه : أن مقريزي بجوار أو بجانب روما ، وربما كان من لطيف الاتفاق أن لفظ (مقريسي) في الفرنسية هو شديد الشبه بلفظ المقريزي ، وهو اسم لمجموعة من النبات .

و عليه فإنه من المحتمل أن تلك الحارة البعلبكية اللبنانية كانت سكنًا لجالية من الجاليات الإيطالية التي وفدت للتجارة ببلاد الشرق العربي زمن الحروب الصليبية ، وأن أسرة مؤرخنا المقريزي اكتسبت هذه التسمية لحلولها أو سكنها بتلك الحارة بعد خلوها من سكانها الأصليين ، وقد اجتهد الباحث قدر طاقته كي يعرف ما إذا كانت هذه الحارة مازالت موجودة حتى الآن في بعلبك اللبنانية أو مكانها بالتحديد ، ولكنه لم يستطع أن يتلقى إجابة شافية بشأن موضعها في بعلبك الآن .

أعود لأقول : مهما يكن الأمر فالمعروف المقطوع به أن أحمد بن علي المقريزي نشأ نشأة قاهرية ، بناحية من أعظم نواحي القاهرة امتلاءً بالعمران والصخب وضوء الحياة اليومية<sup>5</sup> ، وأن جده لأمه ، واسمه ابن الصايغ الحنفي ، هو الذي كفل تعليمه ، لضيق حال أبيه فيما يبدو قبل أن يصبح من أصحاب الأملاك والعقارات<sup>6</sup> ، ولذا أخذ جده بتنشئته على أصول المذهب الحنفي ، وانكب هو على الدرس والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره ، وأظهر نجابة

ومقدرة ، ثم توفي ابن الصايغ سنة 1384 م ، فترك المقرئ مذهب الأحناف ، وانتقل إلى الشافعية ، ودرس الفقه دراسة واسعة ، ثم أخذ في مهاجمة الحنفية في عنف غير مفهوم ، مما استوجب لوم معاصريه له .

التحق مؤرخنا بالخدمة الحكومية ، فكان أول عهده بها موظفًا في ديوان الإنشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل موقعًا (أي كاتبًا) ، حتى سنة 1368 م ، وقد ذكر المقرئ أنه ظل في وظيفة الموقع بديوان الإنشاء حتى تلك السنة<sup>7</sup> ، ثم أصبح بعد ذلك نائبًا من نواب الحكم (أي قاضيًا) عند قاضي القضاة الشافعية ، فإمامًا لجامع الحاكم بأمر الله ، ومدرسًا للحديث بالمدرسة المؤيدية .

وفي سنة 1398 م ، اختاره السلطان برقوق ، وكان حفيًا به مشجعًا إياه ، لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين دون أن يذكر لنا أسباب ذلك ، وفي تلك الأثناء تزوج المقرئ وأنجب ، والمعروف أن بنتًا له ماتت بمرض الطاعون الذي اجتاح القاهرة المملوكية وسائر البلاد المصرية سنة 1403 م .

وفي سنة 1408 م يصدر القرار بنقل المقرئ إلى دمشق السورية ، ليتولى الإشراف على أوقاف القلانيسية والمارستان النوري ، وليقوم بتدريس علم الحديث في المدرستين الأشرافية والإقبالية بدمشق ، ثم ما لبث أن عينه السلطان فرج بن برقوق في منصب نائب الحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المشرفون على أوقافها قضاة بما .

ولكن المقرئ رفض قبول هذا الشرف ، على الرغم من أن صاحب القرار هو السلطان ، ويظهر أن مؤرخنا قد سئم الوظائف الحكومية وهمومها ومتاعبها ، يضاف إلى ذلك أنه أصبح في مجبوحة من العيش تمكنه من اعتزال الوظائف ، ولا ننسى أنه ملك ما أغناه عن إضاعة الوقت في كسب العيش ، عن طريق الحكومة والحكام .

ترك المقرئ دمشق السورية وأعماله الحكومية بعد إقامته فيها عشر سنوات تقريبًا ، وعاد إلى القاهرة خاليًا من عمل أو وظيفة ، ليتفرغ للدرس والعلم ، ولا سيما علمه المفضل التأريخ .



وفي سنة 1430 م يرحل المقرئزي وأسرته إلى مكة المكرمة ، كي يؤدي فريضة الحج ، ومكة ليست بغريبة عليه ، فقد جاور فيها إبان طلبه العلم ، بيد أنه ظل مقيمًا بها تلك المرة الثانية حتى سنة 1435 م (خمس سنوات) ، واشتغل بمكة في تلك الأثناء بتدريس علم الحديث ، وبالتأليف في علم التاريخ . ويعود المقرئزي إلى القاهرة ، ليمضي بقية حياته بحارة برجوان ، التي ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويظهر لنا أنه جعل من منزله مكانًا لاستقبال تلاميذه ومريديه ، وصومعة يؤلف فيها الكثير في مختلف علوم عصره .<sup>8</sup>

بدأ النشاط العلمي للمقرئزي بعمل ضخم ألا وهو تاريخ القاهرة ، والذي نعرفه بـ (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، وهو كتاب عني فيه المقرئزي بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى وقتنا الحالي ، وكان تأليفه إياه بين عامي 1417 م و 1436 م (19 عامًا) .

على أنه يظهر أن رحلنا اعتمد ، إلى حد كبير ، في تأليف هذا الكتاب الزاخر ، والذي يعد بحق فخر مؤلفاته ، على كتاب صنفه قبله المؤرخ / الأوحدي ، فنقل منه دون أن يشير إليه ، أو يعترف بأخذه منه ، لذلك رماه السخاوي المؤرخ المشاكس بقوله : كتاب الخطط مفيد لكونه (أي المقرئزي) ظفر بمسودة الأوحدي فأخذها وزادها زوائد غير طائفة .<sup>9</sup>

كما يذكر السخاوي أن الأوحدي كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها ، فبيضه التقي المقرئزي ، ونسبها لنفسه مع زيادات .<sup>10</sup>

والمقرئزي نفسه اعترف بانتفاعه بتلك المسودات .<sup>11</sup> ولم يستطع علماء التاريخ من أهل الاستشراق والذين تخصصوا في مؤرخي القرن التاسع الهجري ، لم يستطع أحدهم أن يدلي برأي حاسم في هذه المسألة ، بل قال بصدها المؤرخ / كاترماين الفرنسي في كتابه الموسوعي (المماليك) : إنه من الفطنة والصواب أن نسكت عن هذه القضية ، وأن نحذر الحكم فيها برأي قاطع .<sup>12</sup>

على أنه مما يسترعي النظر أن المقريري نفسه لم يدفع هذه التهمة برأى قاطع ، ولم يستطع أن يدلي في سياق الرد عليه بأكثر من قوله : حسب العالم أن يعلم ما قيل ، ويقف عليه <sup>13</sup> وقد أقر المقريري باتصاله بالمؤرخ الأوحدي ، نضيف إلى ذلك أنه توجد بكتاب المواعظ والاعتبار شواهد داخلية تؤدي بالباحث إلى كثير من الشك على الأقل ، ومنها خلو بعض كتب المقريري المتأخرة من عبارات واردة بكتاب الخطط ، مثل إدلائه في نسب الأكراد برأى مهم ، وعدم تكراره لهذا الرأي على أهميته في كتابه (السلوك في معرفة دول الملوك) .

ومن الأمور الداعية للشك أيضًا : ما جاء بكتاب المواعظ والاعتبار بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد ما نصه : " وآخر من أدركنا في الشيخة / فاطمة بنت عباس البغدادية <sup>14</sup> ، توفيت في ذي الحجة سنة 714 هـ " ، وقد ورد اسم هذه السيدة الفاضلة / فاطمة بنت عياش ، في الجزء الثالث من كتاب (الدرر الكامنة) ، لابن حجر العسقلاني ، وهذا التاريخ إن صح المتن وصحت سنة الوفاة يقع قبل مولد المقريري والأوحدي كذلك بأكثر من خمسين سنة !! .

وقد نقلت لك هذه العبارة من الطبعة الكاملة المعدودة أحسن الطبعتين المعروفتين لكتاب (المواعظ والاعتبار) ، على كل حال فالأمر في حاجة إلى تدقيق وتمحيص بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض .

ومهما يكن من شيء فالمقريري صدر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة ، وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيلة بوصف دقيق ، مبتدئًا بمدينة الإسكندرية ، وعني عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة ، فجاء الجزء الثاني من الكتاب ، وهو نصف الكتاب ، ثبتًا مليئًا بأحوال القاهرة وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة في العصور الوسطى ، فشرح ما تحتويه القاهرة من الخطط وما يقع بها من الآثار ، فوصف الحارات والدروب والدور والحمامات والقيساريات ، والأسواق والأحكار والمناظر والقناطر والبرك والميادين

و القلعة و ما بها من منشآت ، والجوامع والمساجد ، والمعابد ، والمقابر ، وأرباب المذاهب الدينية المختلفة .

وحرص المقرئ على أن يسند في وصفه إلى ما يرتبط به كل أثر من أساس تاريخي ، فاحتوى كل فصل على ما يلائمه ويشاكله من الأخبار ، فصار بهذا الاعتبار قد جمع ما قد تفرق و تبدد من أخبار مصر ، ولم يتردد المقرئ في تكرار الخبر إذا احتاج إليه ، بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب .

وأول طبعة لهذا الكتاب ترجع إلى سنة 1270 هـ (مجلدان) عن مطبعة بولاق القاهرية ، ويجدر بالذكر أن الباحثة الفرنسي / جاستون فييت (1887 م . 1971 م) قام بنشر الكتاب نشرًا علميًا ، فأعاد طبع أجزاء منه في القاهرة عن مطبعة المعهد الفرنسي للأثار (1911 م . 1923 م) ، كما أعيد نشره بالقاهرة في أربعة أجزاء 1324 هـ و 1425 هـ .

وأذكر أنني قرأت لأستاذنا الدكتور / مصطفى زيادة أن المسيو / جاستون فييت قد وهب ثلثي عمره في إخراج خطط المقرئ ، وهذا الرجل يستحق منا مقالة مسهبة نأمل في إنجازها أو في من ينجزها .

ثم أتبع المقرئ كتابه الخطط بتأليف في تاريخ مدينة الفسطاط ، سماه : (عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ) ، وهو في الواقع تاريخ لمصر الإسلامية في عهد الولاة .

وأتمى المقرئ ذلك بكتاب في دولة الفاطميين بمصر ، واسمه : (اتعاظ الحنفا لأخبار الخلفاء) ، ونشره أستاذنا الدكتور / جمال الدين الشيال بالقاهرة في طبعة مزيدة عن طبعته الأوربية القديمة .<sup>15</sup>

حتى إذا فرغ المقرئ من كتابه عن الفاطميين فكر في تأليف كتاب يكون تاريخًا للأيوبيين والمماليك ، ليتم به سلسلة مؤلفاته في التاريخ المصري الوسيط ، من الفتح العربي إلى زمنه ، فكان كتاب (السلوك لمعرفة دولة الملوك) ، وهو الكتاب الذي عدا أساسًا رئيسيًا لكل التواريخ المصرية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية الأولى والثانية ، وهذا الكتاب . كما

أوضحنا . أتم به المقريري سلسلة مؤلفاته عن التاريخ المصري الوسيط ، وقد خرج الجزء الأول من السلوك (1934 م . 1939 م) والجزء الثاني (1941 م . 1958 م) ، وهما الجزءان الذي قام أستاذنا الدكتور / محمد مصطفى زيادة بتحقيقهما من أربعة أجزاء .

وقد افتتح المقريري كتاب السلوك بمقدمة طويلة في ذكر العصور السابقة لموضوع مؤلفه ، حتى زوال الدولة الفاطمية وتأسيس دولة بني أيوب بمصر ، ومن هنا كان البدء الحقيقي لكتابه السلوك ، فاستهله بشرح أصل صلاح الدين الأيوبي وقدموه إلى ارض مصر واستقرار الأمر له بها ، ثم بدأ فجأة من سنة 568 هـ / 1172 م ، يكتب على نظام الحوليات ، يورد حوادث كل سنة على ترتيب تاريخي تقريباً ، ثم يختتمها بالوفيات ، ويضيف إليها أحياناً ما قد يفوته من أخبار أحرى ، وانتهى في هــذـين الجـزئـين إلى سنة 755 هـ / 1360 م .

وعلى الرغم من استناد المقريري إلى ما كتبه المؤرخون السابقون عليه ، فإن ما أورده من حقائق وإشارات لم تحوها مطولات المعاصرين ، إذ أنه نقل وأفاد كثيراً منهم ، وزاد عليه أحياناً في مراجع أخرى اندثرت ، أو وثائق ديوانية لم يبق منها إلا ما حفظه المقريري في كتابه أو فلنقل في كتبه كلها ، والواضح أن المؤرخين الذين جاءوا بعد المقريري نقلوا عنه أو اقتبسوا من كتاباته ، دون الإشارة في كثير من الأحيان إلى المصدر أو المرجع ، وكان ذلك أمراً مألوفاً عند المؤرخين في العصور الوسيطة .

ويلاحظ أن المقريري كتب المؤلفات المتقدمة لتكون ذيلاً على كتاب : ( المواعظ والاعتبار ) ، وأنه قصد في كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدولة الإسلامية المصرية التي تناولها قبلاً في أول مؤلفاته ، ومن أجل ذلك شرع المقريري أيضاً في كتابة المؤلفات التي تهتم بالتراجم والسير ، وأوغل في مشروعين كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير أنه لم يتمهما لضخامة القياس أو التخطيط العلمي الذي بنى عليه كل منهما ، أما هذين المشروعين :

أولهما : كتاب ( المقفى الكبير ) ، وكان المقصود به أن يكون معجمًا لتراجم حكام مصر ورجالها منذ أقدم العصور إلى ما قبل عصره ، وقدر له أن يكون في ثمانين مجلد ، ولم يستطع أن ينجزها سوى ستة عشر فقط لا غير .<sup>16</sup> أما ثانيهما : كتاب ( درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ) ، فكان الغرض منه أن يكون معجمًا لتراجم معاصريه ، غير أن المقرئ تركه كذلك دون أن يفرغ من مراجعته .<sup>17</sup>

وصرف المقرئ كثيرًا من نشاطه الجهد في التاريخ الإسلامي العام ، فألف في السيرة النبوية ، وفي قبائل العرب التي نزلت مصر منذ الفتح الإسلامي لها ، وفي جغرافية حضرموت بجنوب شبه جزيرة العرب ، وفي الدويلات الإسلامية بالحبشة .

كما أسهم بنصيب وافر في التاريخ الاقتصادي ، والتاريخ الاجتماعي ، حين ألف في الموازين والمكاييل والمقاييس والنقود ، وفي تاريخ المجاعات والطواعين ، وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب ( النزاع والخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ) ، وكتاب ( إغاثة الأمة لكشف العمة ) ، إذ رجح المقرئ ، في الكتاب الأول من هذين الكتابين ، أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الأمويين والهاشميين إلى عصبية الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث المبررة والحروب المستمرة والشخصيات المتنافرة ، التي لم تعد كلها أن تكون أسبابًا طارئة في احتدام الخلاف ، مترسمًا في ذلك سبيل العلامة / عبد الرحمن بن خلدون وفلسفته في المقدمة .<sup>18</sup>

أما الكتاب الثاني من هذين الكتابين وهو : ( كشف الغمة ) فتناول فيه المقرئ تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة 1405 م (26 مجاعة تقريبًا ) ، وهي السنة التي ألف فيها ذلك الكتاب ، وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وغلاء ، يرجع إلى : سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد .<sup>19</sup>

وما سبق يعد تخریجًا اقتصاديًا سليمًا ، سبق به مؤرخنا / المقرئ عصره ، إلا أن الباحث لا يستطيع أن ينكر تأثر المقرئ بما كتبه العلامة / ابن خلدون

في مقدمته الشهيرة ، وبالذات في فصل الجباية وسبب قتلها وكثرتها ، وما يليه من  
الفصول المتفرعة على هذا المعنى .<sup>20</sup>

بل إن تأثير ابن خلدون على المقرئ في تأليف هذا الكتاب بالذات  
تعدى إلى طريقة العرض والأسلوب وفواتح الأبواب وخواتيمها ، فضلاً عن الفكرة  
العامية .<sup>21</sup>

ونؤكد هنا على أن ثمة صلة وصدقة عظيمة بين المقرئ وابن خلدون ،  
حيث أشار المقرئ إلى ابن خلدون إشارة التلميذ لأستاذه ، ولم يتحرج أن  
يستشهد بعبارة لاذعة له في وصف المصريين ، ونصها حسب ما ورد في الجزء  
الأول من كتاب : المواعظ والاعتبار ، قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن  
بن خلدون (رحمه الله تعالى) : أهل مصر كأنما فرغوا من يوم الحساب .

والحقيقة أن المقرئ تأثر بابن خلدون ومقدمته في هذين الكتابين  
وغيرهما من مؤلفاته تأثراً فاق حد الإعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها :  
لم يعمل مثالها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ،  
ونتيجة العقول السليمة والفهم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة  
الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ...

وما سبق يعد وصفاً دالاً في وضوح على دراسة المقرئ لمقدمة ابن  
خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره  
لقيمها العلمية بالقياس إلى غيرها مما عرفه خلال قراءته الدائبة التي يبدو أنها لم  
تنقطع إلا بوفاته سنة 1442 م .

إن المقرئ كما تدل كل الشواهد كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع  
، كثير الدأب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به ما خلفه من  
مؤلفات لم ير الضوء بعضها حتى الآن ، وإن نظرة واحدة إلى قائمة مؤلفاته  
لكفيلة بإيقاف أي باحث على إلمامه بالخطط والتاريخ والترجمة والأوزان والمقاييس  
، كما ذكرنا لك من قبل ، وهذا فضلاً عن معرفته بعلم الحشرات<sup>22</sup> والمعادن  
والطب والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث .

أقول لكم : إن أعظم اهتمام المقريري كان موجهًا نحو التاريخ ، لأنه كان محبًا له ، معنيًا بتحقيقه والتأليف فيه ، فعرف منه جزءًا كبيرًا معرفة تامة ، وحفظ منه كثيرًا عن ظهر قلب ، وأقر بذلك كله تلميذه الذي عرف معاصريه من المؤرخين ، وخليفته الذي اقتفى أثره ومنهجه في كتابة التاريخ ، وهو أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، حين قال في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ) : وفي الحملة هو أعظم من رأيناه في علم التاريخ وضره ، مع معرفتي بمن عاصره من علماء المؤرخين ، والفرق بينهم ظاهر ، وليس في التعصب فائدة

23 .

أما عن أخلاق المقريري الشخصية ، فالمعاصرون له أجمعوا على أنه عاش رجلًا فاضلاً دينًا ، مجددًا أمينًا في عمله ، حتى إن السخاوي (مؤرخنا المشاكس ) مع شدته في نقد كتاب (المواعظ والاعتبار ) ، يقول : إن المقريري كان على جانب عظيم من حُسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة في المذاكرة ، والمداومة على التهجد والأوراد ، وحُسن الصلاة ، ومزید الطمأنينة ، والملازمة لبيته ، وإنه حمدت سيرته في مباحثاته<sup>24</sup> ، أي في الوظائف التي تولاهما قبل أن ينصرف إلى حياة الدرس والتأليف .

وختامًا نحب أن نشير هنا إلى أن من المؤرخين الذين عاصروا المقريري أو بمعنى آخر الذين كانوا من أخلص الخلاء لمنهجه التاريخي : ابن حجر العسقلاني ، والعيني ، وابن عرب شاه ، و خليل بن شاهين ، وبهاء الدين الخالي ، وقد عرفنا بهم خلال كتابنا (مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ) ، أملين . إن كان في العمر بقية . أن نخصهم بتحليلات مستقلة ، لكي يتعرف عليهم القارئ المفضل .

### الهامش :

<sup>1</sup> - محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ( القرن التاسع الهجري ) ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، 1954 م ، ص 3 وما بعدها

- <sup>2</sup> - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مطبعة بولاق المصرية ، القاهرة ، 1 / 3
- <sup>3</sup> - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المرجع السابق ، 7 / 1
- <sup>4</sup> - يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1991 م ، ص 171 وما بعدها ، ولنفس المؤلف ، مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2000 م ، ص 75 وما بعدها
- <sup>5</sup> - المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مطبعة بولاق المصرية ، القاهرة ، 1270 هـ ، 2 / 96 . 95
- <sup>6</sup> - المقرئزي ، المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار ، المرجع السابق ، 2 / 105 ، 92
- <sup>7</sup> - المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المرجع السابق ، ص 225
- <sup>8</sup> - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشرة popper ، كاليفورنيا ، 1909 م - 1935 م ، 7 / 218
- <sup>9</sup> - السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك ، القاهرة ، 1 / 22
- <sup>10</sup> - السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، طبعة القاهرة ، 1 / 358 - 359
- <sup>11</sup> - السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، المرجع السابق ، 1 / 359
- <sup>12</sup> - Quatremere , Mamlouks , Paris , 1.P.x111
- <sup>13</sup> - المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مرجع سبق ذكره ، 1 / 12 و 2 / 256



14 - المقريري ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مرجع سابق ، 2 / 248 ، وكذلك : ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، القاهرة ، 3 / 226 .

15 - المقريري ، اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ، تحقيق / جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1949 م ، راجع مقدمة التحقيق

16 - قام الأستاذ / محمد البعلاوي ، بتحقيق هذا الجزء من كتاب : المقفى الكبير للمقريري ، وصدر عن دار الغرب الإسلامي ، 1411 هـ = 1991 م ، ولكنه لم يشر على غلاف الكتاب إلى أن هذا الكتاب لم يكمله المقريري ، وأن الموجود حوالي ستة عشر مجلدًا فقط ، وهذا يجعل القارئ معتقدًا أن الكتاب الذي أمامه كاملاً

17 - قام الأستاذان / عدنان درويش و محمد المصري بتحقيق هذا الجزء من كتاب : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة للمقريري ، و صدر عن وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية ، في جزئين ، وقد قاما المحققان بالتوضيح على غلاف الكتاب بأنه قطعة منه وليس كله ، فلهما الشكر والتقدير

18 - ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة دار الشعب المصرية ، القاهرة ، ص 107 وما بعدها

19 - المقريري ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشرة محمد مصطفى زيادة و جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ص 4

20 - ابن خلدون ، المقدمة ، مرجع سابق ، ص 233 وما بعدها

21 - المقريري ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، مرجع سابق ، ص د ، وأيضًا السخاوي ، الضوء اللامع ، مرجع سابق ، 4 / 144

22 - المقريري ، نحل عبر النحل ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1946 م ، مقدمة التحقيق

23 - أبو المحاسن بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مرجع سابق ، 7 / 279

<sup>24</sup> - السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مرجع سابق ، ص 22 ،

23 ، 24

معاهدتا الجزائر مع إسبانيا 1786 و 1791 ظروفهما وانعكاساتهما على

العلاقات بين البلدين

د. عبد القادر فكاير

جامعة الجيلالي بونعامة/ خميس مليانة

الملخص:

يتناول هذا البحث أحد صور العلاقات بين إيالة الجزائر وإسبانيا خلال الفترة الحديثة . ويتمثل ذلك قي المعاهدتين اللتين تم عقدهما بين البلدين الأولى خلال سنة 1786 و الثانية في سنة 1791 ، وقد اتصفت العلاقات بين البلدين بالتوتر والحروب ابتداء من سنة 1505، وهو تاريخ احتلال أول مدينة جزائرية من طرف الإسبان وهي المرسى الكبير. وقد تبع ذلك قيام الإسبان بسلسلة من المهجمات الإسبانية على العديد المدن الساحلية الجزائرية واحتلال البعض منها خلال القرن السادس عشر مثل وهران وبجاية ، وهنين وغيرها. وقد ترتب عن ذلك قيام البحارة الجزائريين بهجمات على بعض المناطق الساحلية الإسبانية وجزر الباليار، ما زاد من جعل منطقة الحوض الغربي تعرف عدم الأمن والاستقرار. وقد استمرت العلاقات غير السلمية بين البلدين ، خلال القرن السابع عشر رغم مرورهما بظروف داخلية صعبة ، وقد شهد القرن الثامن عشر في ربه الأخير تجدد الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر ، قصد إجبارها على التسليم ، وهذا يتمثل في حملة أوريللي سنة 1775، وحملي أونطونيو بارثيليو 1783 ، 1784، لكنها فشلت كلها في إخضاع الجزائر لسلطة الإسبان، ورغم ذلك فقد أبرم الطرفان المعاهدتان المذكورتان. وقد اختلفت ظروف عقد كل منهما ، فالأولى انعقدت بعد سنتين فقط من حملة بارثيلو الأخيرة (1784)، واقتناع إسبانيا بضرورة التحول إلى حالة السلم مع الجزائر ، ودخول البلدين في مفاوضات استمرت لمدة سنة كاملة . أما المعاهدة الثانية فجاءت إثر تحرير وهران من الوجود الإسباني والتي كانت محاصرة من طرف الجزائريين. وقد تحولت العلاقات بين الطرفين من حالة الحرب والتوتر إلى حالة السلم والتبادل التجاري، سأركز في هذه الدراسة على الظروف التي تم فيها انعقاد هذين المعاهدتين ، كما

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية  
مجلة دورية دولية محكمة  
أتناول بالتحليل محتوى كل منهما ، وانعكاساتهما على سير العلاقات بين البلدين  
إلى غاية تعرض الجزائر إلى الاحتلال الفرنسي، التي ظلت سلمية رغم ما كان  
يشوبها في بعض الأحيان من أحداث تثير التوتر لكنها لم ترتقي إلى حالة الحرب.

### **Abstract :**

This study focuses on one aspect of the relations between the Regency of Algiers and Spain during the modern period. It is valuable to the Treaties on which entered into a between the two countries in the years 1786 and 1791, which are the only two concluded between them. The relationships between them dominated by tensions and wars, distinguished Spanish attacks on some Algerian coastal towns and occupy some of them during the sixteenth century, as Oran and Bejaia. This led the Algerian sailors to attack certain areas cō Spanish ts and the Balearic Islands. Despite the new Spanish attacks on the city of Algiers, which have failed to occupy the city, in the last quarter of the eighteenth century, this is SAGIT to O'Reilly campaign in 1775, and both attacks Ontonio Barcelo in 1783 and 1784. the two countries concluded the mentioned treaties. The circumstances of the conclusion of the two treaties are different .The first treaty was concluded just two years after the last campagnede Barcelo (1784), and after processing of Spain to make peace with the Regency of Algiers, and entry of the two countries in the negotiations lasted years. The second treaty was concluded after the liberalization of Oran the Spanish occupation, which was besieged by the Algerians. I will focus in this study on the conditions of the two treaties, and the contents of each of them, and their impact on the relations between the two countries until the year 1830.

تعرض هذه الدراسة إلى المعاهدتين الوحيدتين اللتين أبرمتا بين إيالة الجزائر وإسبانيا في أواخر القرن الثامن عشر (1786 و 1791)، بعد مرور قرابة ثلاثة قرون (281 سنة) من العداء بينهما. وأهم المحاور التي سنتعرض لها، ظروف انعقاد معاهدة 1786، وخاصة ما يتعلق بالمفاوضات التي سبقت إبرام المعاهدة، ونشير إلى أن البلدان توصلا إلى ذلك رغم بقاء الإسبان يحتلون وهران والمرسى الكبير. ومن أهم مظاهر هذا التحول في العلاقات بين البلدين هو تعيين إسبانيا قنصل لها في مدينة الجزائر ووههران وعنابة. ومن تداعيات هذا السلم مع الجزائر طلبت إسبانيا من إيالة الجزائر التوسط لها لإبرام صلح مع تونس، بعدما وأن سبق لها وأن أبرمت معاهدات مع المغرب سنة 1780، والدولة العثمانية سنة 1782، وطرابلس سنة 1784، ثم مع الجزائر سنة 1786. وأتعرض بعد ذلك إلى ظروف انعقاد معاهدة سنة 1791، وإلى بنودها. وقد انجر عنها خروج الإسبان نهائيا من وهران والمرسى الكبير، الذي جاء بعد حصار طويل من طرف القبائل والقوات الإيالة للإسبان في المدينتين إلى غاية تعرض وهران إلى زلزال في شهر أكتوبر 1790 أدى إلى تدمير جزء كبير من المدينة. وشجعت هذه الكارثة حركة المقاومة على تجديد الهجوم، فاضطر الملك الإسباني كارلوس الرابع إلى قبول الصلح مع الجزائر مع ضمان الخروج من وهران.

### 1- معاهدة الصلح بين البلدين سنة 1786 :

بعدها فشلت حملتا إسبانيا اللتان شنهما القائد أونطونيو بارثيليو (Antonio Barcelo) على مدينة الجزائر سنة 1783، 1784، وفشلت كل المساعي الدبلوماسية التي كانت تحمل شروطا مسبقة من قبل الإسبان، التي يفهم منها فرض السلم على الجزائر. أدركت إسبانيا أنه لا يمكنها فرض إرادتها على الجزائر، لذا بذل ملكها كارلوس الثالث جهودا كبيرة، وبحث عن العديد من المبادرات التي تؤدي إلى حالة السلم مع إيالة الجزائر، كما أنه كان يسعى إلى ربط علاقات تجارية مع الجزائر تسمح لبلاده بتوظيف قدراتها في هذا

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية مجلة دورية دولية محكمة  
النشاط مع أوروبا وأمريكا<sup>(1)</sup>. وهكذا اهتمدى إلى أسلوب التفاوض ، فتجاوبت  
الجزائر معه.

وقد وصف أبو راس الناصري هذه المفاوضات بالعبارات التالية: « إن  
الكفرة أذلم الله ، لما علموا من المنصور بالله ما هو عليه من كثرة جنوده وشدة  
حزبه... فأصبحوا فرائس له يتوقعون وثبته عليهم ، جعلوا للتوصل بالصلح وسائط  
وألزموا أنفسهم عدة أمور وشرائط. بادلين على ذلك المنا اللهاء والرشا حتى أنهم  
توصلوا بسلطان الجزائر محمد بن عثمان باشا وبعد موته طلبوا في ذلك خليفته  
حسن دولاتي وألخوا عليه في المراسلة وكذلك توسلوا بجميع أهل دولته... »<sup>(2)</sup>

بدأت المفاوضات بين البلدين في جوان 1785، فقد حل بمدينة الجزائر  
مندوبان وهما الكونت ديسبيلي (d'Espilly) والأميرال "ماتاريديو"  
(Mazzaredo) للتفاوض وتذليل نقاط الخلاف بين البلدين ، وقد لعب  
دور الوسيط القنصل الفرنسي "دي كيرسي" (De Kersey)<sup>(3)</sup>.

لقد كان ترقب انعقاد المعاهدة يحضى باهتمام الولايات المتحدة الأمريكية  
من خلال مفوضها في مدريد ويليام كارميكائيل (William  
Carmichael)<sup>(2)</sup> الذي بعث خطابا مؤرخا في 19 ماي 1786 ، إلى  
هيئة المفوضين الأمريكية (American commissioners) ، يخبره أنه  
تلقى رسالة من الكونت ديسبيلي أحد المفوضين الإسبانين إلى الجزائر ، تحتوي  
على معلومات متعلقة بشؤون أمريكا في الجزائر ، وذكر كارميكائيل<sup>(4)</sup> أن  
التفاوض بين الجزائر وإسبانيا لم يؤد بعد إلى إبرام المعاهدة ، ولا يزال هناك  
احتمال تأخير عقدها.<sup>(5)</sup> لأن الجزائريين لم يكونوا ليقبلوا أي مشروع يقدم لهم،  
فكانوا يتشددون، حيث كانوا في موقف قوة بعد إفشال الغارات الإسبانية الثلاثة  
في سنوات (1775 ، 1783 ، 1784) على مدينة الجزائر.

وبعد مفاوضات استمرت لمدة سنة، توصل الطرفان في 17 من شعبان  
1200هـ الموافق ليوم 14 جوان 1786 إلى إبرام معاهدة تألفت من خمسة  
وعشرين مادة. تناولت جوانب سياسية واقتصادية وأمنية بين البلدين. وقد ورد في  
بدايتها ما يلي: « الحمد لله العلي القدير. في 17 من شعبان 1200هـ.

انعددت معاهد سلم وصداقة دائمة بين إسبانيا والجزائر، وعليه فقد تمت الاتفاقية في الانسجام الكامل وبالإرادة الحسنة، بين صاحب الجلالة المعظم دون كارلوس الثالث ملك إسبانيا والهند بفضل الله من جهة وصاحب السمو محمد باشا داي والديوان والانكشارية بمدينة الجزائر ومملكتهما من جهة أخرى .».

تضمنت المعاهدة حالة السلم بين البلدين ومن ينتمي إليهما ، والذين يمارسون التجارة، وألا يقوم طرف بأعمال تضر الطرف الآخر(البند الأول). التعاون بين سفن البلدين في البحر بتقديم يد المساعدة، وفي حالة تعرضها للزوابع البحرية ، يجوز لسفن البلدين الرسو في موانئ البلد الآخر، وقد حددت موانئ أليكانت وبرشلونة ومالقة يسمح دخول الجزائريين إليها قصد التجارة أو شراء مؤن ( البند2، 3) . وسمحت الاتفاقية لتجار البلدين النزول في موانئ البلد الآخر( البند 7). كما تضمنت الاتفاقية عدم تقديم العون لمراكب دولة أخرى تكون في حالة حرب مع الدولتين المتصلحتين (البند9). إلى جانب ذلك نصت على حرية الإسبانين بالجزائر على ممارسة شعائر دينهم المسيحي (المادة11)<sup>(6)</sup>.

وإذا أخضعنا نص الاتفاقية إلى قراءة متأنية للاحظنا أن إسبانيا كانت حريصة على تأمين حرية الملاحة لسفنها في البحر المتوسط، لتدعيم نشاطها التجاري وتحقيق مكاسب أخرى لفائدة الكنيسة . وكان الإسبان يشغل أذهانهم قضية القرصنة، حيث وردت الإشارة إليها في كثير من المواد، ساعين إلى منعها . كما يستشف منها أن الإسبان كانوا حريصين أن يحصلوا على نفس المكانة والمعاملة التي كانت تحظى بها فرنسا في الجزائر، مما كان لديها من امتيازات تجارية على الخصوص. وأهم ما يؤخذ على هذه الاتفاقية أنها لم تعالج السبب الرئيسي الذي أبقى الخصام مستمرا بين الجزائر وإسبانيا والمتعلق ببقاء الوجود الإسباني في وهران والمرسى الكبير، والذي أبقى حالة الشك وعدم الثقة بين البلدين. فقد نصت المادة العشرون على بقاء قاعدتي وهران والمرسى على ما كانت عليه ، وألا يهاجمها داي الجزائر ولا باي معسكر . كما ألزمت هذه المادة الداى أن يوافق على أية اتفاقية تحصل بين الإسبان والباي المذكور والتي تخص منع الاعتداء على

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية مجلة دورية دولية محكمة  
القواعد والحصون في الموقعين المحتملين . وتعد هذه المادة من بين أطول المواد في  
نسختها باللغة الإسبانية<sup>(7)</sup>،

إلى جانب المادة الرابعة، التي تتحدث عن حماية السفن التجارية الإسبانية  
الموجودة في أحد الموانئ الجزائرية من قبل القوات الجزائرية في حالة تعرضها لاعتداء  
من طرف سفن معادية أخرى .

وقد استغل الباي محمد الكبير هذه المفاوضات ليوجه أنظاره إلى إخضاع  
القبائل المستقلة في جنوب بايليك الغرب سنة 1785<sup>(8)</sup>

## 2- تعيين إسبانيا قنصلها في الجزائر:

إن أهم ما نتج عن معاهدة الصلح بين البلدين هو إرسال إسبانيا قنصل  
لها على الجزائر، وقد تم ذلك من خلال رسالة بعثها الوزير الأول الإسباني  
الكوندي دي فلوريدا بلانكا (Conde de Florida Blanca) (9) في 31 أكتوبر 1786، أعلمه  
فيها بأنه سيرسل إليه قنصل بلاده اسمه مانويل دي لاس هيراس (Manuel  
de las Heras)<sup>(10)</sup> .

وقبل استقرار الملك الإسباني على تعيين هذا الرجل في منصب القنصلية في  
الجزائر، وقع جدل بين حكام الجزائر والسلطات الإسبانية، وكذلك بين الحكام  
الإسبان أنفسهم حول الشخصية التي ستتولى هذا المهمة في الجزائر. ففي رسالة  
وجهها الداوي محمد باشا إلى الوزير الأول الإسباني الكوندي دي فلوريدا  
بلانكا مؤرخة في 29 مارس 1786، اقترح فيها تعيين خوان وولف (Juan  
Wolf)<sup>(11)</sup>

قائلا له: «أيها الصديق الكبير نحيطكم علما بأن السيد المركاني المعروف باسم  
خوان وولف الإنكليزي الأصل الموجود عندنا رجل خدوم وموفق، وقد تأكد  
بذلك عندما أحضروا إليه خادمكم ووكيلكم السيد الكوندي دي إكسيبي، كما  
رآه مناسبا للاختيار، لذلك نلتمس منكم إعلامنا بموافقتكم عليه برسالة»<sup>(12)</sup> .

ورغم طول المفاوضات بين البلدين والتريث على توقيعها لمدة سنة كاملة، إلا  
أنه سرعان ما تجددت الخلافات بين البلدين حول بعض البنود، استمرت لعدة



سنوات، لكنها لم تؤد إلى قطع العلاقات بينهما. وتبودلت خلالها العديد من الرسائل بين قادة البلدين، تناولت وجهات النظر حول الاتفاقية ومراجعة بعض البنود وغيرها من القضايا، خاصة التي كانت تم أمن إسبانيا في حرصها على منع الغارات على وهران من قبل باي معسكر<sup>(13)</sup> وسعيها لإبرام صلح مماثل مع تونس<sup>(14)</sup>.

أما ما يتعلق بتعديل بعض المواد فقد بعث الداوي محمد عثمان خطابا في 24 أبريل 1787 إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا، عرض له فيها قيام الكوندي "دي سيبلي" بتغيير بعض بنود المعاهدة، حيث وجد فيها تعديلا في ثلاث مواد، وطلب منه التأكيد من ذلك التغيير الذي مس المادة 7 المتعلقة بالتجارة، ومما ورد في هذه الرسالة حول هذا الموضوع: «تم الاتفاق على أن تأخذوا من تجارنا العشر، مثلما نفعل نحن مع تجاركم. وهذا على خلاف التجار الآخرين القادمين من غير بلادنا كتجار فرنسا مثلا الذين يمكنكم أن تأخذوا منهم حسب عادتكم»<sup>(15)</sup>.

والمادة العشرين التي تخص وهران والمرسى الكبير، والمادة خمسة وعشرين التي تعني سواحل الإمارات البابوية في إيطاليا حيث ذكر الداوي للوزير الأول الإسباني: «إن حرمة المراكب الإسبانية في بلادكم والبلاد التي تخضع لكم... وهذا ما تم الاتفاق عليه، وكذلك بالنسبة إليكم تجاهنا. أما غير بلادكم إلى بونظيفسة وهي سواحل الإمارات البابوية فلا مدخل للأسبان فيها وليست مشمولة بالصلح»<sup>(16)</sup>.

وأكد الداوي على بلانكا احترام ما جاء في البنود الثلاثة الأصلية وليس المحرفة<sup>(17)</sup>.

ومن تداعيات هذا الصلح طلب الداوي مستحقاته المالية من الملك الإسباني كارلوس الثالث (Carlos III)، في رسالة مؤرخة يوم 18 فيفري 1787، أجابه فيها عن رسالة سابقة، وأبلغه فيها عن المقدار المالي تعويضا عن الأضرار التي لحقت بالبلاد من جراء القصف الإسباني الذي أصاب مدينة الجزائر وخاصة خلال سنتي 1783، 1784، حدده بمليون ريال. وكذلك طالبه في هذه

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية مجلة دورية دولية محكمة  
الرسالة بمبلغ 200 ألف ريال بدلا من الأسلحة التي اعتذر الملك تقديمها كشرط  
من شروط الصلح المذكور سابقا<sup>(18)</sup>.

ومن أهم القضايا التي شغلت البلدين والتي وردت في كثير من الرسائل التي  
تبدلت بين القادة الجزائريين والقادة الإسبان إلى غاية سنة 1792 تاريخ جلاء  
الإسبان عن وهران ؛ حركة سفن البلدين في البحر المتوسط ، وما يقع بينها في  
بعض الأحيان من مناورات وصادمات ، تؤدي إلى حجز بعضها من هذا الطرف  
أو ذاك . ومن الأمثلة على ذلك اعتقال البحارة الجزائريين مركبا جنوبيا لا يحمل  
علما أسبانيا ، وقد أكد الداوي محمد عثمان إلى الكوندي بلانكا في 15 أوت  
1787، أن عمل البحارة الجزائريين قانوني ولا يتعارض مع بنود الصلح . كما  
ذكره بأن عددا من السفن الإسبانية يتراوح عددها ما بين العشرة والخمسة عشرة  
، كانت تتردد على السواحل الجزائرية لمدة عشرين يوما ، وهذا ما يوحي بأنها  
كانت تسعى للقيام بشن اعتداء ، وذكر الكونت بأنه قد أبلغ ذلك التصرف إلى  
القنصل الإسباني بالجزائر ، بإبعاد مرورها قرب السواحل الجزائرية ، وإلا فإن السفن  
الجزائر ستعترض طريقها<sup>(19)</sup>.

وقد طلب وكيل الحرج حسن من فلوريدا بلانكا في نفس الشهر والسنة أن  
تلتزم السفن التجارية الإسبانية العابرة للبحر المتوسط بحمل جوازات سفر ، وإلا  
فإن المراكب الجزائرية ستعترض طريقها<sup>(20)</sup> .

ورغم هذه المسائل الخلافية إلا أنها لم ترق إلى تعكير الجو بين البلدين ، بل  
كان القادة يتجاوزونها ، وأكثر من ذلك فإنهم كانوا يتبادلون الهدايا . ونسوق في  
هذا الصدد نموذجا على سبيل المثال ، حيث بعث الداوي محمد عثمان إلى  
الكوندي فلوريدا بلانكا هدايا مع القنصل الإسباني وتمثل في ثلاثة أحصنة  
ذكور وثلاثة أحصنة إناث مزينة بثياب مزركشة، وثلاث بنادق وثلاثة رشاشات،  
وسكين مذهب وعدد من الطيور<sup>(21)</sup> .

ونظرا للعداء الذي كان قائما بين الدولة العثمانية وروسيا<sup>(22)</sup>، أرادت الخلافة  
استغلال الصلح القائم بين الجزائر وإسبانيا في منع سفن عدوتها من الدخول إلى  
البحر المتوسط عبر مضيق جبل طارق ، وذلك من خلال خطاب بعثه محمد

عثمان إلى كارلوس الرابع (Carlos IV)<sup>(23)</sup> ذكره فيها بتوصية الباب العالي المذكورة ، التي طبقتها إسبانيا في السنة الفارطة (1788) استجابة للطلب الذي أرسل إلى إسبانيا. وتمنى الداى منها أن تكرر العملية مرة أخرى في قوله : « إن الدولة الإسبانية العظيمة تستطيع أن تسد الباب على السفن الموسكوفية هذه السنة أيضا مثلما قررت ذلك وفعلته في السنة الماضية ، وتمنعها من المرور والدخول في بوغاز سبتة( جبل طارق)» . وفي آخر الرسالة قال له بأني في انتظار إجابة وافية وصریحة<sup>(24)</sup> .

### 3- إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس (1786-1787):

بعدها أبرمت إسبانيا معاهدات مع المغرب (1780) ، الدولة العثمانية (1782) ، طرابلس (1784) ، والجزائر (1786) لم تبقى إلا تونس لم تبرم معها أية معاهدة حتى هذا الوقت . ولما كان حكام إسبانيا مطمئنين إلى التوصل لإبرام الصلح مع الجزائر ، وقبل أن يتم ذلك فعليا ، فإنهم ألحوا على الداى محمد عثمان باشا وعلى بعض وزرائه مثل وكيل الحرج حن ، وخزندار سيد علي برغل وغيرهم ، لكي يتوسطوا لدى بايات تونس من أجل إبرام معاهدة صلح مع بلادهم ، وقد سعى هؤلاء القادة إلى تحقيق رغبة الإسبان ، ويتجلى ذلك في المساعي التي أباحت بها الرسائل التي تبودلت بين الحكام الإسبان ونظرائهم الجزائريين.

وفيما يلي ذكر لمحتويات الرسائل المتعلقة بشأن الوساطة الجزائرية الرامية إلى

عقد الصلح بين إسبانيا وتونس:

جاء في نص من رسالة بعثها وكيل الحرج حسن إلى الكونت فلوريدا بلانكا بتاريخ 25 جوان 1785 يجيبه عن انشغاله في رسالة سابقة : « وكما لا يخفاكم وقفنا في إمرت تونس الذي أمرتم به خدمكم دسيلي ، وما زلنا واقفين على ذلك حتى يقضي إن شاء الله ، كما تنبغي وترضى »

وفي رسالة مؤرخة في 17 سبتمبر 1785 بعث الكونت فلوريدا بلانكا إلى أحد وزراء الجزائر يَحتمل أن يكون حسن وكيل الحرج جاء فيها: « إن الملك الإسباني يرجو منك أن تبذل جهدك وتتصل بباي تونس ، وتحثه على إبرام صلح

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية مجلة دورية دولية محكمة  
مع إسبانيا... إن دي سيببي سيحدثك بالتفصيل على ما يرد الملك قوله ، وذلك  
عندما يحضر إلى الجزائر. »<sup>(25)</sup> .

وتلقى حسن وكيل الحرج رسالة مؤرخة في 20 جانفي 1786 من الوزير  
الأول التونسي الحاج مصطفى خوجة باشا<sup>(26)</sup>

، أبلغه « أن الباي التونسي حمودة باشا يتمنى هو الآخر من هذا المبعوث أن  
يحضر إلى تونس لنفس المهمة ، وكعربون وتمهيد لذلك أبلغ الحاج مصطفى وكيل  
الحرج حسن بأن الباي قد أعلن هدنة لمدة ثلاثة أشهر مع إسبانيا ابتداء من أول  
مارس 1786. وأنه انتزع من البحارة التونسيين جوازات السفر حتى لا يقوموا  
بمهاجمة السفن الإسبانية في البحر. »<sup>(27)</sup>

أرسل الخزندار سيد علي برغل إلى فلوريدا بلانكا خطابا مؤرخا في 19 مارس  
1786، أخبره فيها عن تحادثه مع الداوي محمد عثمان باشا ، بشأن الوساطة  
الجزائرية بين تونس وإسبانيا، واتفق معه على تشكيل لجنة للوصول إلى تحقيق  
الصلح بين تونس وإسبانيا.<sup>(28)</sup>

ويعث وكيل الحرج حسن رسالة إلى الكونت فلوريدا بلانكا مؤرخة في 26  
مارس 1786 جاء فيها: «... نخبركم ونعلمكم على أمر تونس ، إعلم نحن  
كتبنا وبعثنا لوزير الباي الحاج مصطفى خوجة مع خدمنا ... سليمان بن جلون  
... في أمر الصلح هنا بالجزائر مع وكيلكم الكند دي سبلي ... وكذا نحن وصنا  
ووكدنا عن واحد الرجل من حضرت الباي الذي جاء مع الهدية التي تأتي إلينا في  
كل سنة أن لا يخالفنا في كل ما أمرهم به في أمرت صلح أصبينة ، وبعثنا مع  
صاحبنا وصحب الكند دي سبلي الترك شريف أن يبقى هناك ويسكنهم على ما  
ارتضى واتفق به لشندر وسليمان حتى نأمر بأمرك. »<sup>(29)</sup>

وفي أخرى بعثها حسن وكيل الحرج إلى فلوريدا بلانكا مؤرخة في 26 مارس  
1786، جاء فيها أن الوزير الأول التونسي الحاج مصطفى خوجة اتفق مع  
المفاوضين الكسندر بازيليني (Alexandre Bazillini) وسليمان بن جلون  
على عقد هدنة لمدة أربعة أشهر. وقد عارض صولير أن يتم تفاوض بلاده مع  
تونس عبر الرجالان الموفدان من الجزائر، وأنه هو الأجدر أن يقوم بالتفاوض.

ولهذا نصح الداى محمد عثمان باشا الباى التونسى أن يتفاوض مع صولير .  
«(30)

بعث الوزير الأول الإسباني فلوريدا بلانكا رسالتين إحداهما إلى حسن وكيل الحرج ، والثانية إلى الخزندار سيد علي، مؤرختين في 25 أبريل 1786 ، شكرهما فيهما على الجهود التي يقومان بها من أجل تحقيق الصلح بين تونس وإسبانيا ، كما حدثهما عن المساعي التي يقوم بها الكونت دي سيببي . وتأسف فيهما عن ظهور الصعوبات التي تعرقل التوصل حالة السلم (31) .

وفي رسالة أخرى بعثها الكونت فلوريدا بلانكا حسن وكيل الحرج في نفس التاريخ . ذكر له فيها أن بلاده قبلت هدية 3 أشهر مع تونس ، كخطوة أولى من أجل التوصل إلى معاهدة الصلح، وتمنى أن تقبل تونس كذلك (32).

ووجه فلوريدابلانكا رسالة أحد القادة الجزائريين ، حث فيه مخاطبه بأن يبذل كل ما في وسعه ، ويستعمل نفوذه ، وأنه هو الملك الإسباني يعولان عليه من أجل إبرام الصلح مع تونس. (33) .

10 . وفي 31 أكتوبر 1786 وجه فلوريدا بلانكا رسالة إلى حسن الخزناسي ، وعلي آغا وكيل الحرج . شكرهما هو والملك الإسباني على جهودهما التي أدت إلى تحقيق الصلح بين الجزائر وإسبانيا. وحثاهما على بذل جهود ماثلة لتحقيق الصلح مع تونس، وذكر أن شروط الصلح مع تونس توجد لدى الجزائر. (34)

ووجه علي خزندار رسالة إلى فلوريدا بلانكا مؤرخة في 15 نوفمبر 1786، قال له فيها: «...أما ما يخص تونس فقد كتبنا إلى الوزير الأول التونسي مصطفى خوجة ، وما زلنا ننتظر حتى يتم إبرام الصلح بينكم وبينهم. » (35)

وفي 25 فيفري 1787 أرسل حسن الخزناسي رسالة إلى فلوريدا بلانكا ، وحول تونس قال له: « أعطيت ورقة إلى بيدرو سوقيطا (Pedro Sogueta) إلى تونس مع البريك ، ونقول إن شاء الله كل شيء يمسي مليح مع تونس » (36)

وجوابا على الرسالة السابقة وجه فلوريدا بلانكا رسالة إلى حسن الخرناجي وكيل الحرج ، طلب منه أن يستعمل نفوذه حتى يتحقق إبرام الصلح بين تونس وإسبانيا.<sup>(37)</sup>

#### 4- المغزى من اختيار الإسبان للجزائر للتوسط لدى تونس :

لا شك أن اختيار إسبانيا للجزائر وإلحاحها عليها على التوسط بينها وبين تونس، كان من أجل التوصل إلى إبرام معاهدة صلح مع هذا البلد المجاور للجزائر، وهذا جاء نتيجة للمكانة التي كانت تحظى بها الجزائر لدى الإسبان ، رغم فترة العداء الطويلة التي ابتدأت منذ بداية القرن السادس عشر. فقد كانت الدعوة للتوسط قبل أن يتم التوصل إلى إبرام معاهدة الصلح مع الجزائر ، الذي تم في 14 جوان 1786. فكما تتبعنا محتويات تلك الرسائل التي تبودلت بين السياسة الإسبان ونظرائهم الجزائريين قد ابتدأت على الأقل في سنة 1785، وقد استمرت إلى غاية التوصل إلى إبرام الصلح بين البلدين.

إن هذا الصلح المنتظر تحقيقه بين إسبانيا وتونس لم يتحقق بسرعة، فإنه تأخر عقده إلى غاية 19 جانفي 1791، أي بعد مرور إحدى عشر سنة من إبرام الصلح مع المغرب الأقصى ، وخمس سنوات من تاريخ إبرام الصلح مع الجزائر.

وإلى جانب هذه الثقة الإسبانية في الدبلوماسية الجزائرية في ذلك الوقت، بادرت الدولة العثمانية لكي توسط الجزائر من أجل إقناع الإسبان على منع الأسطول الروسي من الدخول إلى البحر المتوسط عبر مضيق جبل طارق. خلال الحروب الروسية العثمانية في عقدي السبعينات والثمانينات من القرن الثامن عشر.

#### 5- ظروف انعقاد معاهدة 1791 :

يذكر أن الزلزال الذي ضرب وهران خلال سنة 1790 قد بدأ منذ شهر أوت بهزات خفيفة استمرت إلى شهر سبتمبر، وفي 9 أكتوبر وقعت هزات عنيفة التي أدت إلى تدمير جزء كبير من مباني مدينة وهران، وقد ترتب عن الزلزال اشتعال حرائق في أماكن متعددة من المدينة ، كما اندلعت النيران في السفينة

بيرلانتي التي كانت تحمل على متنها أربعة وسبعين مدفعا ، خلال . وفر السجناء من سجونهم ، وقاموا بالسطو ونهب ممتلكات الديار الغنية . وقد قتل حوالي ثلاثة آلاف شخص ، ولم يبق من الجنود سوى 1500 شخص ، كانوا تحت قيادة الكونت دي كومبري هيرموسا (Comte de Cumbre Hermosa) حاكم وهران ، الذي عمل على التصدي لقوات المسلمين ، حتى قبل وصول الإمدادات الإسبانية ، وتمكن فعلا من إيقاف الهجوم الإسلامي . استمرت حالة الفوضى حتى 17 من شهر أكتوبر .

لقد ساهم الزلزال في إحداث الهلع والاضطراب في نفوس الإسبان ، ولم يسمح لهم الوقت في تجهيز أنفسهم للدفاع عن أنفسهم ضد هجمات المسلمين . فقد انشغلوا بمعالجة الجرحى ، ودفن الموتى الذين سقطوا تحت أنقاض البنايات العسكرية والمدنية . وتأمين النظام الداخلي والأمن . كما كان انشغالهم محصورا في ترميم الأسوار والحصون والأبراج التي أصابها الدمار .<sup>(38)</sup>

وفي 26 أكتوبر وصلت الإمدادات الإسبانية ، التي انطلقت من قرطاجنة ، كانت تحتوي على سبعمائة خيمة و ثمانمائة رجل ، ومواد غذائية وأسلحة . وفي 29 من الشهر اضطر محمد بك غلى التراجع بعدما واجهته مقاومة عنيفة . لكنه ظل ضاربا حصاره على المدينة . وقد أرهق هذا الحصار والمعارك الطويلة المجلس الملكي الإسباني التي تسببت في تكاليف باهضة ، ولذلك قرر التخلي عن وهران ، ووافق الملك شارل الرابع على ذلك .<sup>(39)</sup>

وقد خلد المحافظ أبو راس الناصري الواقعة بقصيدة نورد منها الأبيات التالية :

حتى تدراكها الله برأفته من      بعد ما مضى لها مدة العنس  
بتقليد المغرب الوسط لعمدتنا      أضاء شمسه بعد حلك القلس  
محمد بن عثمان نجم سعدهم      رصد بأهل وهران الويل في النص  
نصارى وهران تركوها عامرة      فالحمد لله أمنا عن الهجس  
بأبي عثمان وعثمان قد رجعا      إلينا من يسلي عن أرض أندلس  
في خامس الفرد ضحى يوم إثنيته      كان الدخول بعون الملك القدس  
ففتحت عنوة في تسع عشرة      من بعد سكنى ره والدين في وكس<sup>(40)</sup>

رغم ما توصل إليه الطرفان في إبرام المعاهدة السابقة ؛ إلا أن التوتر ظل قائما، وخاصة من الطرف الجزائري الذي لم يهنأ له بال مادام الإسبان يحتلون وهران والمرسى الكبير ، رغم تلك المحاملات التي كانت تحملها رسائل زعماء البلدين ، ولكنهم ظلوا ساعين لتحقيق هذا الغرض .

تركز كثير من الدراسات الغربية أن الزلزال الذي تعرضت له مدينة وهران كان السبب المباشر الذي دفع بالأسبان إلى الانسحاب ، ولكنها تتغافل عن المقاومة التي كانت تقوم القبائل المعادية للإسبان ، المدعومين في كثير من الأحيان من طرف السلطات الرسمية الجزائرية ، التي كان على رأسها في هذه الأثناء محمد عثمان باشا. ليس هناك من شك أن حادث الزلزال قد ساعد الجزائريين في فتح وهران ، حيث استغلوا ما أحدثه من تدمير للمنازل ، والأضرار التي لحقت بالحصون والقلاع المنيعة التي كان يتحصن وراءها الأسبان . فعلى سبيل المثال كان الجزء العلوي للقصبة بمدينة وهران الذي يحتوي على أهم المراكز الرئيسية للقيادة الإسبانية بالمدينة ، مثل قصر الحاكم ، والثكنة العسكرية ، ومنشآت العلاج، إلى جانب الكنائس قد دمرت بشكل كبير. وما ترتب عنه من موت حوالي ثلاثة آلاف من السكان والجنود ، وحالة الهلع التي عاشها من بقي منهم على قيد الحياة. إلى جانب هذا تعرضت المدينة إلى أعمال النهب ، فقد ذكر قائد الجيش الأسباني في تقرير له إلى الملك: « إن بعض الرجال ( من إسبانيي وهران) الذين لا خلاق لهم ، أصحاب الحياة السافلة قد اغتتموا فرصة هذه الحادثة وأمعنوا في نهب الديار الغنية، بصفة أفضع مما لو كان العدو هو الناهب ، ولم يبق للمستعمرين البائسين أي شيء مطلقا . ورغم القسوة التي قابلنا بها هذه الأعمال اللصوصية والعقاب الصارم الذي أنزلناه بمرتكبيها ، فإن الأشقياء لم يرتعدوا أصلا ، واستمروا في أعمال النهب والسلب»<sup>(41)</sup>.

إن هذه الكارثة الطبيعية وحالة الاضطراب الذي ساد سكان المدينة من الأسبان قد شجع حركة المقاومة على تجديد الهجوم ، وكان الأسبان من جهتهم يستمتتون في الدفاع عن الموقع إلى درجة أنهم أشركوا النساء في أعمال الترميم ، مع التركيز على المراكز الخطرة . ولم يتمكن محمد عثمان من تحقيق أي تقدم إلى



داخل المدينة، خاصة بعد وصول الدعم العسكري من أسبانيا الذي بلغ تعداده سبعة آلاف جندي. لكنه ظل فارضا الحصار . ومع مرور الأيام أحس الأسبان بصعوبة الموقف ، حيث أرهقت هذه المعارك الطويلة البلاط الملكي الأسباني من زيادة التكاليف ، وإنفاق المزيد من الأموال عليها وعلى إصلاح ما فسد من الحصون . إلى جانب هذا كان الأسبان في وهران يعانون من أوضاع اقتصادية مزرية من جراء الحصار المضروب عليهم من قبل السكان ، حيث منعت السلطات الحاكمة في الجزائر القبائل الموالية بمنع التجارة معهم.

وفي أبريل 1791 بعث الملك كارلوس الرابع وفدا إلى الجزائر بقياده الضابط السامي غوينباردا (Guinbarda) يحمل مقترحاته للتصالح والرغبة في التوصل إلى عقد معاهدة سلم . وكان رد الداى محمد عثمان الذي كان عمره يتجاوز الثمانين سنة ويعاني من المرض ، أنه يريد ضم وهران دون شروط<sup>(42)</sup>.

وبعدما توفي الداى في 12 جويلية وتولى حسن منصب الداى<sup>(43)</sup>

الحكم ، أرسل الملك الأسباني إلى الأدميرال غرابينا (Gravina) الذي كان موجودا في هذا الأثناء في وهران مع أسطوله وكلفه بإبلاغ الداى الجديد موافقته على الصلح مع الجزائر بضممان الخروج من وهران ، وقبوله بشروط الجزائر ، فوافق الداى الجديد على عقد معاهدة السلم .

وتمثلت هذه الشروط فيما يلي:

- 1 . الانسحاب الكامل والعاجل من المرسى الكبير ووهران.
- 2 . إيصال جرة ماء من عيون وهران بالإضافة إلى المفتاحين الذهبيين لوهران والمرسى الكبير على ظهر سفينة إسبانية وتسليمهم إلى السلطان العثماني.
- 3 . تلتزم إسبانيا بدفع مبلغ مالي قدره 12000 فرنك للخرينة الجزائرية . وعلى ضوء هذه الشروط تلتزم الجزائر بما يلي:
- 1 . الحق في استئناف الإسبان صيد المرجان في السواحل الغربية للجزائر.
- 2 . إنشاء مركز تجاري في مدينة الغزوات.
- 3 . يسمح للإسبان بشراء ثلاثة آلاف حمولة سنوية من القمح.

إن ما يسعى توضيحه هو أن هذه الشروط مضافة إلى الشروط التي وردت في الاتفاقية ، حيث يلتزم الإسبان بترك كل المعدات الحربية والعتاد داخل المدينتين. وبعد مرور ثمانية أيام من تاريخ التوقيع على مواد الصلح ، أي في يوم 17 ديسمبر 1791، يشرع الإسبان في الإنسحاب من وهران<sup>(44)</sup>.

## 6. إبرام المعاهدة وبنودها:

في يوم 12 سبتمبر 1791 عقدت معاهدة سلم جديدة بين الداي حسن والوفد الأسباني في الجزائر، تتألف من ديباجة وتسعة مواد من أهمها المادة التي تحدثت عن جلاء الأسبان عن وهران<sup>(45)</sup>  
صادق عليها الملك كارلوس الرابع في 16 ديسمبر، وبدأ الجلاء عن وهران والمرسى الكبير في اليوم التالي ( 17 ديسمبر) وانتهى في يوم 24 فيفري 1792. وفيما يلي مختصر لبنود الاتفاق :

1. أن تنسحب أسبانيا من قاعدة وهران والمرسى الكبير دون قيد أو شرط وتسليمهما إلى إيالة الجزائر.
2. تقوم أسبانيا بدفع مقداره 120 ألف فرنك في كل سنة لخزينة الجزائر
3. يسمح للأسبان بإقامة مؤسسة تجارية بالغزوات.
4. يسمح للأسبان بشراء ثلاثة آلاف كيلا من القمح والشعير ومحاصيل زراعية أخرى سنويا من الجزائر .
5. يسمح لها بصيد المرجان على الساحل الغربي من الجزائر.
6. أن تحمل سفينة أسبانية إلى اسطنبول مفتاحين ذهبيين وحرتين من ما عيون وهران كمركز لاستردادها.
7. إخلاء المدينة من جميع ما فيها من سلاح وذخيرة ، التي كانت قد غنمتها منذ استيلائها على مدينة وهران والمرسى الكبير ، يوم خروج الباي مصطفى بوشلاغم منها عام 1732.
8. يترك الخيار إلى الأسبان لتهدم ما بنوه منذ عام 1732.
9. يسمح للسكان الأسبان البقاء بمدينة وهران لمدة أربعة أشهر ابتداء من يوم إمضاء عقد الصلح<sup>(46)</sup> .

كانت هذه المعاهدة مرهقة لأسبانيا حيث ألزمتها زيادة عن الجلاء عن وهران والمرسى الكبير ، أن تدفع ضريبة سنوية قدرها 120 ألف فرنك ، إلى جانب هدايا مختلفة تتكون من أسلحة وسفن وعتاد بحري ، وأن ترجع إلى وهران المدافع والقاذفات والذخائر وجميع المعدات الحربية الأخرى التي لأسبانيا في مدينة وهران نقلتها قبل خروجها إلى قرطاجنة في أسبانيا . وهناك شروط أخرى فرضها الادي حسن على كارلوس الرابع تتمثل في حمل مفتاحين من ذهب لمدينة وهران وجرتين من ماء عيونها إلى اسطنبول لتقدمها إلى الخليفة العثماني سليم الثالث<sup>(47)</sup> .

بدأ الانسحاب الأسباني من وهران في منتصف ديسمبر 1791 ، بعد ما ترك الأسلحة والعتاد المتفق عليه وتسليم المدينة للباي محمد الذي دخلها ومعه المجاهدين الذين كانوا يحاصرونها ، وذلك في 24 فيفري 1792. وقد وصف لنا ابن سحنون الذي كان ضمن المرافقين للباي فقال : >> وكان أول من دخلها . بعد الذين وضعوا الأعلام وعمروا المدافع وبنوا مضرب الأمير . العلماء يقدمهم صحيح البخاري ، ثم تلاهم الأمير في جنده الحرار وفي يده رمح ... فنزل داخل البرج الأحمر بمضربه الفياح ... ، فكان أول ما بدأ به أن صلى ركعتين شكرا لله تعالى ، فضربت مدافع التهنتة وطبوها ، ثم دخل عليه الناس يهتفون أفواجا أفواجا ، ولما تمثلت بين يديه استأذنته في الإنشاد فأذن لي فأنشدت قولي :

بشرى الوصال لطيفة الأخبار فانشد حديث لطيفة الإيكار  
كرر حيث وصلها متسلسلا عن فرعها الداجي على الأشعار<sup>(48)</sup>

### انعكاسات المعاهدتين على العلاقات بين البلدين:

رغم التوتر الذي ساد العلاقات بين البلدين قبل سنة 1786، إلا أن المعاهدة التي أبرمت بينهما في هذه السنة قد فتحت المجال لتحسن العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، فقد التحق العديد من القناصل الإسبان بمدينة الجزائر ووهران وعنابة ، بعدما كان الوجود القنصلي الإسباني بالجزائر منعدا من قبل بسبب حالة الحرب التي كانت سائدة بين البلدين ، ولهذا فقد استقر في مدينة الجزائر القناصل: "مانويل دي لاس هيراس" (Manuel de las Heras)

Manuel Asprer y "مانويل أسبرير إبخانير" (1786 - 1796) ،  
Miguel ) (1794 - 1079) ، "ميغويل لاريا سالسيدو"  
José ) (1802 - 1794) "خوسي ألونسو أورتيز"  
(Alonso Ortiz) (1803 - 1809).

إلى جانب هؤلاء القناصل فقد كان لهم نواب يساعدونهم في مهامهم نذكر  
منهم: ميغويل لاريا سالسيدو (Miguel Larrea Salcedo) (1787 -  
1794 - ) ، خوسي خواكين سيرارين (José Joaquine Cerain )  
(Pedro Ortiz de ) ، بيدرو أورتيز دي ثوغاستي  
(Zugasti) (1817 - 1818) ، خوان ريثو (Juan Rizo) (1819 -  
1822).

وكان في مدينة وهران قناصل ونواب قناصل نذكر منهم: القنصل خوان  
غاريدو (Juan Garrido) ( . - 1800) ، نائب القنصل خوسي  
هيغويرو (José Higuero) (1796 - 1808) ، نائب القنصل أونطونيو  
هيغويرو (Antonio Higuero) (1818 - 1822).

ولم تخل مدينة عنابة من الوجود القنصلي ، فقد مثل إسبانيا في هذه المهمة :  
بارتولومي إيسكوديرو (Bartolomé Escudero) (1793 - 1799) ،  
خوان بيغو (Juan Vigo) (1800 - 1807) ، أوغسطين كسيكلانا  
(Augustin Xiclana) (1807 - 1815)<sup>(49)</sup>.

وقد زادت معاهدة سنة 1792 التي أبرمت بينهما إثر تحرير وهران النهائي  
من الوجود الإسباني، من وتيرة العلاقات التجارية ، التي بدأت تنشط منذ إبرام  
المعاهدة السابقة الذكر(1786). حيث أقامت العديد من الشركات التجارية  
الإسبانية مراكز لها في الجزائر مثل شركة "كامبانيا" (Campana) سنة  
1792، وكانت اهتماماتها منصبه على شراء الحبوب والمواشي<sup>(50)</sup>. وشركة صيد  
المرجان الإسبانية التي باشرت نشاطها في الجزائر سنة 1791، فقد حصلت على  
حق الصيد في السواحل الجزائرية وخاصة الغربية منها. وشركة "غاريجو"  
(Garrigo) التي تهتم بشراء الجلود والصوف والشمع وكذلك الحبوب من

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية مجلة دورية دولية محكمة الجزائر. وكانت هذه الشركة إلى جانب شركة كامبانيا مسموح لهما بتصدير عملة البياستر الإسباني إلى الجزائر ، وذلك من أجل شراء السلع الجزائرية (51). أما من الجانب الجزائري فقد تولت شركة بكري وبوجناح نشاطها مع بعض المدن الساحلية الإسبانية مثل قرطاجنة وأليكانتي. من أهم الصادرات الجزائرية إلى إسبانيا هي الحبوب والمواشي والجلود والصوف والشموع ، وأهم الواردات من إسبانيا الأسلحة وأدوات النشاط البحري والمواد الغذائية مثل الشاي والسكر والبن والأقمشة. وأهم المواني الجزائرية التي كانت تصدر وتستقبل السلع من إسبانيا هي وهران أرزيو والجزائر وعنابة.

### الهوامش:

- (1) مولاي بلحميسي ، صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الإسبانية - معاهدة 1786 بين الجزائر وإسبانيا سبب إیراما ، مضمونها ، نتائجها ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد 11، جوان 1974، ص.7.
- (2) محمد أبو راس الناصري ، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، تقديم وتحقيق محمد غالم ، منشورات CRASC ، وهران ، 2008 ، الجزء الثاني ، ص.36.
- (3) بوعزيز: مفاوضات الصلح بين الجزائر وأسبانيا من خلال مراسلات الداى محمد عثمان باشا ( 1780-1787) الثقافة ، الجزائر، 1985 ، العدد: 89 ، ص.101.
- (4) ولد حوالي سنة 1739 في راوند توب (Round Top) بولاية ماريلاند بالولايات المتحدة الأمريكية، درس في أوربا في جامعة إيدمبورغ (Edimbourg) بإيقوسيا المملكة المتحدة، تولى مناصب إدارية ممثلا لبلاده في باريس وبرلين، وفي عام 1779 ذهب إلى إسبانيا وشغل منصب سكرتير مفوضية، وفي عام 1782 عين القائم بالأعمال في مدريد، وبحكم وجوده في إسبانيا أجرى مفاوضات مع الجزائر تتعلق بتحرير الأسرى الأمريكيين ، توفي في مدريد في 9 فبراير 1795، ودفن بها بالمقبرة البروتستانتية).

(5) رسالة من ويليام كارميثايل إلى هيئة المفوضين الأمريكية، مدريد ، 19 ماي 1786 .

A.H.N., Estado, leg.3617. (6)

(7) La Plaza de Oran y sus fortalezas y la Plaza de Mazalquivir que daran como estaban antes sin comunicacion por tierra con el compo de los Moros. El Dey de argel ofrece no atacarlar en ningun tiempo y encargar al Bey de Mascara que no las moleste de modo alguno para mantener la buena harmonia y amistad ostablecdad ; asi amo S.M.C. prohibira que la garnicion de dichas Plazas ataque ni insulte el compo de los moros . para asegurar mayormense lo capitulado en este articulo, se hara con el Bey de Mascara, Medianse la autoridad del Dey De Argel, un convenio sobre el arreglo de los parages hasta los quales han acostumbrado y puedan llegar los de aquellas Plazas, y sobre el de otros puntos que se juzguen convenientes para consolidar las mismas buena harmonia y amistad entre los espanoles y el campo fronterizo. A.H.N., Estado, leg., 3588.

(8) أنظر التفاصيل في : أحمد بن هطال، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري 1785، تقديم : محمد بن عبد الكريم، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004.

(9) اسمه الأصلي خوسي مونيينو ريدونديو Jose Monino (Redondo)، ولد بمدينة مورسية (Murcia) سنة 1728 ، وتوفي بمدينة

مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية مجلة دورية دولية محكمة  
إشبيلية سنة 1808 سياسي إسباني، عين سفيراً بروما في سنة 1772، وحصل  
على موافقة البابا على إلغاء طائفة اليسوعيين، تولى رئاسة الوزارة لدى الملك  
كارلوس الثالث في سنة 1777 ورأس الوزارة، قوي نظام الحكم المطلق، ونفذ  
برنامج الإصلاح الاقتصادي، وشجع السلم.

(10) يحيى بوعزيز، المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني  
(1748-1780)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص. 93.

(11) هو تاجر بريطاني من أيرلندا له خبرة كبيرة بشؤون بلدان المغرب العربي،  
وله معرفة بأساليب المعاملات مع الجزائر. ونظراً لهذه المكانة عرض نفسه ليكون  
قنصلاً لكل من إسبانيا وانكلترا في الجزائر، لكنه لم يتمكن من الفوز بهذا المنصب  
. ومن المهام التي قام بها، أنه استقر في طرابلس الغرب عدة سنوات لمزاولة  
التجارة، وفي عام 1779 انتقل إلى الجزائر، وعين قائماً بالأعمال القنصلية  
البريطانية، واشتغل مفاوضاً باسم الولايات المتحدة الأمريكية لافتداء أسراها قبل  
تعيين قنصلها جان لامب (Jean Lamb)، وظل الداي متمسكاً بهذا الرجل  
إلى غاية 1797، حيث طلب من جديد من كارلوس تعيينه قنصلاً في الجزائر،  
ومندداً بالتعليقات التي ردها، وهي عدم انتمائه إلى أسرة الملوك.

(12) بوعزيز، المراسلات، ص. 77.

(13) وهو ما نصت عليه رسالة علي خزندار إلى فلوريدا بلانكا المؤرخة في

15 نوفمبر 1786

(14) وذلك في الرسائل التي بعثها بلانكا إلى كل من حسن وكيل الحرج وعلي

آغا وإلى شخص ثالث وهي مؤرخة في 31 أكتوبر 1786.

(15) رسالة من الداي محمد بن عثمان باشا إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا،

24 أبريل 1787. بوعزيز، المراسلات ...، ص. 103.

(16) رسالة الداي محمد بن عثمان باشا إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا بتاريخ

24 أبريل 1787. بوعزيز، المراسلات ...، ص. 103.

(17) بوعزيز: مفاوضات الصلح ...، مقال سابق، صص. 115-118.

(18) بوعزيز: المراسلات ...، ص. 96.

- مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية مجلة دورية دولية محكمة
- (19) رسالة محمد عثمان باشا إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا ، مؤرخة في 15 أوت 1787. بوعزيز : المراسلات ص.114.
- (20) رسالة من وكيل الحرج حسن إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا : 28 وت 1787، بوعزيز ، مراسلات ، ص.115.
- (21) رسالة محمد عثمان باشا إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا ، مؤرخة في 4 أكتوبر 1787. بوعزيز : مراسلات صص.123-124.
- (22) كانت الدولة العثمانية تعاني الكثير من الخطر الروسي ، وخاصة أنها كانت ترغب في مد نفوذها إلى البحر المتوسط غرب البحر الأسود ، وكانت تدعي أنها وريثة الدولة البيزنطية ولها الحق في حماية المسيحيين الأرثوذكس والدفاع عن السلاف في البلقان وشرق أوروبا، ولهذا بدأت هجماتها على أملاك الدولة العثمانية منذ أوائل القرن الثامن عشر تنفيذا لسياسة بطرس الأكبر وكاترين الثانية.
- (23) ابن كارلوس الثالث ولد في مدينة بورتيشي (Portici) بمقاطعة نابولي بإيطاليا سنة 1748، ملكا على إسبانيا ما بين 1788-1808، توفي بروما سنة 1819
- (24) رسالة محمد عثمان باشا إلى كارلوس الرابع مؤرخة في 21 جوان 1789 ، بوعزيز: المراسلات ، صص. 142-143.
- (25) بوعزيز: المراسلات ، ص.61.
- (26) حمل منصب وزير أول ما بين (1782-1800) في عهد الباي علي باي والباي حمودة باشا.
- (27) يحي بوعزيز ، إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، مجلة الدراسات التاريخية ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر، العدد الرابع ، 1988، ص.57.
- (28) نفسه، ص.57.
- 29 نفسه ، ص.58.
- (30) نفسه، ص.58.
- (31) نفسه، صص.58-59.



- (32) نفسه، ص 59.
- (33) نفسه، ص 59.
- (34) نفسه، ص 59.
- (35) نفسه، ص 59.
- (36) نفسه، ص 60.
- (37) نفسه، ص 60.
- (38) سيد أحمد بلبوري، وهران وضواحيها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا لابان الاحتلال الإسباني 1505-1792م ، أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس ، السنة الجامعية 2006-2007، ص.263.
- (39) عزيز سامح الت، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ترجمة: محمود علي عامر، ط:1، دار النهضة العربية ، بيروت، ص.559.
- (40) المزارى بن عودة ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: د.يحيى بوعزيز، ط.1، دار الغرب الإسلامي، ج. 1 ، صص.264-266.
- (41) أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 492-
- 1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص.524-525.
- (42) Henri Leon Fey, Histoire d'Oran avant pendant après la domination espagnole, Adolphe Perrier, Oran, 1858, p.256.
- (43) حسن الخزناجي سابقا.
- (44) بلبوري ، مرجع سابق ، ص.258.
- (45) Al ingreso del prospero Hassan Baxa nuestro senor al mando y gobierno de la Regencia de Argel , el Rey de Espana abandona libre y voluntaviamente , y restituye a los principios de

Muharam de este ano de 1206 la plaza de Oran que ahora tine baxo su dominio , y por lo pasado pertenecia a la Regencia de Argel. Artículo 1º, A.H.N., Estado, leg., 3579.

(46) A.H.N.: Estado, leg., 3579.

(47) يرمز المفتاحان إلى المفتاحين اللذين أخذهما الكاردينال خيمينيس إلى أسبانيا رمزا لإلحاق وهران بأسبانيا . أما الجرتان من ماء وهران رمزا إضافيا ، لأن الماء رمز الحياة حسب تعبير القرآن الكريم .

(48) ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني عبدل تحقيق وتقديم ،:المهدي البوي ، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص.459.

(49)Jesus Pradells Nadal, La Expansion consular espanola en el siglo XVIII, tesis de doctorado, Universitat d'Alicant , 1988, pp. 52-53.

(50) Luis Cara del Aguilla, Les espagnols en Afrique. Les relations politiques et commerciales avec la Régence d'Alger, thèse de 3º cycle, 1974, Bordeaux, p.69.

(51) كانت عملة البياستر تشهد إقبالا عليها من قبل التجار الجزائريين نظرا لمادة صنعها من الذهب.

## ملحق

## قائمة القناصل ونوابهم ومستشاريهم في الجزائر (1786-1822)

الفترة	الإسم
1786 - 1796	مانويل دي لاس هيراس (Manuel de las Heras)
1079 - 1794	مانويل أسبرير إيخانير (Manuel Asprer y Janer)
1794 - 1802	ميغويل لاريا سالسيدو (Miguel Larrea Salcedo)
1803 - 1809	خوسي ألونسو أورتيث (José Alonso Ortiz)

1. القناصل العامون في مدينة الجزائر:

2. نواب قناصل إسبانيا في مدينة الجزائر:

الفترة الزمنية	اسم نائب القنصل
1787 - 1794	ميغويل لاريا سالسيدو (Miguel Larrea Salcedo)
( - - 1801)	خوسي خواكين سيرارين (José Jiaquine Cerain)
1817 - 1818	بيدرو أورتيث دي ثوغاستي (Pedro Ortiz de Zugasti)
1819 - 1822	خوان ريثو (Juan Rizo)

	فرانيسيسكو أورتيث ( Francisco Ortiz)
--	--------------------------------------

## 3 - مستشار القنصل في مدينة الجزائر:

الفترة الزمنية	اسم المستشار
1799 - 1787	فرانيسيسكو أورتيث ( Francisco Ortiz)

## في مدينة وهران:

الفترة	المهمة	الإسم
( - - ) 1800	قنصل	خوان غاريدو ( Juan Garrido)
1796 - 1808	نائب القنصل	خوسي هيغويرو ( José Higuero)
1818 - 1822	نائب القنصل	أونطونيو هيغويرو ( Antonio Higuero)

## في مدينة عنابة:

الفترة	الإسم
1799 - 1793	بارتولومي إيسكوديرو ( Bartolomé Escudero)
1807 - 1800	خوان بيغو ( Juan Vigo)
1815 - 1807	أوغسطين كسيكلانا ( Augustin Xiclana)



الفقه و القضاء المالكي في الجزائر خلال العهد العثماني

قراءة في مخطوطة للشيخ أبي راس الناصر المعسكري

"نظم عجيب في فروع قليل نصها مع كثرة الوقوع"

أ تقي الدين بوكعبر

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية جامعة أحمد بن بلة وهران 01

راج خلال التواجد العثماني بالجزائر كتب الفقه و فروعه و بحكم كون الجزائريين مالكيين فقد شاع المذهب المالكي بين عامة الناس و أصبح هو المرجع و أصبحت كتب الفقه المالكي من مختصر خليل و رسالة ابن زيد القيرواني و غيرهما مصدر الفتوى ، برز علماء أجراء ذاع صيتهم في المشرق و المغرب منهم الإمام الونشريسي صاحب كتاب "المعيار" و العلامة الرماصي صاحب الحاشية على شرح التتائي لمختصر سيدي خليل و أبو راس الناصر الراشدي المعسكري الذي تضلع في مختلف المذاهب حتى صار مسجده يعرف بقبة المذاهب الأربعة . ولما وقعت بين يدي مخطوطة فقهية لأبي راس الناصري رأيت أن أنشرها و هذا من باب أحياء التراث الفقهي الجزائري و التعريف بعلماء الجزائر .

لا شك أن هذا العمل يدخل ضمن الحوار بين الماضي و الحاضر و المستقبل و هو حوار مستمر لا يتوقف و به تكمم أفواه من يدعى أن أجدادنا كانوا من الجاهلية بمكان وأنهم كانوا بعيدين عن أحكام الدين بل إن تراث علماء الجزائر الضخم لأقوى دليل على عمق انصهار الجزائريين بخاصة وشعوب المنطقة بعامة في الإسلام

ثم إن تراث هذا الرجل - أبا راس الناصر - لجدير بالدراسة و التحقيق و النظر و التدقيق لما حوته كتبه من مسائل فقهية و أخبار تاريخية مجتمعا الحالي بحاجة للرجوع إليها .

### 1 التعريف بالمؤلف:

هو الإمام الحافظ الهمام و شيخ الإسلام ومفتي الأناضول أبو راس محمد بن أحمد صاحب المصنفات الشهيرة و التحقيقات الغزيرة ترجم لنفسه في كتابه فتح

الإله فقال: " فأنا عبد ربي محمد أبو راس بن احمد بن عبد القادر بن محمد بن احمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الحليل وأن هذا النسب متصل إلى عمرو بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب و فاطمة بنت رسول الله صل الله عليه واله وسلم"<sup>1</sup>.

ولد بالقرب من معسكر بين جبل كرسوط<sup>2</sup> و هونت<sup>3</sup> على ما قيده بنفسه في المصدر السابق وهذا سنة 1150 هـ الموافق لـ 1737 م في بيت علم وصلاح حيث كان أبوه احمد بن عبد القادر من القراء الماهرين مشهورا بالتقوى و الصلاح كما عرفت أمه زولة بالسحاء و الصلاح.

أخذ القرآن وأحكامه عن والده و شيوخ مسقط رأسه و أتقنها حتى أنه كان يقرئ الكبار وهو لم يبلغ الحلم بعد قال في فتح الإله: " فقرأت القرآن في حال صغري ثم قرأت أحكام القرآن و حفظتها على ظهر قلب وان كانت رحلة حملني بعض الطلبة على أكتافه ومع ذلك أني أقرئهم أسلك لهم ألواحهم "

بعد موت أبيه وأمّه تكفل به أخوه الأكبر عبد القادر إلا انه كان فقيرا جيدا مما اضطر أبا راس على التوسل في البيوت حتى يأكل و يلبس وهو صغير قال عن نفسه في فتح الإله: "وقد استمرت عشر سنين عريانا لا لباس لي إلا حرق كالعدم وما لبست نعلا إلى أن قرب صومي ولما قدرت على السعي صرت اطلب من البيوت ثم أبيع و أكسي "

رغم ظروفه القاسية إلا أنه لم ينقطع عن العلم و رحل إلى المشايخ طلبا في علو الإسناد حتى طار صيته و شددت إليه الرحال و صار مرجع زمانه و متولي خطة لقضاء محاضرة أم عسكر يفتي وفق المذاهب الأربعة و إليك ما يقوله عن نفسه في فتح الإله: " أما الذي كان يفتي الناس بالمذاهب الأربعة الشيخ عبد العزيز الدريني و شيخ الإسلام ابن جماعة المقدسي ... و مؤلف هذا الكتاب محمد أبو راس "

2 رحلاته العلمية :

خصص أبو راس الناصري الباب الثالث من كتابه فتح الإله لرحلاته العلمية و عنوانه "رحلتي للمشرق و المغرب و غيرها و لقاء العلماء الأعلام و ما جرى لي معهم من المراجعة و الكلام" امتدت هذه الرحلات عبر الجزائر و المغرب و تونس و مصر و الشام و الحجاز .

يمكن تقسيمها قسمين: قسم رحلات داخل الجزائر و قسم رحلات خارجها أما التي داخل الجزائر فتنتقل من معسكر باعتبارها مدرسته الأولى حيث منها توجه لمدرسة مازونة قال أبو راس: "ثم سافرت أول صومي لمازونة"<sup>4</sup> ثم توجه نحو الجزائر المحروسة سنة 1778 يقول عن هذه الرحلة: "فضيفني-يعني الفقيه محمد بن مالك- وجمع العلماء علي و تبادوا و سألوني أسئلة صعبا عظيمة فتفاوضنا فيها مفاوضة كبيرة إلى قرب الفجر"<sup>5</sup>. كذلك سافر الشيخ إلى قسنطينة- أو على حد تعبيره قسطينة- حيث التقى بالشيخ عبد الكريم محمد فكون و أبي العباس الشيخ محمد العباسي<sup>6</sup>.

أما رحلاته خارج الجزائر فكانت بدايتها إلى مدينة فاس سنة 1801 حيث اجتمع ببعض علمائها الشيخ منهم الطيب بن كيران<sup>7</sup> إمام أهل المغرب الأقصى في زمانه ثم ذهب إلى تونس حيث نزل عند شيخها المفتي محمد بن المحجوب<sup>8</sup> ، من تونس ركب البحر نحو مصر حيث التقى بشيخه الإمام اللغوي و المحدث صاحب التصانيف الشهيرة مرتضى الزبيدي فقرأ عليه و إستجازه فأجازه في الصحيحين و غيرها من الكتب.

كما لقي الشيخ عصمان الحنبلي في الحجاز و قرأ عليه المذهب الحنبلي<sup>9</sup> بل كانت له مناظرات مع بعض شيوخ الوهاية في الحرمين وهذا في حجته الثانية سنة 1226هـ/1811م. ثم رحل نحو الشام وناقش بعض علمائها في قضية الحبس حيث رجعوا إلى رأيه ثم رحل نحو الرملة احدي مدن فلسطين و لقي مفتيها و علمائها فاجتمع بهم و ناقشهم حول قضية الدخان و القهوة<sup>10</sup> ثم توجه إلى غزة حيث زار قبر هاشم الجدل الثالث لرسول الله صلى الله عليه و اله وسلم وناظر علمائها و ناقشهم ثم توجه نحو العريش<sup>11</sup>.



يستشف القاري من هذه الرحلات قوة علم أبي راس واعتزازه به حيث كان يناظر حيث حل و نزل و لا شك أن هذه الرحلات أكسبته رصيدا علميا كبيرا .

### 3 شيوخه:

تتلمذ أبو راس الناصر على عدد كبير من المشايخ ومن مختلف المذاهب و المشارب حتى أنه ألف في ذلك ثبت سماه "لب أفيأخي في عدة أشياخي" و أشار إلى بعضهم في كتابه "فتح الإله" من أشهرهم :  
 أ\_ الإمام محمد بن محمد مرتضى الزبيدي أبو الفيض 1145-1205<sup>12</sup> الحنفي صاحب التأليف الشهيرة منها إتخاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين وكتاب تاج العروس في شرح القاموس ، أخذ عنه أبو راس لما فقل من الحج بعضا من البخاري و بعضا من مسلم و بعض الرسالة القشيرية أي سماعا و أجازه الزبيدي في الباقي .

ب- محمد بن محمد بن احمد عبد القادر السنباوي الأزهري المشهور بالأمير 1154-1232 المالكي صاحب الشروح و الحواشي الفقهية و اللغوية و الكتب الجيدة منها كتاب المجموع و شرحه<sup>13</sup> .

ج\_ عبد الله بن حجازي الشرقاوي الأزهري 1150\_1228 الشافعي صاحب الكتب النافعة منها "فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي" .

د\_ عثمان بن عبد الله النجدي الحنبلي 1290 ت صاحب كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد أشار له أبو راس بقوله عثمان الحنبلي<sup>14</sup> .

هـ\_ عبد القادر بن عبد الله المشرفي أبو المكارم ت 1192 \ 1778<sup>15</sup> وهو من كبار شيوخ أبي راس وهو صاحب كتاب "بمحة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإيبان كبني عامر" .

### 4 تلامذته:

لما كان الحافظ أبو راس بهذه المثابة في العلم فلا غرابة أن يتلمذ على يده عدد هائل من الطلبة و إليك ما يقوله بنفسه: "حتى اجتمع عندي في بعض

السنين سبعمائة وثمانون طالبا<sup>16</sup>، و لا ينبغي أن تفوتنا فائدة ذكر بعض منهم :

أ\_ الشيخ السيد بن عبد الله سقاط المشرفي حفيد الطاهر المشرفي كان عالما فقيها وكان ممن وقع على وثيقة مبايعة الأمير عبد القادر<sup>17</sup>.

ب\_ السنوسي بن السنوسي بن عبد الله بن دحو بن زرفة وهو الذي افرده أبو راس بتدريس الفقه في حلقة خاصة لما اكتظ المسجد بالطلبة<sup>18</sup>.

ج\_ عبد القادر بن السنوسي بن دحو شقيق المتقدم فهو تلميذ أبي راس في المنقول و شيخه في المعقول<sup>19</sup>.

د\_ الشيخ محمد المصطفى بن عبد الله ابن زرفة الدحاوي كان كاتباً للباي محمد الكبير شارك في فتح وهران الثاني 1791 وعين قاضياً عليها إلى غاية 1801<sup>20</sup>.

### 5 تأليفه :

كثيرة هي تأليف الشيخ و كان الحامل له على الإعزاز حتى قال عن نفسه أنه لا يعلم أحداً أكثر تأليفاً منه إلا ما كان من السيوطي<sup>21</sup>. وقال الشيخ ابن بكار العسكري: "بلغت مؤلفاته الفائقة نحو مائة و اثنين و ثلاثين تأليفاً<sup>22</sup>

وقد ذكر أبو راس جملة من تأليفه في فتح الإله فبلغت ستين كتاباً و نيفاً و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كتاب "فتح الإله" لم يكن من أواخر ما ألف الشيخ بل الظاهر أنه ألف بعده كتباً أخرى.

الواقف على كتب أبي راس يدرك تنوع الفنون التي تطرق إليها حيث كتب في التفسير و الحديث و الأصول و الفقه و المنطق و اللغة و التصوف و الكلام و التاريخ و الأنساب و الرسم القرآني و الطب وغيرها

### 6 محنة الشيخ أبي راس الناصر :

ما كان للشيخ أن يتخلف عن سنة الله في الصالحين فامتحن مرتين في حياته الأولى خلال حروب درقاوة 1803 - 1816 حيث قال: "ثم عممتنا فتنة درقاوة و أنا لم نكن فيها كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج وقد خطبتنا فتنة

لم نكن فيها أتقياء بررة و لا أقوياء فجرة فاتصلت علينا أوامر النكبات و البليات من الخوف و الجوع و الورع الذي في الفؤاد مودوع ، و قد ناداني لسان الحال بقول دع الدفاتر للزمان الفاتر فطرحت الكتب بمترك مكان واستمر عليها النسيان حتى نسجت عليها عناكب المجران<sup>23</sup> .

المحنة الثانية كانت بسبب تأليف ألفه في النسب حيث نفى النسبة إلى الجانب النبوي الشريف عن بعض أهل المنطقة المعروفين بالشرف مما أدي إلى غضبهم عليهم و حرق كتبه ، وفي ذلك يقول صاحب القول الأحوط: "بعد موته بأمد حصل له نقتت عند أهل الراشدية و سببه أنه ألفت كتابا في النسب و صحح فيه من هو شريف من غيره فحصل الإنكار عليه"<sup>24</sup> .

### 7 تولى الشيخ منصب القضاء:

القضاء لغة هو القطع و الفصل أما اصطلاحا فيرى ابن خلدون ان القضاء هو " منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي و قطعاً للتنازع ..... بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب و السنة "<sup>25</sup> ، وعليه فالقاضي هو حاكم شرعي له دور هام في المحاكم التي تطرح فيها القضايا المتعلقة بالأهالي في مختلف الميادين سواء كانت مدنية أو اقتصادية تخص المعاملات التجارية كما أنه يلعب دورا في توجيه الوظائف الدينية و الإشراف على الأوقاف وتعيين القائمين عليها<sup>26</sup> ، و تأتي وظيفة القضاء بعد الفتوى من حيث الأهمية لذا اعتذر بعض الفقهاء عن تولى منصب القضاء إمام خوفا من عدم أهليتهم لها أو تقديرا لخطورتها<sup>27</sup> .

تقلد الشيخ أبوراس الناصر بنواحي غريس – معسكر – مهمة القضاء على يد الشيخ محمد بن مولاي على قاضي معسكر<sup>28</sup> مدة عامين ، يقول العربي المشرفي: " وكان قاضيا على أيديهم – العثمانيين – معدودا من أرباب دولتهم "<sup>29</sup> ، ثم سرعان ما عزل من منصبه هذا نتيجة فتنة درقاوة .

ويظهر أن الشيخ لما تولى منصب القضاء توقف عن التأليف نتيجة لإنشغاله بأمور الحكم و الفصل بين الناس و دليل هذا قوله: " وعدت لما كنت قد هجرت "<sup>3</sup> وذكره لقول الإمام ابن رشد القرطبي التالي: " كنت ولايني

السلطان على ابن يوسف ابن تاشفين القضاء فلم أجد سعة للتأليف لكثرة شوائب القضاء و نوائبه و شططه ومتاعبه ولما عزلني و ولي مكاني أبا القاسم بن حمدين حينئذ تفرغت للشرح العتبية المسمى بالتحصيل و البيان<sup>31</sup> ، يظهر من هذين النصين أن الشيخ ارتاح من متاعب القضاء بعد عزله و تفرغ لعملية التأليف كما هي عادته أي أن ما كان ليعود عليه بالضرر وهو العزل من هذا المنصب المهم عاد عليه بالخير .

### 8 وفاة الشيخ أبي راس الناصر :

توفي الشيخ رحمه الله يوم الأحد 15 شعبان 1238 الموافق ل 27 أبريل 1823م وقد تجاوز التسعين سنة ودفن قرب داره ومسجده حيث ضريحه المعروف به اليوم<sup>32</sup> ، وسبب وفاته كما ذكره مسلم بن عبد القادر هو مرض الطاعون الذي انتشر في تلك السنة<sup>33</sup> .

### 9 من أقوال العلماء في الشيخ أبي راس :

قال الشيخ السنوسي وهو أحد تلامذة أبي راس الناصر " كان شيخنا حافظ عصره و إمام قطره الشائع عنه أنه لا يزيد على مرة في مطالعة الدرس لما منحه الله من سيلان الذهن و سعة الخاطر "<sup>34</sup> ، وقال عنه صاحب القول الأحوط " وهو الأستاذ الإمام القدوة الأسوة الهمام الحافظ الضابط المتقن للرواية و الضوابط ذو القلم الصحيح و اللسان الفصيح الجامع المانع الخاشي الخاشع المنفرد بضوء النبراس مجد الدين القاضي الحافظ أبوراس"<sup>35</sup> ، وقال عنه صاحب كتاب ذخيرة الأواخر ما يلي : " وكانت للشيخ أبي راس المذكور اليد الطولى في التاريخ العربي و العجمي من أول الدنيا إلى آخرها وكان في علم الفروع آية و في السيرة النبوية و التاريخ حافظا و حجة رحمه الله "<sup>36</sup> .

### قسم دراسة المخطوطة :

### 1 التعريف بالنظم المحقق :

هو عبارة عن نظم فقهي يتعلق ببعض أحكام القضاء يقع في ورقة أو لوحة واحد في نسخة و في النسخة الثانية يقع في ورقتين ، وقد اشتمل هذا النظم على

تعريف بأنواع الجروح التي تحدث على مستوى الرأس وما يلزم فيها من دية أو قصاص .

لم يرد في المخطوطتين اسم لهذا النظم لكن الشيخ سماه في فتح الإله فقال: "نظم عجيب في فروع قليل نصها مع كثرة الوقوع" ونفس هذا العنوان نجده في البيتين الأول و الثاني من المنظومة

سألني بعض أولي الفروع عن أشياء كثيرة الوقوع

من التي ما نصها غالباً قليل جبهته و حسبي الله الوكيل

عدد أبيات هذا النظم ثمانية وخمسون بيتاً ابتدئها الناظم بحمد الله و الثناء عليه وختمها بالصلاة على النبي واله وهذه عاداته وعادة الكتاب و المؤلفين في تلك الفترة.

## 2\_ وصف المخطوطتين :

لإخراج هذا النظم كما وضعه صاحبه أو قريب منه اعتمدت على نسختين من خزانه الشيخ البشير رحمه الله<sup>37</sup> النسخة الأولى رمزت لها (أ) وهي التي اعتمدت عليها لوضوحها و سهولة قرأت ما كتب فيها جاءت في صفحة واحدة إلا أنها مع المقارنة مع النسخة الثانية و التي رمزت لها (ب) تنقصها الأبيات من البيت 33 إلى البيت 43 ، كما أن صدر البيت رقم 29 ساقط وكذا البيت رقم 39 فهو غير مقروء اللهم إلا كلمتين .

جاءت النسخة (ب) في ورقتين وهي بالمقارنة مع حالة النسخة (أ) في حالة سيئة حيث بالورقتين ثقب و محو الكلمات التي هي في الحواشي من جراء الرطوبة وهذا مما صعب قرأتها إلا أنها كانت جد مفيدة لتكملة المنظومة .

## 3 \_ نسبة المنظومة لأبي راس :

لا شك في نسبة هذه المنظومة لأبي راس الناصر إذ ورد اسمها في كتابه فتح الإله وورد في بداية النسخة (أ): "قال الشيخ العارف بالله المؤسس الناظم محمد أبو راس أدركنا الله ما درك بفضلته" و جاء في افتتاحية

النسخ (ب): "وبعد يقول الراجي عفو ربه المعترف بتقصيره و ذنبه و فضيح عيبه محمد أبو راس بن الناصر وفقه الله بمنه أمين " وكما يظهر هذا هو أسلوب أبي راس الناصر في افتتاحه لكتبه .

#### 4 موضوع المنظومة و قيمتها :

كما يظهر من بداية المنظومة فإن سبب تأليفها هو سؤال بعض الطلبة المهتمين بالفقه أو كما سماهم أبو راس الناصر أولي الفروع عن بعض المسائل الفقهية التي وصفها الشيخ بأنها كثيرة الوقوع لكن تأصيلها و ذكرها في كتب الفقه قليل بالمقارنة مع كثرة وقوعها و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام أبي راس بخاصة واهتمام علماء الجزائر بالفقه بعامة و الفقه المالكي بخاصة .

نعم قد كان للفقه الإسلامي مكانة خاصة لدي علماء الجزائر في العهد العثماني حيث كان يعتني بكتب الفقه مثل حواشي الشيخين الزرقاني و الحرشي ومختصر خليل لذا نبغ فقهاء عدة و يكفي الرجوع إلى ما سطره أبو راس في كتابه فتح الإله لإدراك ذلك بل كان يتفاخر الفقهاء فيما بينهم بحفظ المتون و الشروح يقول أبو راس الناصري: "وقد طار صيتي بمعرفتي المصنف—أي مصنف خليل- و تحقيقه في المشارق و المغرب" <sup>38</sup> .

يظهر من هذه المنظومة تمسكه بالمذهب المالكي عند الإفتاء خاصة وأن من استفته من مالكية و من هنا يظهر مدى مراعاة المفتي لفقه المستفتي خاصة وأن الشيخ كان ملما بالمذاهب الأربعة و يؤكد أبو راس هذه الحقيقة حين يقول : " لا تجوز الفتوى للناس بما لا يعتقدون" <sup>39</sup> .

ويظهر كذلك من خلال هذه المنظومة إحاطة أبي راس بأمهات كتب الفقه المالكي فهو يشير إلى نص الكافي و رسالة ابن أبي زيد القيرواني و بعض شروحها ومدونة سحنون و ابن فرحون وفتوى ابن سهل وفتاوى أيوب في الخفيف و ابن عرفة و البرزولي و صاحب الدرر و الحرشي وغيرها كثير .

و يظهر من هذه المنظومة كون أبو راس الناصر فقيها مجتهدا غير متحجر عما سطره الأولون و إليك نموذج من تعقيباته على من سبقه من أهل العلم:

إطلاق الخرشبي في باب الرهن كغيره ليس خال من وهن

كما نستنتج من هذه المنظومة أن السائل الذي استفتى أبا راس أقل ما يقال عنه أنه عارف بالمذهب المالكي و لو كان إنسانا عاديا لما تكلف الشيخ بسرد أقوال العلماء و مقابلة النصوص بعضها بعض فمن حكمة المفتي أن يخاطب المستفتى حسب مستواه العلمي. و ينتقد أبو راس في آخر المنظومة أحوال العلم و العلماء و يصفهم بالتساهل في الفتوى وعدم الثبوت و التدقيق في الحكم حيث يقول :

كثير فيها غلط الحكام لعدم البحث عن الأحكام

تساهلا عمتنا بما البلوى ولا تجادلوا عريض الدعوي

إن هذا الانتقاد من أبي راس لعلماء عصره غير مبرر خاصة وان سميت ذلك العصر كما أسلفنا الذكر هي الاعتناء بكتب الفقه و فروعه ولعل الغلط الذي يقصده أبو راس هو الاختلاف الفقهي في هذه القضية - قضية الجروح و القصاص - فحتى داخل المذهب الواحد المالكي هناك خلاف في بعض القضايا وقد أشار إليها الناظم.

لا بد هنا أن نشير إلى قضية التعليم و المستوي التعليمي خلال العهد العثماني فنقول و بالله التوفيق يتفق أغلب من زار الجزائر خلال العهد العثماني على كثرة المدارس و انتشار التعليم و ندرة الأمية بين السكان<sup>40</sup>. رغم ذلك يعطينا كل من تيدينا و أبو راس الناصر وجهة نظر أخرى. فيقول تيدنا واصفا حال العلم و العلماء في معسكر في عهد الباي محمد فيقول: " إنهم شعب جاهل إلى حد انه لا يوجد في معسكر وهي مدينة كبيرة نوعا ما أكثر من مئة شخص يحسنون القراءة وهذا الجهل يعطي احتراما بسيطا إلى كل من يعرف ولو حرفا واحدا من القرآن."<sup>41</sup> ، و يقول أبو راس الناصر: " إذ في زمن عطلت فيه

مشاهد العلم و معاهده و سدت مصادره و موارد و حلت دياره و مواسمه و عفت أطلاله و معامه " وإن كان كلا الرأيين يظهر انه مبالغ فيه إلا أنه يمكن توجيه كلامهما بأن التعليم الذي كان موجودا كان خاليا من التعمق في المسائل و تكوين الرأي المستقل مقتصر على اختصار المطولات و شرح المختصرات. ومقتصر على كتب الفقه و الفروع و علوم الدين عموما مهملين للعلوم الطبيعية و للطب وغيرها من العلوم العقلية التي بدأت أوربا في هذه الفترة تعمل على تطويرها نتيجة الثورة الصناعية .

كذلك غياب الحرص على تحقيق الوحدة التعليمية فكل مدرس يدرس ما شاء من الدروس و بطريقته الخاصة فاختلفت الدروس من مدرس لأخر وغاب تحقيق الموازنة بين مختلف العلوم هذه لفتت إلى أوضاع التعليم خلال العهد العثماني رأيت إدراجها كتوجيه لانتقاد أبي راس لحكام - علماء و قضاة - زمانه .

و من خلال هذه المنظومة تبرز شخصية أبي راس الناصر كقاضي فيبين متى يحلف الجاني ومتى يحلف المجنى عليه واثقا من الأحكام التي يصدرها فيقول :  
خذاها مني إليك نبذة ملفوظة من كتب بنصها مبسطة  
و يقول:

وكل هذا في الخطأ يا صاحي و في العمد القود أو الإصلاح

مما عليه للمجنى و الجاني تراضيا خذ صحة البيان

ومما يدل على شخصيته الفقهية المستقلة ترجيحه قول من قال أن لورثة المقتول أو المجرور عمدا الخيار بين القصاص أو الدية والى هذا ذهب جماعة من علماء المالكية مثل أشهب وابن المسيب ، خلافا لما ذهب إليه ابن القاسم من أنه في حالة القتل أو الجرح العمد القصاص فقط<sup>42</sup> .



إن هذه المنظومة الصغيرة لها دليل على اللقب الذي عرف به أبو راس فمن خلالها ومن خلال كثرة الآراء التي أوردها نستشف قدرته على حفظ المتون فمثل هذا التنسيق في الأفكار الذي جاء في المنظومة والانتقال السهل و السلس من كتاب إلى كتاب دليل على قدرة على الحفظ .

كما تظهر هذه المنظومة شخصيته الفقهية القوية الملمة بكل مصادر الفقه المالكي و بالتالي هذا ما أهله لاعتلاء و بلوغ منصب القضاء الذي هو بحاجة لأناس أكفاء أمثال الشيخ أبي راس الذين يصدرن أحكامهم الشرعية و القضائية انطلاقا من قواعد متينة و مؤصلة .

### النص المحقق

الحمد لله وحده و الصلاة و السلام على محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم و بعد يقول الراجي عفو ربه المعترف بتقصيره و ذنبه و فضيح عيبه محمد أبو راس بن الناصر وفقه الله بمنه أمين<sup>43</sup>

- 1- سألتني بعض أولي<sup>44</sup> الفروع عن أشياء كثيرة الوقوع
- 2- من التي<sup>45</sup> ما نصها غالبا قليل أحبته وحسي الله الوكيل
- 3- موضحة الرأس<sup>46</sup> خمسون عسجدا<sup>47</sup> فليس فيما قبلها يا ماجدا
- 4- من كل الست عوض مشهور<sup>48</sup> لمالك<sup>48</sup> وصحبه البرور<sup>49</sup>
- 5- على ما لنمري<sup>50</sup> في الكاف<sup>51</sup> اسمع هديت لمورد الكاف
- 6- و واجب في ذلك الحكومة عن اجتهاد من ذوي الحكومة
- 7- وقيل بل لها دية سامية<sup>52</sup> فسته و ربع في الدامية<sup>52</sup>
- 8- وضعفها في الحارسة و في السمحاق<sup>53</sup> إحدي و عشرون و للجاني الخاق
- 9- ثلاثون يا صاحي إرش<sup>54</sup> الباضعة<sup>55</sup> و ستة زدها عليها ناصعة
- 10- للقتلى المتلاحمة<sup>56</sup> و للغلطات<sup>56</sup> زد خمسة من ذهب معطات
- 11- وقريب من هذا ما للبايجي<sup>57</sup> و يحي حسبك طريق ناجي
- 12- وقيل فيما رسخت بصغره<sup>58</sup> ثلاثة عوض تلك العقرة
- 13- وكل هذا في الخطا يا صاحي<sup>58</sup> وفي العمدة القود<sup>58</sup> أو الإصلاح
- 14- مما عليه للمجنى و الجاني تراضيا خذ صحة البيان

- 15- لكن لبعض شراح الرسالة<sup>59</sup> في جراح العمدة هذا رسالة
- 16- مضمونها العقل كما تقدم في الخطأ إن كان القصاص عدما
- 17- وفي جراح الجسد الحكومة وأن منقلته المعلومة
- 18- و عمدتها فهو بالقصاص حر في كلها إلا لعظم الخطر
- 19- لا يسقط الطلب دون ريب وأن برا الجرح من غير عيب
- 20- كذا الخطأ الذي فيه المقدر إذ ذاك ليس<sup>60</sup> ثابت مقرر
- 21- و أما ما منه فيه الحكومة لا أدب فيه ولا حكومة
- 22- إلا إذا كان برا عن شين فاجتهاد الأرش لذاك الشين
- 23- فان لم يؤخذ قياس للجرح حتى أزيل ما بد<sup>61</sup> من قرح
- 24- فيحلف الجاني على مقداره ثم يقر بحسب إقراره
- 25- فان أبي فيحلف الجاني عليه ذا قول سحنون المعول عليه
- 26- وان رد الجرح تلو المشابكة توجه<sup>62</sup> الحلف على من شابكه
- 27- و الأدب إن كان من أهل العدا وقيل يؤخذ بذا أبدا<sup>63</sup>
- 28- ولاين فرحون يكن مصدقا إن كان في الحين به تعلق
- 29- وإن .....<sup>64</sup> من ضارب ضمن في القول لدى المهذب
- 30- وإن دمی الشخص بجرح ظاهر سجن المدعى عليه الداعي
- 31- وما لا يضر من نحو ركض ولكمة و وكضة و رضی
- 32- لا سجن إلا أن يموت المدعى بعد نجاته من عليه قد دعى
- 33- ولاين سهل<sup>65</sup> في أصح الفتوى لا يجب السجن بنقيص الدعوى<sup>66</sup>
- 34- بحسبه أيوب قال في الخفيف دعا به عن داع قبل المخيف
- 35- وظاهر بن عرفة<sup>67</sup> و البرزولي<sup>68</sup> يجعل في الحديد كي لا يجفل
- 36- وقالوا كان الجاني يجبس يدا<sup>69</sup> حتى يود أهله له الردا
- 37- و ليس يكفي قوله جرحني في اللوث إن مات ولم بين
- 38- حتى يقول هو عمدا أو خطأ هذا هو الحق و غيره خطأ
- 39- للبساطي النقل.....<sup>70</sup>.....
- 40- وأن يدوم<sup>71</sup> مرضه ودعوته للموت و إلا حبطت حجته

- 41- وأن تعدم بينهما العداوة<sup>72</sup> خذها شروطا عليها طلاوة
- 42- لكن في الذخيرة<sup>73</sup> افهم واسمعا يأتي بها تأكيد صدق المدعا
- 43- وان أصيب مجاز بين نفر ففعله عليهما فقط ظهر<sup>74</sup>
- 44- إن جهل الرامي من الجامعين وإلا أخذ من دون دين<sup>75</sup>
- 45- إن لم يكن ذا في العراك قد دخل وإلا فالأرش على الذي خذل
- 46- في...<sup>76</sup> أما في التاويل فهدر هذا الذي عليه صاحب الدرر
- 47- و باطل قولهم إن وصفه هم فعلوا ذاك به فأعرف
- 48- بعد اليمين بالراقب الشاهد لقيام الفتى مقام الشاهد
- 49- و سائق و قائد و راكب ضمنوا إن جاء من كل العطب
- 50- بهذا قيّد قول الرسالة لتصريح الإمام<sup>77</sup> بالمسألة<sup>78</sup>
- 51- وإطلاق الخرشبي في باب الرهن كغيره ليس خال من وهن
- 52- ذا في نفع إنذار الإعلان لمالك و غيره قولان
- 53- خذها مني إليك نبذة ملفوظة من كتب بنصها مبسوطة
- 54- كثير فيها غلط الحكام لعدم البحث عن الأحكام
- 55- تساهلا عمتنا بها<sup>1</sup> البلوى ولا تجادلوا<sup>2</sup> عريض الدعوى
- 56- واسأل التوفيق و الوفاق من فاطر السبع العلا الطباق
- 57- ثم السلام و أركى الصلاة على محمد فخر الصلات
- 58- ما بكت سحابة بودق<sup>3</sup> وما تبسم مريض رق

انتهى نص المنظومة

<sup>1</sup> ب : فيه

<sup>2</sup> ب : تجادل

<sup>3</sup> الودق عند جمهور مفسري القرآن هو المطر وقد وردة هذه الكلمة في القرآن

## الهامش:

- 1- أبو راس الناصر : فتح الإله و منته بالتحدث بفضل ربي و نعمته ، تحقيق محمد بن بد الكريم ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1990 ، ص 25
- 2- جبل يقع في منطقة وزغت الواقعة غرب مدينة معسكر
- 3- قرية شهيرة بين مدينة سعيدة و مدينة بلعباس بالغرب الجزائري
- 4- أبو راس الناصر : فتح الإله ، ص 19
- 5- ابو راس : المصدر السابق ، ص 91
- 6- نفسه ص ص 98-99
- 8- أبو راس الناصر : فتح الإله ، ص 102
- 9- نفسه ، ص 109
- 10 نفسه ، ص ص 119 - 120
- 11 نفسه ، ص 120
- 12 الزركلي : الأعلام ، ط 05 ، ج 07، دار العلم للملايين لبنان 1980 ، ص 70 ،
- 13 الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف ، ج 02 ، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة ، ج 02 ، ص 365
- 14 أبو راس الناصر : فتح الإله ص 85
- 15 نفسه ص 43
- 16 نفسه ص 22
- 17 يحي بوعزيز : أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر الخروسة ، طبعة خاصة ، ج 02 ، دار البصائر الجزائر 2009 ، ص 232
- 18 أبو راس الناصر : فتح الإله ص 73
- 19 نفسه ص 65
- 20 يحي بوعزيز : نفس المرجع ص 233
- 21 أبو راس \_ فتح الاله ص 182

- <sup>22</sup> بهاشمي بن بكار : كتاب مجموع الحساب و النسب ، مطبعة ابن خلدون : تلمسان 1961 ، ص 13
- <sup>23</sup> ابن سحنون الراشدي : الثغر الجمالي في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي ، الجزائر : مطبعة البعث 1973 ، ص 47
- <sup>24</sup> جورج دالفان : القول الأحوط مخطوط بمكتبتي ، اللوحة 9
- <sup>25</sup> ابن خلدون : المقدمة ، ط 03 ، منشورات دار الكتاب اللبناني بيروت 1968 ، ص 390
- <sup>26</sup> رشيدة شدرى معمر : العلماء و السلطة و العثمانية في الجزائر ، مذكر ماجستير جامعة الجزائر 2005-2006 ، ص 73
- <sup>27</sup> أبو القاسم يعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، طبعة خاصة ، عالم المعرفة الجزائر 2011 ، ص 394
- <sup>28</sup> وصفه أبو راس فقال في فتح الإله ص 42 : " جلست في حلقة شيخنا السيد محمد بن مولاي على بن سحنون قاضي أم عسكر لأقرأ الفقه "
- <sup>29</sup> العربي المشرفي : ذخيرة الأواخر و الأول فيما ينتظم من أخبار الدول ، دراسة و تعليق عبد المنعم القاسمي الحسني ، ماجستير أصول الدين جامعة الجزائر مارس 2001 ، ص 4
- <sup>30</sup> أبو راس : فتح الإله ، ص 25
- <sup>31</sup> أبو راس الناصر : فتح الإله ، ص 25
- <sup>32</sup> الاغا بن عودة المازاري : طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و اسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، دراسة و تحقيق يحي بوعزيز ، ط 01 ، ج 01 ، دار البصائر الجزائر 2007 ، ص 349
- <sup>33</sup> مسلم بن عبد القادر ، أنيس الغريب و المسافر ، ص 25
- <sup>34</sup> عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج 3 ، لبنان : دار الثقافة ، 1983 ، ص 547
- <sup>35</sup> مخطوط القول الأحوط ، اللوحة 9

36 العربي بن علي المشرفي : ذخيرة الأواخر و الأول فيما ينتظم من أخبار

الدول ، ص 4

37 لباس هنا أن ننوه بمكانة شخصية الشيخ البشير فهو البشير بن الحاج قدور بن البشير محمودي ولد الشيخ بقرية عمراوة ببلدية المناور في 3 جوان 1906 حفظ القرآن الكريم في طفولته ثم رحل طلبا للعلم إلى عدة زوايا حيث بقي بسجراة مدة خمس سنوات يدرس العلم الشرعي ثم انتقل إلى قرية قريبة من تلمسان ليتم فيها تعليمه جند في صفوف الجيش الفرنسي ضمن الخدمة العسكرية الإجبارية و تعرض للسجن مدة 10 سنوات بتهمة قتل بهائم الكولون وقطع الأشجار بعد إنهاؤها تفرغ من جديد للعلم و بدا في نسخ المخطوطات في ميادين مختلفة حيث سافر إلى مدن عديدة لا لشيء سوى لنسخ المخطوطات فتوجه نحو فاس و القيروان وجامع الزيتونة ومن بين النفائس التي يعود للشيخ البشير الفضل في الحفاظ عليها و وصولها إلينا اليوم كاملة نذكر

- مخطوط عجائب الأسفار و لطائف الأخبار فيما جري بوهران و الأندلس للمسلمين مع الكفار حيث أتم نسخه كما هو مسطر في المخطوطة يوم خمسة مارس 1962
  - مخطوط الخبر المغرب عن الأمر المغرب و الحال بالأندلس و تغور المغرب انتهى من نسخه في رجب 1266 هـ
  - الدر المهدي لغوثية أبي المهدي انتهى من نسخه في 25 سبتمبر 1961
  - المخطوطة التي نحن بصدد دراستها وان لم يشر هل نسخه هو اما لا المهم انه حافظ عليها بمكتبته
  - الدرّة الأنيقة في شرح العقيدة انتهى من نسخه يوم 24 جويلية 1961
- كما يظهر كل هذه المخطوطات هي لشيخ أبي راس الناصري و بالتالي فان للشيخ البشير محمودي فضل كبير و كبير في الحفاظ على الإرث التاريخي و الثقافي لأبي راس الناصر .

<sup>38</sup> أبو راس : فتح الإله ، ص 21

<sup>39</sup> نفس المصدر ص 158

<sup>40</sup> حول هذه النقطة يرجع إلى :

- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ط 6 ،  
دار البصائر : الجزائر ، 2009

- عميرواي حميدة : الجزائر في أدبيات الرحلة و الأسر خلال  
العهد العثماني ، دار الهدى : الجزائر ، 2003

<sup>41</sup> عميرواي حميدة : الجزائر في أدبيات الرحلة و الأسر خلال العهد

العثماني ، دار الهدى : الجزائر ، 2003 ، ص 83

<sup>42</sup> الإمام الخطاب : مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، ضبطه وخرج آياته

و أحاديثه: زكريا عميرات ، ج 8 ، مكتبة دار الباز : مكة المكرمة ، 1995 ،  
ص 295 .

<sup>43</sup> نسخة (أ) : "الحمد لله و صلى الله على سيدنا محمد و على اله و

صحابه وسلم

قال الشيخ العارف بالله المؤسس الناظم محمد أبو راس أدركنا الله ما درك  
بفضله" ، رغم أن النسخة (أ) هي التي اعتمدت عليها في تحقيق النظم إلا أني  
رأيت أن افتتاحية النسخة (ب) هي نسج الشيخ وكلامه المعهود أما ما ورد في  
النسخة (أ) فيظهر أنه من كلام ناسخ النظم و الله اعلم بالصواب .

<sup>44</sup> أ : أولوا

<sup>45</sup> أ : عني

<sup>46</sup> الموضحة هي الضربة التي كشفت عظم الرأس

<sup>47</sup> خمسون دينار ذهب

<sup>48</sup> أبو عبد الله مالك بن انس بن مالك إمام دار الهجرة و صاحب المذهب

المالكي الواسع الانتشار ولد سنة 93 هـ و توفي سنة 179 من أشهر مؤلفاته  
كتاب الموطأ انظر

- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج 8 ، مؤسسة الرسالة ، ص

ص 135\_48

<sup>49</sup> لمعرفة سيرة العلماء المالكية يرجى مراجعة : الديق المذهب في معرفة أعيان وعلماء المذهب لابن فرحون المالكي وكتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف

<sup>50</sup> الحافظ يوسف بن عبد الله بن عبد البر أبو عمرو النمري القرطبي المالكي

987-873

<sup>51</sup> ابن عبد البر النمري : الكافي في فقه أهل المدينة المالكي ، ط 2 ، دار

الكتب العلمية بيروت ، 1992 ، ص 600

<sup>52</sup> وهي الضربة التي ظهر دمها ولم يسلم

<sup>53</sup> السمحاق هي الضربة التي قارت العظم وبينها وبينه قليل من اللحم

<sup>54</sup> لأَرَشُ : الدَّيَّةُ أَي دِيَّةُ الجِرَاحَاتِ سُمِّيَ أَرَشًا ؛ لِأَنَّهُ من أسبابِ التَّنَزَعِ وقيل

: إن أصله الهَرَشُ نقله ابن فارس ومنه قول ابن الأعرابي : يقول انتظرنني حتى تَعْقِلَ فليس لك عندنا أَرَشٌ إلاَّ الأَسَنَةُ أَي لا نَقْتُلُ إنساناً فنديه أبداً . وقال أبو منصور : أصلُ الأَرَشِ الحَدَشُ ثم يُقالُ لما يُؤخَدُ دِيَّةً لها : أَرَشٌ وأهلُ الحِجَازِ يُسمُّونَه النَّدْرُ وقد أَرَشْتُهُ أَرَشًا : حَدَشْتُهُ

<sup>55</sup> وهي الضربة التي أبضعت اللحم و لم تصل إلى العظم

<sup>56</sup> المتلاحمة هي الضربة التي تغوص في اللحم غوصا بالغا و تقطعه في عدة

مواضع

<sup>57</sup> أبو الوليد الباجي هو القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن

أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي، الذهبي، المالكي إمام أشعري، وصاحب التصانيف. ولد سنة 403 وتوفي سنة 474

<sup>58</sup> القود بمعنى القصاص

<sup>59</sup> كتب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني وقد شرحها الكثيرون مثل الشيخ

صالح عبد السميع الأبي الأزهري و كتاب الثمر الداني في تفريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني وكذا كتاب الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد



القيرواني لأحمد بن غانم بن سالم شهاب الدين النفراوي الأزهري المالكي ت  
1126 هـ وكتاب قطف الجنى الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زييد القيرواني  
لعبد المحسن بن محمد وغيرها من الشروح عموما الشروح كثيرة قديما وحديثا لكن  
الأكيد هو انه يجب التريث لا العجالة في شرح الرسالة .

<sup>60</sup> ب : دين

<sup>61</sup> ب: به

<sup>62</sup> ب: مضمونه

<sup>63</sup> ب : وقيل يُوخذ به إذا برا

<sup>64</sup> مقدار ثلاث كلمات غير واضح في النسختين

<sup>65</sup> في نسخة (ب) ابن فرحون

<sup>66</sup> من 33 إلى 43 من النسخة (ب) وهو غير موجود في النسخة (أ)

<sup>67</sup> محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي أبو عبد الله ( 716\_803 هـ

/ 1316\_1400 م ) إمام تونس و عالمها و خطيبها في عصره

<sup>68</sup> الشيخ الإمام المحدث الحافظ الرحال مفيد الجماعة زكي الدين أبو عبد الله

محمد بن يوسف بن محمد بن أبي يداس البرزالي الإشبيلي ولد تقريبا سنة سبع  
وسبعين وخمسائة . انظر ترجمته : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ج 23 ، ص

55

<sup>69</sup> ب : مدا

<sup>70</sup> بقية هذا البيت غير واضح في النسخة (ب) و هو غير موجود في (أ)

<sup>71</sup> في نسخة (أ) يدمي

<sup>72</sup> ب : وان قوم تقدم بينهما العداوة

<sup>73</sup> كتاب الذخيرة في الفقه المالكي للإمام احمد بن إدريس بن عبد الرحمن

أبو العباس شهاب الدين المالكي ( ... - 684)

<sup>74</sup> ب : معا ضاهر

<sup>75</sup> أي أنه إذا جرح الرجل جماعة وجهل من جرحه فله أن يقتص ممن شاء

وهذا قول سحنون في المدونة انظر :

- المدونة الكبرى للإمام مالك بن انس رواية الإمام سحنون ،

ج 9 ، مطبعة السعادة : مصر ، 1323 هـ ، ص 372

في النسخة كلمة غير مفهومة صورتها النبغي<sup>1</sup>

<sup>76</sup> المقصود بالإمام هو ابن أبي زيد القيرواني أبو محمد عبد الله بن أبي زيد

المالكي القيرواني، واسم أبي زيد هو عبد الرحمن، سكن القيروان، وكان إمام

المالكية في وقته وقدمتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله كانت وفاته سنة

386 هـ انظر:

- الذهبي : سير أعلام النبلاء ، 10/17.

<sup>77</sup> راجع الثمر الداني في تقرب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني :

الشيخ صالح عبد السميع الأبي الأزهرى ، دار الفكر ، ص 584

<sup>78</sup> الإمام محمد بن عبد الله الخراشي المالكي 1010-1101 أول من تولى

مشيخة الأزهر له شرحان على مختصر خليل كبير و صغير كما شرح نخبة

الفكر للحافظ ابن حجر انظر الأعلام للزركلي 6/ 241

## التراث العربي المخطوط قراءة في قواعد التحقيق وثقافة المحقق.

عبد الكامل عطية

جامعة حمه الأخضر الوادي

### الملخص:

يعد التراث الحضاري لأي أمة من الأمم الأساس الذي تبنى عليه مكانتها، وتحدد به هويتها ومسيرتها، كما يتعرف من خلاله على مدى عراقتها في التاريخ، ونوعية إسهامات رجالها في حركته، ومدى تأثيرها فيه .

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهمية التراث العربي المخطوط، وهو تراث غزير متنوع وقد اكتسب موقعا مميزا في الحضارة الإنسانية بما قدمه من المعرفة، وقد كان له الفضل في المساهمة في بناء الحضارة الإنسانية ، وسنحاول في هذه الدراسة التطرق إلى النقاط الآتية: أهمية التراث العربي المخطوط و دراسة المخطوط العربي والصفات التي يتوجب أن تتوفر في المحقق ، والى جملة من الصعوبات التي تعترض سبيل المحقق في تحقيق المخطوط ونشره.

### Résumé

Le patrimoine culturel d'une nation quelconque est la base de sa position et celui qui détermine son identité et son parcours. C'est à travers de lui que se connaît l'originalité de l'histoire des peuples, mais aussi les contributions et les influences de leurs hommes sur le mouvement de cette histoire.

Cette étude a pour objectif la manifestation de l'importance de l'héritage arabe des manuscrits, car c'est un patrimoine riche et varié qui avait une place spécifique dans la civilisation humaine grâce aux connaissances à laquelle il a procurées. Il avait par ailleurs une importante contribution à l'édification de cette civilisation.

Dans cette étude, nous allons passer par les points suivants : l'importance du patrimoine manuscrit arabe, l'étude du manuscrit arabe et les qualités nécessaires pour être investigateur, et les difficultés rencontrées dans l'authentification et la publication des manuscrits.

#### مقدمة

تراثنا المخطوط آفاق فسيحة تتبلور من خلالها حضارة الأمة العربية والإسلامية، الذي يطلع على تاريخ هذه الحضارة يقف عن كثر على سعة أفاقها، وشمولها لجوانب متعددة من العلوم وآداب وفنون وعمران وآثار، وابتكارات وصناعات متنوعة فيما يتصل بالكون والحياة والإنسان، وهي حضارة مبدعة لم تدع جانباً من جوانب الحياة إلا وكان لها فيها سهم وافر، ومجال رحب، وإذا أردنا أن نجعل النظر في عطائها العلمي والثقافي نجد أنفسنا أمام حشد هائل من الكتب والمصنفات التي دونها العلماء السابقون في شتى صنوف العلم والمعرفة يقف على ما يثير العجب والدهشة لشمول واتساع التأليف عند العلماء العرب والمسلمين<sup>(1)</sup>.

والحقيقة فإن العرب لم يتركوا علما من العلوم إلا وكتبوا مخطوطات في موضوعاته بحيث باتت الحضارة العربية والإسلامية من أغنى الحضارات في العالم في مجال التراث العلمي والأدبي والثقافي، فقد بلغت عدد المخطوطات العربية الملايين بالرغم من أن مئات الآلاف منها قد احرق أو أغرق أو اندثر لأسباب تتعلق بظروف الحروب والفتن الداخلية وموجات الغزوات الخارجية على غرار ما حدث أثناء الغزو المغولي والغزو الأوربي للأمصار العربية والإسلامية<sup>(2)</sup>.

ويكفي أن نعطي نموذجا واحدا متمثلا بحرق المغول لمكتبة الحكمة ببغداد الزاخرة في العهد العباسي، وإلقاء مئات الآلاف من المخطوطات في الشوارع والأنهار وقد قيل: أن نهر دجلة قد تحول لونه إلى لون الحبر، بسبب كثرة المخطوطات التي ألقاه المغول فيه<sup>(3)</sup>.

إن الإحساس بتراثنا المخطوط هو إحساس طبيعي بالماضي وحاجة الحاضر إليه فالماضي والحاضر إذا كلالهما يستحذان على أعماق شعورنا، والإحساس بقيمة هذا التراث، والعمل على استثماره على الأصول والأسس العلمية التي يجني منها الواقع أزكى الثمار وأشهاها هو بعينه الرؤية الصحيحة للتجديد<sup>(4)</sup>.

تأتي هذه الورقة المتواضعة الموسومة بـ: **التراث العربي المخطوط** قراءة في قواعد التحقيق وثقافة المحقق. كمساهمة منا في إحياء هذا التراث الذي كان له الفضل في بناء الحضارة. وتتضمن العناصر الآتية:

- أهمية التراث العربي المخطوط.

- دراسة المخطوط العربي ( فن التحقيق )

- صفات المحقق .

### أولاً: أهمية التراث العربي المخطوط

التراث لفظ له دلالات عديدة، منها انه: ذاكرة الأمة التي تحتاج دائماً إلى الترميم والتعديل والتطوير ومن أهم دلالات اللفظ، انه يشير إلى الميراث الثقافي الذي يتركه السلف للخلف.

وكلمة تراث تعني: الميراث. وقد وردت في القرآن الكريم جامعة بين الميراث الديني والثقافي، كما في قوله تعالى في دعاء زكريا عليه السلام ﴿يَرْثِي وَيُورِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ (مريم/6)، وهذه إشارة إلى وراثة النبوة، والعلم، والفضيلة. وهناك إشارات قرآنية لوراثة الاعتقاد، والإيمان بالكتب المنزلة قبل القرآن. ومن ثم، يتضح لنا أن التراث العربي الإسلامي هو ما ورثناه عن آبائنا لكي يكون عوناً لنا في نسج خيوط الموروث مع خيوط العصر، والفائدة المرجوة من ذلك هو الحفاظ على كياننا العربي والإسلامي<sup>(5)</sup>.

يعد التراث الحضاري لأي أمة في العالم الأساس الذي تبنى عليه مكانتها، وتحدد به هويتها ومسيرتها، كما يتعرف من خلاله مدى عراققتها في التاريخ، ونوعية إسهامات رجالها في حركته، ومدى تأثيرها فيه، وتأثيرها به، فهو بهذا، إما أن يكون كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإما أن يكون كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار<sup>(6)</sup>.

ومما لا يختلف فيه أثنان أن امتنا من النوع الأول الذي ثبت أصله في أعماق التاريخ، وامتدت فروع حضارته في آفاق الأمم المختلفة، لتمسها

بنور علومها، وما كان لهذا أن يكون لولا تلك الحركة الواسعة للعلماء والمخطوطات في جميع الأصقاع والأمصار المختلفة، الإسلامية وغير الإسلامية، قريبة كانت أم بعيدة، يشون في صدور أبنائها ما آتاهم الله من علمه، ويورثون أهلها كنوزا أعيت الحذاق أن يدركوا نظيرا لها<sup>(7)</sup>.

وتراثنا العربي المخطوط يشكّل جزءا مهما من تراث الأمة العربية والإسلامية، وهو تراث غزير متنوع فقد امتد عبر حقبة طويلة من الزمن هي خمسة عشر قرنا هجرية، واكتسب موقعا مميزا في الحضارة الإنسانية بما قدمه من المعرفة التي حوتها المخطوطات العربية وكان لها الفضل في بناء الحضارة والتقدم البشري في العالم.

تنبه العالم إلى أهمية التراث العربي الإسلامي من المخطوطات فأست في الغرب كراسي الأستاذية في الجامعات لدراسة هذا التراث وأثره على الحضارة العالمية. ومن هذه الكراسي ما خصص لدراسة اللغة العربية وآدابها بصفة خاصة، أو لدراسة العلوم العربية والآثار الفكرية<sup>(8)</sup>.

ولم يدرس أي تراث مثلما درس التراث العربي الكبير، فدرس بعض المستشرقين جوانب محددة أو فترات تاريخية معينة، ومنهم على سبيل المثال المستشرق الإسباني "خوان فيرنيت خينس" فهو في طليعة الباحثين في تاريخ التراث العربي وخاصة في ما يتعلق بالأندلس، كما أنه عني بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإسبانية سنة 1952م، ومن أحدث مؤلفاته التي اهتم فيها بالتراث العربي المخطوط كتابه الذي صدر في برشلونة سنة 1996 بعنوان « من بغداد إلى برشلونة، انتقال أفكار علمية في ميدان العلوم الدقيقة بين مشرق العالم الإسلامي ومغربيه، في القرون الوسطى، إلى برشلونة » .

وكان كتابه الذي ترجم إلى العربية بعنوان: فضل الأندلس على ثقافة الغرب، من بين دراساته التي ركز فيها اهتمامه على العلوم العربية والإسلامية وانتقالها إلى الغرب وفضلها على التقدم الغربي في المجال العلمي<sup>(9)</sup>.

وقد أعجب الكثير من العلماء والمستشرقين الغربيين بعظمة التراث العربي المخطوط وأثره في الثقافة العالمية فأنهمكوا في إعداد البحوث والدراسات لإبراز هذا التراث. واعترافاً منهم بما قدمه العرب للحضارة الإنسانية. ويقول المستشرق "رينولد نيكلسون" في هذا الصدد: وما المكتشفات اليوم بالشيء المذكور لولا ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشغولاً وضاءاً في القرون الوسطى المظلمة في أوروبا. ووجد "دونكان بلاك ماكدونالد" أن الغرب تجاهل لفترة من الفترات مدى تقدم العلوم العربية الإسلامية ورأى أنه لم يقدرها التقدير الذي تستحقه، رغم ما قدمه التراث العربي للفكر الإنساني بصفة عامة ولتاريخ الحضارة والتطور العلمي.

وقد أنصف المستشرق "جورج سارتون" ( 1884 - 1956 م ) في مؤلفه الكبير «تاريخ العلم» العرب والإسلام، وتحدث عن دور الحضارة العربية في التقدم العلمي. وقد أسس مجلة في بلجيكا تدعى ISIS تخصصت في نشر دراسات ومقالات تتصل بتاريخ العلوم والحضارة الإنسانية<sup>(10)</sup>.

وقد فتح التراث العربي من المخطوطات آفاقاً لمزيد من البحث والدراسة فألفت حوله كتب عديدة في الوطن العربي لإبراز فضله على الثقافة العالمية. وإذا أردنا أن ننفذ بفكرنا ونظرنا إلى عمق هذا التراث، فإنه لا سبيل لنا إلا من خلال واحد من المسالك الثلاثة الآتية:



﴿1﴾ - من خلال الآثار الماثلة للعيان، التي تنتصب شاهدة على عصرها وحضارة أهلها.

﴿2﴾ - من خلا سلوك المجتمع وعاداته وتقاليده وتصرفاته المتنوعة، حيث يسهم الدين واللغة بقسط كبير في تشكيلها.

﴿3﴾ - من خلال المدونات على تنوع علومها، واختلاف مشارب مصنفها، وهو ما يطلق عليه اسم المخطوطات.

ويعد هذا الأخير، أولى من غيره؛ لأنه أهدى سبيلا، وأفضل دليلا، وأكثر تفصيلا، وأحسن تأويلا.

ومن هنا كان التربص به شديدا من قبل أعداء الأمة، والحاقدين على تراثها من أبنائها، إلى جانب الجاهلين بقيمته ومكانته مما زاد في الجناية عليه، ويضاف إلى هذا كله ما عملته الظروف الطبيعية على تنوع صورها وأحوالها (11).

وعلى الرغم من ذلك فإن ما بقى من هذا التراث ووصل إلينا يعد مفخرة لأمتنا، ونحن أمة لها تراث خالد ومنجزات حضارية تدعو إلى الفخر والاعتزاز، وتلك حقيقة أثبتها التاريخ ولسنا بحاجة إلى أن نسوق الأدلة على ذلك، ولكننا بحاجة إلى الوعي بان إحياء هذا التراث لا بد أن يكون مبعث فخر واعتزازنا بمنجزات الماضي ودورنا الفعال في مسيرة الحضارة الإنسانية.

وفي هذا السياق يقول الأستاذ "عبد السلام محمد هارون" رحمه الله « هذا التراث الضخم الذي آل إلينا من أسلافنا صانعي الثقافة الإسلامية العربية جدير بأن نقف أمامه وقفة الإكبار والإجلال، ثم نسمو برؤوسنا في اعتزاز وشعور صادق بالفخر والغبطة والكبرياء. إن هذه الصيحات

التي يرددها دعاء الاستعمار الثقافي يبغون بها أن ننبذ هذا التراث ونظره ورائنا ظهريا صحيحة في واد وكم لهم من محاولات يائسة يدورون بها ذات اليمين، وذات الشمال كي يهدموا هذا الصرح، ولكن تلك المحاولات لم تجد لها صدى إلا عند من أمكنهم أن يضيفوا على أنفسهم ظل الاستعباد الثقافي من ضعاف القلوب وأرقاء التفكير<sup>(12)</sup>.

وعليه إذا، يجب علينا أن نعي التراث وعيا موضوعيا علميا، ونتمكن من قراءة التراث قراءة جيدة وصحيحة تكشف عن حقيقة تكوين العقلية العربية الإسلامية، وهكذا نتلمس ملامح شخصيتنا الحضارية على نحو دقيق لا يركن إلى إصدار الأحكام الإطلاقيه العامة استنادا إلى وقائع جزئية؛ فيسعى الوعي المعاصر لاكتشاف رؤية الماضي على نحو متكامل، فيكون وعيه هذا مقدمة لفهم الحاضر وقاعدة لاستشراف المستقبل<sup>(13)</sup>.

وتراثنا المخطوط ثري بتنوعه وكمه وكيفه، وهو عند يوسف زيدان يشكل هرما بجوانبه الأربعة :

- الجانب الأول هو تناول قضايا وإشكالات التراث.
- الجانب الثاني هو فهرسة التراث المخطوط وتصنيفه لحفظه وصيانه.
- الجانب الثالث هو عرض ما في تراثنا المجهول من الأفكار والفنون حتى نتلمس التعرف عليه، والتقرب منه.
- الجانب الأخير، المهم، هو تحقيق ونشر التراث المخطوط<sup>(14)</sup>.

ولما كان المخطوط يعتبر من المصادر الهامة للتراث، لذا فان تحقيق المخطوطات ضمن منهجية صحيحة وقواعد متفق عليها يؤدي خدمة جليلة للثقافة.

ثانيا: دراسة المخطوط العربي. ( فن التحقيق )

التحقيق في اللغة هو إحكام الشيء، والتحقق هو التيقن، وحققه تحقيقا صدقه، والمحقق من الكلام الرصين وتحقق الخبر صح. والتحقيق في استخدامنا العادي هو البحث بهدف الوصول إلى الحقيقة. إذن فتحقيق الكتب هو إصدارها على حقيقتها، أو بعبارة أخرى إصدارها على الصورة التي أرادها لها مؤلفوها<sup>(15)</sup>.

وقد أطلق الجاحظ على العالم المدقق اسم المحق، فقال: « إنه لم يخل زمن من الأزمان في ما مضى من القرون الذاهبة، إلا وفيه علماء محقون، قرءوا كتب من تقدمهم، ودارسوا أهلها. فالتحقيق تصحيح الأخبار من جهة، وإثبات المسائل بأدلتها من جهة أخرى، ولذلك سمى صاحب هذا المنهج من العلماء محقا ومحققا .

والكتاب المحقق في الاصطلاح المعاصر هو الذي صح عنوانه واسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه، وهكذا فقد اشترك المعنى اللغوي للتحقيق مع المعنى الاصطلاحي القديم والحديث من جهة الإثبات والتصحيح والإحكام<sup>(16)</sup>.

والخطوات المتعلقة بالنصوص إثباتا وتصحيحا وإحكاما، كانت مجال عمل أئمة الحديث وعلومه، فكان لهم الفضل بذلك في وضع ضوابط هذا الفن، من اجل الوصول إلى نص محقق، ثم انتقل عنهم هذا المنهج إلى علماء الحضارة العربية الإسلامية بمختلف فروعها، فكانوا قدوة لغيرهم في هذا الميدان<sup>(17)</sup>.

وقد أدت كثرة المشتغلين بتحقيق المخطوطات وازدياد النصوص المحققة وتعدد أماكنها إلى وضع قواعد معينة له على أيدي علماء ثقات مبرزين من مختلف أقطار الوطن العربي، وقدموا خلاصة تجاربهم الشخصية في التحقيق، و استفاد بعضهم مما كتبه المستشرقون. وقد اشتهر من المحققين الأستاذ عبد السلام هارون (مصر) ود صلاح الدين المنجد (سوريا) ود. مصطفى جواد (العراق) صنف من جاء بعدهم من المحققين كتباً ونشروا مقالات في قواعد تحقيق النصوص ومناهجه<sup>(18)</sup>.

ويكتسب تحقيق المخطوطات، خصوصاً في مادة التاريخ، أهمية كبرى، لأن المخطوط يحتوي عادة على مادة أصيلة تصلح للبحث التاريخي. ويقوم تحقيق النص التاريخي القديم مقام التأليف نفسه، بل يعتبر أهم منه، لأن النص هو الأساس الذي يبنى عليه التاريخ، ولأن التاريخ نفسه عملية تحقيق وتدقيق، ونقد وفحص، ضمن قواعد معينة تم الاتفاق عليها<sup>(19)</sup>.

ومن هنا فإنه لا يصح أن يكون المخطوط صالحاً للحصول على درجة علمية عليا ما لم تتوفر فيه شروط أربعة هي :

﴿1﴾- أن لا يكون محققاً من قبل (لم يحقق أصلاً أو لم يتم تحقيقه علمياً).

﴿2﴾- أن تكون مادته العلمية مما يستحق التحقيق ومن ثم النشر في ما بعد.

﴿3﴾- أن يكون حجمه مناسباً، بحيث يكون النص المخطوط مع شروحه وتذييلاته، مما يسهل على القارئ مطالعته.

﴿4﴾- أن يكون له أكثر من نسخة، حتى يمكن إجراء المقابلة بينهما<sup>(20)</sup>.

والمؤلفات التي اهتمت بتناول بقواعد تحقيق النصوص، قد أجمعت على أن واجب المحقق، هو ما يلي:

### 1 - جمع الأصول الخطية، والمفاضلة بينهما لاختيار أفضلها

(بخط المؤلف، قرأت عليه، نسخت في عهده أو عهد قريب منه) وعند اختيار المحقق لمخطوط معين عليه أن يتنبه إلى أمور عدة، كما أن عليه أن يلتزم بأمر منها<sup>(21)</sup>:

- أن يأخذ حذره من أن يكون المخطوط نشرا مسبقا، وذلك بالرجوع إلى المصادر والبليوغرافيات التي تساعده في الدلالة على ذلك. وللتعرف على مكان وجود نسخ من المخطوط في مكتبات العالم عليه الاستعانة :

- بقاعدة معلومات المخطوطات العربية في العالم التي أنشأها مركز الملك فيصل المسماة "خزانة التراث" ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة الذي قام بتصوير آلاف من المخطوطات حول العالم.

- مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي حيث يتواجد في المركز نحو 30000 مخطوط مصور.

- فهرس المخطوطات.

- سؤال المتخصصين من أهل العلم الذين من الممكن أن يعطوا إجابات وافية شافية قد لا تعطيك إياها المصادر السابقة<sup>(22)</sup>.

- أن تكون ثقافة المحقق تقع ضمن دائرة موضوع المخطوط الذي يود العمل فيه.

- أن يتأكد أن للكتاب نسخاً أو نسخة على الأقل مخطوطة متوافرة  
يسهل الحصول عليها، وألا يكون من الكتب المفقودة، وان يأخذ فكرة  
عنه من الكتب التي أشارت إليه أو ذكرته<sup>(23)</sup>.

## 2 - دراسة النسخ:

تقوم هذه الدراسة على معرفة ما في النسخ من تباين في الخط،  
والعصر الذي كتبت فيه، وتوثيق هذه النسخ، لمعرفة تباينها واختلافها.

فقد نجد لكثير من النساخ مظاهر متميزة في إظهار الحرف العربي  
وكتابتها، ولعل أنجع الوسائل في معرفة قواعد إملاء ذلك الناسخ هو صنع  
معجم من قبل المحقق يقوم فيه بوضع ما يرادف رسم الحرف من إملاء  
الناسخ بما يقابله من الإملاء الحديث. وهذا مما يسهل على المحقق فك  
كثير من الحروف التي تمر به إثناء عمله<sup>(24)</sup>.

ولما كانت الحروف غير منقوطة في أصل الكتابة العربية، فقد كان  
يحدث التباس في قراءتها. ومنعا للتصحيف والتحريف جرى النساخ  
والعلماء الأقدمون، من القرن الثالث حتى السادس، أن يضعوا بعض  
إشارات على الحروف لئلا يقع التباس فيها<sup>(25)</sup>.

فمثلاً كانوا يضعون حرف حاء صغيرة فوق حرف الحاء في الكلمة  
لئلا يقرأ حاء. أو يضعون عينا صغيرة تحت حرف العين لئلا يقرأ غينا.  
وكذلك يفعلون في حرف الصاد و الطاد والداد والراء. وقد يضعون  
ثلاث نقاط تحت حرف السين لئلا تقرا شينا، لان نقاط الشين من  
فوق<sup>(26)</sup>.

## 3 - ترتيب النسخ:

بعد أن يقوم المحقق بجمع النسخ الخطية ودراستها يقوم بعملية ترتيب أفضل للنسخ، وذلك حسب الترتيب التالي:

- 1- إذا عثر على نسخة كتبت بخط المؤلف اعتبرت هذه النسخة هي الأصل الذي يعتمد على نشر كتابه، ويجب اعتماد آخر نسخة كتبها المؤلف، فقد يكتب المؤلف كتابه ثم يضيف إليه من خلال قراءاته له وتدرسه له ومراجعته إياه؛ لذلك فإن ما يمكن أن نسميه « الإبرازة الأخيرة » هي التي يجب أن تعتمد، (فتاريخ دمشق) لابن عساكر له نسختان؛ جديدة في ثمانين مجلدة، وقديمة في سبع وخمسين، ولكتاب (وفيات الأعيان) نسختان أيضا، ولكتاب (الروضتين) لأبي شامة نسختان: قديمة، وجديدة هي المعتمدة<sup>(27)</sup>.
- 2- تليها النسخة التي قرأها المؤلف أو قرئت عليه و أمر بإجازتها
- 3- ثم تأتي بعد ذلك النسخة التي نقلت عن نسخة المؤلف.
- 4- ثم النسخة التي كتبت في عصر المؤلف.
- 5- وبعدها تأتي النسخ التي كتبت بعد ذلك، يقدم الأقدم فالأقدم، لأنه كلما بعدت النسخ عن عصر المؤلف كلما زادت الأخطاء وكثر التحريف<sup>(28)</sup>.

#### 4- مؤلف وعنوان المخطوط:

من الخطوات التي يمكن إتباعها في هذه المرحلة أهمها:

1- أن يتأكد الباحث من صحة نسبة الكتاب إلى صاحبه الذي وضع اسمه عليه ومن صحة الاسم أيضا<sup>(29)</sup>.

وعندما يقع خلط في صحة نسبة المخطوط لمؤلفه فانه على المحقق أن يسلك الطرق التالية التي من الممكن أن تساعد على معرفة مؤلف المخطوط:

- معرفة تاريخ النسخ، سواء عن طريق ما هو مثبت من على المخطوط أو من خلال الخط إذ يعين ذلك الباحث على معرفة الفترة التي تلت حياة المؤلف أو عاش فيها.
- معرفة نوع الورق والحبر المستخدم في المخطوط إن تيسر له معاينة المخطوط ماديا.
- قراءة المخطوط قراءة متأنية للوقوف على الشواهد وقرائن تساعد المحقق على معرف المؤلف.
- إن لغة وموضوع الكتاب أمر مهم جدا في معرفة عصر المؤلف الذي ألف فيه كتابه، و ربما المؤلف ذاته، لاسيما عند الاستعانة بكتابي بروكلمان وسزكين وكتب الطبقات<sup>(30)</sup>.
- 2- إن كان النص من وضع المؤلف تركه كما هو، وان كان اخذ نصوصا من غيره أشار إليها في الهامش، ودل على أماكنها في المصادر التي أخذ منها<sup>(31)</sup>.
- 3- على المحقق يثبت عنوان المخطوط كما وضعه مؤلفه، ولا يتصرف في تغيير شيء من العنوان، فقد يعتمد بعض المحققين إلى وضع عنوان رئيس ثم يذكرون أسفله العنوان الأصلي .



وقد يعتمد بعضهم إلى إهمال العنوان الرئيس، والاكتفاء بما وضعه من اسم مختلق للكتاب رأى بنظره انه أليق بالكتاب، وحسب الأستاذ أياد خالد الطباع، هذا فعل شر الذين اقتربوا من هذا العمل الجليل، فادعوا التحقيق ونشر التراث<sup>(32)</sup>.

وقد يصادف المحقق أن للكتاب أكثر من عنوان، وفي هذه الحالة عليه التثبت من العنوان من خلال مقارنته ومفاضلته بين النسخ التي اعتمد عليها في تحقيق الكتاب، وما ورد للمؤلف في ترجمته من كتب الطبقات والتراجم وكشف الطنون وذيلوه<sup>(33)</sup>.

## 5- الهوامش والفهارس:

الهوامش تضم اختلافات النسخ والألفاظ التي استبعدت من المتن عند ما يتم اللفظ، كما يحتوي الهامش على تخريج الآيات القرآنية و الأحاديث الشريفة الواردة في المتن، بالإضافة إلى التعريف بالأعلام المذكورين فيه، والتعليقات الضرورية، والتعريف بالمصطلحات<sup>(34)</sup>.

أما فهارس التحقيق فهي تشمل: فهرس الآيات القرآنية، فهرس الأحاديث الشريفة، فهرس الأعلام، فهرس المصطلحات، فهرس قوافي الشعر، ويمكن وضع فهرس للاماكن والبلدان إذ كان هناك ضرورة لذلك<sup>(35)</sup>.

## 6- مقدمة التحقيق:

إن مقدمة التحقيق لها أهمية كبيرة، حيث يذكر بها قيمته، وأهميته، المعرفية والعلمية، وسبب تحقيقه ونشره، وتناول مؤلف الكتاب،

والمخطوطات التي اعتمد عليها في تحقيق النص، والمنهج المستخدم في التحقيق<sup>(36)</sup>.

## 7- ثبت المصادر والمراجع:

ولما كان المحقق قد رجع في تحقيقه للكتاب إلى مصادر ومراجع كثيرة أو قليلة، ورد ذكرها في المقدمة أو في الهوامش الموجودة في الكتاب، فمن الواجب وضعها جميعا في مسرد يعرف يعرف بمسرد المصادر والمراجع، ويوضع في نهاية الكتاب. وبعض هذه المراجع يتعلق بفن تحقيق المخطوطات، وبعضها الآخر حول فهراس المخطوطات، بينما يختص غيرها بالعلوم المساعدة التي استخدمها المحقق لإنجاز تحقيق مخطوطه<sup>(37)</sup>.

## ثالثا: صفات المحقق :

هناك جملة من الصفات الخلقية والفكرية التي لا بد أن تتوفر في المحقق الناجح يمكن أن نذكر من أهمها ما يلي:

- 1- الرغبة بالتحقيق، ومحبة موضوع المخطوط لأن ذلك يجعل الباحث يقبل على تحقيق المخطوط بكل محبة ورغبة، فتسهل عليه الصعاب التي تواجهه، ويهون عليه السهر والتعب، سعيا وراء تفسير كلمة، أو تدقيق جملة.
- 2- دقة الملاحظة والخبرة لذا فالمحقق بحاجة إلى ملاحظة دقيقة في معرفة التصحيف والتحريف، وفي تصحيح الأخطاء، كما انه بحاجة إلى خبرة واسعة بأسماء رجال العصر وواقع الحياة في

العصر الذي كتب فيه المخطوط، وكذلك بتاريخ الخط، وظروف كتابة المخطوط إذا أمكن<sup>(38)</sup>.

3- الإحساس بقيمة التراث العلمي والفكري إحساسا ينبع من الإيمان العميق بدوره الفعال في بناء حضارة الأمة عن طريق إحياء تراثها، وربط ماضيها العريق بحاضرها المشرق لتكون تألقا وتفوقا في شتى مجالات الحياة، وميادين العلم والمعرفة.

4- أن يكون المحقق على علم ودراية بموضوع الكتاب، فإذا كان الكتاب في الحديث فلا بد أن يكون للمحقق إلمام ودراية بهذا العلم، وكذلك الشأن في سائر العلوم<sup>(39)</sup>.

5- الأمانة العلمية التي تقتضي تحرير النص وتصحيحه، والاجتهاد في إخراجه على الصورة التي تمت على يد مؤلفه دون أي تصرف، أو تقويم بنقص أو زيادة دون أساس علمي يعتمد على أصول التحقيق المعتمدة عند شيوخ هذا العلم.

6- الإلمام الواسع باللغة العربية وأساليبها ومفرداتها وسائر علومها، مما يذلل كثير من الصعاب التي قد تواجه المحقق في أساليب المخطوطة ولغتها، حيث يجد من الحصيلة اللغوية ما يمكنه من تدقيق النظر، والوصول إلى الوجه الصحيح<sup>(40)</sup>.

7- الدراية بفن التحقيق حيث لا يجوز للباحث أن يشرع في تحقيق مخطوط ما، ما لم يكن على دراية بفن تحقيق المخطوطات ومنهجيته، كي يضمن إنجاز جيد، وكذلك

اختصار الجهد والوقت، إذا ما التزم بتلك القواعد والأصول<sup>(41)</sup>.

8- الصبر و الأناة وسعة الصدر فالمخطوطات، بسبب قدم عهدها، وتداولها بين أيدي ملاك كثيرين، وتناوب أكثر من ناسخ عليها، قد تكون غالباً، مطموسة في بعض كلماتها وجملها، أو متهترئة ممزقة في بعض أوراقها، أو ناقصة في أولها أو آخرها، أو فقدت بعض صفحاتها، وكل هذا يتطلب من المحقق، التحلي بالصبر والجلد وسعة الصدر، وهو يحاول أن يجد الكلمات الضائعة، أو يسعى لتفسير عبارة مغلقة، لا يجد لها أثراً في المراجع التي يلجأ إليها، وقد يمضي وراء ذلك أياماً طويلة حتى يصل إلى مبتغاه أو قريب منه. ومن مستلزمات الصبر أيضاً الأناة وطول النفس، لأن العجلة تورث السهو والخطأ، والتحقيق بحاجة إلى تدقيق وإعادة التدقيق، والمقارنة والمقابلة، حتى يشعر المحقق انه وصل إلى الكمال، أو هو أقرب إلى الكمال<sup>(42)</sup>.

في الأخير يمكن أن ننبه إلى أن العمل في ميدان تحقيق المخطوط ليس بالأمر السهل فهناك الكثير من الصعوبات التي تعترض سبيل المحقق في تحقيق المخطوط ونشره، ونذكر من هذه الصعوبات على سبيل المثال لا الحصر:

- رداءة المخطوط من حيث نوع الخط الذي كتب به. فقد يكون غير متميز أو واضح النقط والإعجام، أو مكتوباً بخط متصل فيه

- الحروف اتصالا مبالغا فيه. واخص بالذكر من ذلك المخطوطات ذات الخط المغربي أو الأندلسي.
- رداءة المخطوط من حيث التصحيف والتحريف الذي يقع فيه كاتبه، أو من حيث الأسقاط الكثيرة التي تحيل فهم النص أحيانا، أو تجعله عسيرا مستعصيا.
  - رداءة المخطوط من حيث تعرضه إلى عوامل البلى والتآكل، أو انطماس بعض كلاماته، أو اندثار بعضها بسب جهل القائمين بصناعة التجليد.
  - غرابة المخطوط في موضوعه ولغته<sup>(43)</sup>.
- هذه من أبرز الصعوبات التي تواجه محقق النص ويمكن مواجهتها بما يلي:
- أن يجمع المحقق أكبر عدد من نسخ الكتاب الذي يعالجه ويقابل بعضها ببعض مقابلة دقيقة كاملة مستوعبة.
  - أن يلجأ إلى المراجع التي يظن أن المخطوط استقى منها، أو التي يرجح أنها قد استقت منه، ويستعين في التحقيق بمقابلة هذه على تلك، ومراجعة كل منها على الأخرى.
  - أن يكون للمحقق صلة تامة بدراسة أسلوب المؤلف في ترك من آثار أخرى. وان يكون ذا معرفة وثيقة بعصر المخطوط، فإن ذلك يلقي ضوءا كبيرا على فهم المعارف التي يتضمنها المخطوط<sup>(44)</sup>.

الهوامش:

- ﴿1﴾ - عبد الله عبد الرحيم عسيلان: تحقيق المخطوطات بين الواقع والمنهج الأمثل، مطبوعات الملك فهد، السعودية ، 1994، ص 29.
- ﴿2﴾ - حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات، ط4، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2004، ص 120.
- ﴿3﴾ - نفسه.
- ﴿4﴾ - عبد الله عبد الرحيم عسيلان: المرجع السابق، ص 32.
- ﴿5﴾ - كرم أمين أبو كرم وحاتم السيد مصلحي: عاشق المخطوطات، ط1، دار الأمين للنشر والتوزيع، مصر، 2001، ص 7.
- ﴿6﴾ - عز الدين بن زغبية: لحة تاريخية عن التراث الإسلامي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ص 6.
- ﴿7﴾ - نفسه، ص 6-7.
- ﴿8﴾ - سماء زكي محاسن: دراسات في المخطوطات العربية، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، 1999، ص 9.
- ﴿9﴾ - نفسه، ص 13-14.
- ﴿10﴾ - نفسه، ص 14.
- ﴿11﴾ - عز الدين بن زغبية: المرجع السابق، ص 7.
- ﴿12﴾ - عبد الله عبد الرحيم عسيلان: المرجع السابق، ص 31.

﴿13﴾ - كرم أمين أبو كرم وحاتم السيد مصلحي: المرجع السابق، ص 16-17.

﴿14﴾ - نفسه، ص 17.

﴿15﴾ - عبد الستار الحلوجي: المخطوط العربي، ط2، مكتبة مصباح، السعودية، 1989، ص273.

﴿16﴾ - محمود مصري: تأصيل قواعد تحقيق النصوص عند العلماء العرب المسلمين، في مجلة معهد المخطوطات العربية، مج39، ج1 و2، القاهرة، مصر، 2005، ص36.

﴿17﴾ - نفسه.

﴿18﴾ - عباس هاني الجراخ: ما أُلّف في مناهج التحقيق قائمة وراقية تحليلية توثيق ودراسة، ص 1.

﴿19﴾ - عبد المنعم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، ط2، القاهرة، مصر، 1964، ص53.

﴿20﴾ - فهمي سعد وطلال مجذوب: تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، ط1، عالم الكتب، لبنان، 1993، ص20.

﴿21﴾ - كرم أمين أبو كرم وحاتم السيد مصلحي: المرجع السابق، ص54.

﴿22﴾ - إياد خالد الطباع: منهج تحقيق المخطوطات، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2003، ص 24 - 25.

﴿23﴾ - نفسه، ص 23 - 24.

- ﴿24﴾ - نفسه، ص 25 .
- ﴿25﴾ - صلاح الدين المنجد: قواعد تحقيق المخطوطات، ط7، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1987، ص 18.
- ﴿26﴾ - نفسه.
- ﴿27﴾ - إياد خالد الطباع: المرجع السابق، ص 26
- ﴿28﴾ - عبد الرحمان عميرة : أضواء على البحث والمصادر، ط6، دار الجيل، بيروت، دت، ص ص 64 - 65.
- ﴿29﴾ - نفسه، ص 66.
- ﴿30﴾ - إياد خالد الطباع: المرجع السابق، ص 29 .
- ﴿31﴾ - عبد الرحمان عميرة : المرجع السابق، ص 66.
- ﴿32﴾ - إياد خالد الطباع: المرجع السابق، ص ص 29 - 30 .
- ﴿33﴾ - نفسه، ص 30.
- ﴿34﴾ - كرم أمين أبو كرم وحاتم السيد مصلحي: المرجع السابق، ص 57.
- ﴿35﴾ - نفسه، ص ص 57 - 58.
- ﴿36﴾ - نفسه، ص ص 54 - 55 .
- ﴿37﴾ - فهمي سعد وطلال مجذوب: المرجع السابق، ص ص 47 - 48.



- ﴿38﴾ - نفسه، ص 21.
- ﴿39﴾ - عبد الله عبد الرحيم عسيان: المرجع السابق، ص ص 41-42.
- ﴿40﴾ - نفسه، ص 42.
- ﴿41﴾ - فهمي سعد وطلال مجذوب: المرجع السابق، ص 23.
- ﴿42﴾ - نفسه، ص ص 21-22.
- ﴿43﴾ - عبد السلام محمد هارون: تحقيق النصوص ونشرها، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1998، ص ص 100-101.
- ﴿44﴾ - نفسه.

## الهجرة العلمية للجزائريين نحو تونس خلال الحقبة الاستعمارية

الأستاذة: عبد النور فتيحة

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر

مقدمة:

منذ البدايات الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر ظهرت موجة من هجرات الجزائريين نحو تونس هذه الهجرات أعقبت رحيل القوات الانكشارية إلى تركيا، بعد تجردها من السلاح، وتلاها خروج الداى حسين وحاشيته وأعيان العاصمة والمدن الكبرى سنة 1830م، وكان الدافع الرئيسي لهذه الهجرات هو الرفض لسيادة المحتل الكافر على صاحب الأرض المسلم، لذا لم تكن الهجرة غاية في حد ذاتها، لكنها كانت وسيلة لجأ إليها الجزائريون نتيجة الأوضاع السيئة التي آلت إليها البلاد بسبب القهر الذي مارسه المستعمر الفرنسي على السكان، وهذا ما دفع بالعديد من الأفراد والعائلات إلى الهجرة، ولمغادرة الجزائر للالتحاق بتونس خصوصا والمشرق العربي عموما وقد تعددت أسباب ذلك، فمنهم من كانت دوافعه دينية ومنهم من كانت دوافعه علمية، إضافة إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، وفي هذا المقال سنتناول الهجرات الدينية والعلمية للجزائريين خلال الحقبة الاستعمارية.

## 1 - الدوافع العلمية لهجرة الجزائريين نحو تونس

يعد العامل الديني سببا وجيها ورئيسيا في هجرة الجزائريين، وذلك بسبب مراقبة المؤسسات الدينية ومصادرة الأوقاف، وإدارة الشؤون الدينية من طرف فرنسا، من عدل وتعيين القضاة المسلمين وتسمية الأئمة وإعلان المواسم الدينية إلى غير ذلك، استمرت في التسلط على كل الأديان في الجزائر إلى سنة 1907 م، حيث أعلنت فصل الدين عن الدولة وسحبت سلطتها عن المسيحية واليهودية واحتفظت بما بخصوص الإسلام، هذا التمييز أثار سخط الجزائريين ورأوا وتأكدوا أنه لا مستقبل لهم في بلادهم لذا ذهبوا ينشدون ملجأ لهم في الخارج.<sup>1</sup>

هاجر الجزائريون إلى تونس والمشرق الإسلامي دون غيره، لأنهم أصبحوا يشعرون بعدم الأمن على دينهم فبعضهم توجه إلى تونس والبعض الآخر إلى دول المشرق الإسلامي، ولعبت الطرق الصوفية دورا فاعلا لحركة الهجرة. فنجد "الشيخ المهدي" في بلاد الزواوة الذي أفتى سنة 1847م ونصح المسلمين بمغادرة هذه الأرض المضطهدة، وأن يهاجروا إلى الأراضي الإسلامية ليحافظوا على دينهم ودينامهم، وترتب عن هذا الحراك انتقال أكثر من ألفي عائلة من بلاد القبائل إلى سوريا، كما دعا الشيخ "سي الحاج عمار" سنة 1852م سكان القبائل إلى الهجرة إلى كل من تونس والبلاد الإسلامية في منطقة سور الغزلان وذراع الميزان.<sup>2</sup>

كما كانت الجامعة الإسلامية سببا آخر هاما من أسباب الهجرة الجزائرية، وذلك

من خلال دعاية السلطان " عبد الحميد الثاني " إلى الهجرة إلى الشرق الأدنى، وتأثير زعماء الجامعة الإسلامية مثل " الأفغاني ومحمد عبده " في نفوس الجزائريين ودعوته للإصلاح الديني<sup>3</sup>، كما كان للكتب التي تهرب من الشرق الأدنى عبر تونس إلى الجزائر دورا هاما في الدعاية للجامعة الإسلامية إضافة إلى الجرائد التي دعت الجزائريين إلى أرض الحريات والوعود مثل جريدتي "المؤيد" و "المهاجر"<sup>4</sup>، وإضافة إلى ذلك الرسائل التي كان يبعث بها المهاجرون الجزائريين في القرن التاسع عشر إلى ذويهم في الجزائر والتي كانت تصف الحرية والأخوة في الشرق الأدنى.<sup>5</sup>

ويشير "فرحات عباس" إلى أن صدى الجامعة الإسلامية في الجزائر كان سببا كافيا إلى هجرتهم إلى تونس ودول أخرى، وذلك من خلال المراسلات التي كانت بين المهاجرين الأوائل وذويهم في الداخل أو حتى في عودة بعضهم، فنسجت في أذهانهم أساطير كثيرة عن الوضعية الطيبة والمعيشة الرغدة التي يعيشها ذويهم، فلم يبق للخماس حينئذ إلا أن يقف على أثر المغامرين الأوائل ويهاجر هو أيضا المهانة والفاقة".<sup>6</sup>

من جهة أخرى يذكر "كامبون" بأن تصوير الحياة في تونس أو في الشام على أنها رغدة هو ما جعل المهاجرين يعمدون إلى التوجه هناك، وقد جاء في إحدى المراسلات: " تعالوا واقضوا بقية حياتكم في بلاد غنية بالخيرات والصلوات والاحترام، وقد وعد الله المهاجرين مكانا أفضل في الآخرة " ويذكر أيضا أن بعض

الذين هاجروا من قبل من زاوة رجعوا إلى دواويرهم الأصلية ليناشدوا إخوانهم في الدين والالتحاق بهم في تلك الأراضي المباركة.<sup>7</sup>

أما فيما يخص دوافع الهجرات العلمية فهي متنوعة، فكانت زيارة البقاع المقدسة بالحجاز، ينتج عنها ربط صلات أخوية وعلمية مع بعض المفكرين والأدباء أو الالتحاق بمعاهدها وجوامعها. كما فعل "ابن باديس" أثناء عودته للجزائر من رحلته إلى الحجاز حيث عرج على سوريا ولبنان ومصر واتصل خلالها ببعض رجال العلم والإصلاح، فكانوا يهاجرون إلى البلاد الشقيقة لينهلوا من معين جامعاتها ومراكز العلم بما يروي ضمأهم للعلوم والمعارف.<sup>8</sup>

كانت تونس المقصد الأول لطلاب العلم من الجزائريين وبالتحديد الجامعة الزيتونية ومدارسها حيث استقطبت إليها العديد من الطلبة من جهات عديدة من تبسة وعين البيضاء وقسنطينة وغيرها من مدن الشرق الجزائري.<sup>9</sup> يقول عبد الله الركيبي عن سبب هجرة الجزائريين العلمية إلى تونس: "إن دافعنا إلى الهجرة هو دافع جيل كامل بل أجيالا قبلنا تهدف إلى أن نتثقف ثقافة عربية إسلامية أصيلة، خاصة وأن التعليم المتوسط والثانوي لم يكن بالعربية ولكنه كان بالفرنسية، ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت الزيتونة ملجأ لمن حرم من ثقافته وتراثه

القومي، ولم يكن للجغرافية دخل في هذه الهجرة الى تونس فهناك التقينا بأمثالنا من شتى أنحاء الوطن".<sup>10</sup>

بدأ سفر الطلاب الجزائريين إلى تونس في آخر القرن الثالث عشر الهجري وهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانوا أفرادا قليلين منهم الشيخ "الحاج سعيد بن يوسف اليسقني" الذي رجع من تونس حوالي 1287 هـ - 1871م، تولى التدريس في ميزاب وكان ممن أنعش النهضة الميزابية الحديثة ودفعها إلى الأمام، ثم بدأت الهجرة إلى تونس تكثُر في العقد الأول من القرن العشرين لأن الكثير من العائلات الجزائرية الميسورة والمتوسطة منها فضلت إرسال أبنائها لمزاولة التعليم في الجامعة الإسلامية وبالضبط جامع الزيتونة<sup>11</sup>، ومن هاجر إليها في ذلك العهد نجد عائلة "بولحال" التي أرسلت ابنها للزيتونة سنة 1909م، وعائلة بن باديس التي أرسلت "عبد الحميد بن باديس" للدراسة في الجامعة الزيتونية والتي عاد منها سنة 1912م بعد حصوله على شهادة التطويغ، وهاجر أيضا الشيخ "الحاج الناصر كروش" وابنه "الشيخ حمو" وغيرهم، وفي النصف الثاني من القرن العشرين هاجر الشيخ "أبو اليقظان" و"الحاج عمر العنق" وتعد بعثتهما أول بعثة ميزابية اجتازت تبسة إلى تونس وكانت في شهر ماي 1914م<sup>12</sup>، وكان وادي ميزاب أسبق النواحي الجزائرية كلها في إرسال البعثات العلمية المنظمة إلى تونس، حيث بلغ عددهم بعد الحرب العالمية الأولى مئات.

وكانت لهم ديار كبيرة لسكنى التلاميذ برؤسائها الحازمين المرين وبنظامها الإسلامي الذي يكفل للتلميذ راحته وعمله وتربيته.

ويرجع الفضل الكبير في إرسال الرعيل الأول للبعثات الطلابية إلى الزيتونة إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس فبعد عودته إلى الجزائر بسنة واحدة فقط، وبرعاية وتشجيع منه وصلت أول بعثة طلابية إلى تونس سنة 1913م، حسب تقدير محمد الصالح الجابري. أما محمد علي دبوز فله رأي آخر حيث يرى أن أول بعثة طلابية كانت سنة 1917 م.

لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها لم يتمكن الطلبة من البقاء في تونس واضطروا للعودة إلى ديارهم إلى أن انتهت الحرب لتستأنف هذه البعثات طريقها إلى تونس، وكثرت الهجرة وتدفقت أفواج كثيرة من الطلبة الجزائريين، وصارت تونس هي مقصد كل من يريد الثقافة العربية الواسعة.<sup>13</sup> ومن بين طلاب العلم الذين توافدوا على مؤسسات التعليم بتونس بعد الحرب العالمية الأولى، وتخرجت بداية من سنة 1924م نذكر: محمد اللقاني ابن السائح والشيخ محمد خير الدين ومحمد العيد آل خليفة والسعيد الزاهري ورمضان حمود ومبارك المليي ومفدي زكريا وحمزة بوكوشة وأحمد توفيق المدني وغيرهم ممن عادوا إلى الجزائر ووظفوا علمهم وجهودهم لتربية الأجيال والنضال العلمي والتربوي والكفاح الثقافي بصفة عامة.<sup>14</sup>

لم يكن للجامع الأعظم بالعاصمة التونسية دورا هاما فقط في استيعاب الموفدين إليه، بل توسعت البعثات إلى فروعها المنتشرة بمعظم أنحاء البلاد وبخاصة المعاهد الزيتونية المنتصبة على طول الحدود، بدءا من مدينة توزر بالجنوب التونسي إلى مدينة بنزرت في أقصى شمال البلاد، إذ استوعبت هذه الفروع آلاف الطلبة الجزائريين الذين يأتونها من كل المدن يختصرون الطريق والمصاريف الباهظة التي كانوا يتكبدونها.<sup>15</sup>

تتابعت البعثات العلمية منذ ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931م، التي اهتمت بالتعليم والتربية كمقوم أساسي في دعوتها الإصلاحية والتربية كمقوم أساسي في دعوتها الإصلاحية واهتمامها أكثر بالبعثات الطلابية إلى العالم الإسلامي، إذ استقبلت تونس لوحدها سنة 1936م، ما يقارب 200 طالب.<sup>16</sup> ويمكن أن نشير إلى بعض خريجي الجامعة الزيتونية ومعاهدها والذين كان لهم دور مؤثر في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية في الجزائر بعد الاستقلال، وهم: أبو القاسم سعد الله وصالح خريفي وعبد الله الركبي وأبو العيد دودو والجنيدى خليفة والأخضر السائحي وعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار، فضلا عن الآلاف من ذوي الثقافات والاختصاصات والميول الأخرى من مهندسين وأطباء وقادة عسكريين ممن تكونوا في رحاب الجامعة وأدوا رسالتها الحضارية على أكمل وجه.<sup>17</sup>



هذا العطاء الذي قدمته الزيتونة للجزائر والعروبة والإسلام هو الذي حمل كل خريجها للاعتراف بفضلها وتقديرها ودورها كمعلم علمي جليل، ومن شواهد ذلك الاعتراف، نجد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي كتب مقالا بعنوان "في تونس العزيزة" يعترف بجميل تونس في تكوينه قائلاً: "... حقا إنا لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه إلا هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصد، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب لا أحد مثلهما إلا في ربوعهما، ومن نعم الله عليّ في العهد القريب أن يسّر لي التردد بين (الخضراء) و (البهجة)، وقد كانت أخرهما في تونس ذات مظهر ممتاز ومغزى سام" وكانت تلك آخر زيارة لتونس من عبد الحميد بن باديس.<sup>18</sup>

ويقول أيضا: "... وإن أنسى فلا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ بن عاشور (...)", فقد حببني في الأدب والتفقه بكلام العرب وأحسست من الشعور بعز العروبة والاعتزاز بما كما اعتزنا بالإسلام".<sup>19</sup>

أما محمد السعيد الزاهري فقد أظهر شتى عواطف الولاء والتقدير الشخصي والوطني لما قدمته الزيتونة للجزائر وأبنائها قائلاً: "إن جامع الزيتونة كان أشبه بخلية النحل في ذلك العهد الزاهر، يشتهر بأكثر من شخصية علمية وأدبية تشد الرحال إليها من الأقصي، وكانت أمهات الكتب العربية هي المورد الذي تلتقي حوله الحلقات، فكان الجامع بذلك التفاتة وفيه للتاريخ وللتراث

العربيين في أقطار ثلاثة تعاني من غزو دخيل ومن عدو مشترك، كما كان الجامع همزة وصل للنهضة الأدبية الحديثة في المشرق والدعوة الإصلاحية المتجاوبة في أرجائه، وأنا مدين لكلية جامع الزيتونة بتونس فقد تخرجت منها وأحرزت على شهادتها (شهادة التطويق)، وما تراه في الجزائر من حركة العلم والأدب والإصلاح الديني هذه أيضا مدينة للجامع الزيتونة فكثير من رجال هذه الحركة قد تخرجوا في الزيتونة وأحرزوا على شهادتها العلمية".<sup>20</sup>

وبنفس المشاعر كتب الشيخ محمد خير الدين في مذكراته قائلا : « عاشت تونس خلال مقامي بها ما بين عامي 1918م -1925م فترة خصبة عامرة باليقظة والنهضة، رأيت فيها ما لم أشاهده من قبل في حياتي الأولى بالجزائر، فأثر ذلك في تكويني وهيايتي للعمل على نهضة الجزائر في مجالين متوازيين هما: الإصلاح الديني، والإصلاح الوطني، وهكذا استفدت من اقامتي بتونس، زيادة على العلم بزد آخر سياسي واجتماعي ثري ورجعت إلى الجزائر مؤمنا بأن نهضتنا تتحقق بالعمل في المجالين السابقين إحياء الدين، وإذكاء روح النهضة بين المواطنين». <sup>21</sup>

أما المرحوم أبو القاسم سعد الله الذي عبر عن تقديره للزيتونة قائلا: « ولا أكتممكم أي عشت هذه الوحدة بكل جوارحي عشتها في الممارسة اليومية منذ دخلت تونس تلميذا سنة 1947م وعشت بآمالي منذ أصبحت طالبا

جامعياً ثم أستاذاً، عشت في معاهد تونس وديارها وأحياءها كما يعيش التونسيون أخوة مطلقة في السراء والضراء. أشاع أساتذتنا بيننا أخوة العلم والوطنية وانتظمتنا كطلاب في المظاهرات السياسية والأحزاب ... وحين رجعت إلى بلادي الجزائر سنة 1954م أحسست بحضوة كبيرة فيها وشوق جارف إلى تونس سجلتها عندئذ في شعري ومذكراتي، تذكرت عند ذلك قول المتنبي:

"خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شبيبي مومع القلب

باكيا». <sup>22</sup>

وقد سرت روح المعرفة إلى كل الأجيال الأخرى التي مثلت مختلف البعثات فضلت تعرب عن هذا الوفاء في كل المناسبات، ونجد الشباب الطالب بالزيتونة "الحبيب بناسي" الذي درس في فترة الخمسينات وساهم في الكتابة في الصحافة التونسية، حيث كتب مقال بعنوان "فضل الزيتونة على الجزائر" ويقول في ذلك: "للزيتونة والحق يقال فضل على الجزائر في الميدان الثقافي، إذ لا ينسى الناس أن الجزائر محرومة من التعليم العربي كلية، بل اللغة العربية غير معترف بها، وهي تعامل معاملة سيئة والتعليم جريمة يعاقب عليها بأبشع العقوبات". <sup>23</sup>

لما قامت الثورة الجزائرية سنة 1954م كان عدد الطلبة الجزائريين في الجامعة الزيتونية وحدها أكثر من ألف تلميذ، ولما رأى الاستعمار الفرنسي إقبال

الجزائريين على تونس، وبطولة العلماء الذين تخرجوا منها، أغلق باب تونس على الطلبة وجعل السفر إليها برخصة خاصة صعبة وكانت لا تعطى للتلاميذ، لكن ذلك لم يمنعهم من الهجرة لطلب العلم من الزيتونة وفروعها، فقد كان الطلبة يقطعون الحدود سيرا على الأقدام من جهة الجبال الصعبة التي لا يحرسها الفرنسيون لصعوبة الطرق فيها وبعدها والتوائها، ويذكر محمد علي دبوز: " أنه عندما يئس من الحصول على رخصة الذهاب إلى تونس سنة 1942م سلك الطرق الصعبة التي سلكها إخوانه الطلبة ".<sup>24</sup>

على الرغم من غلق فرنسا أبواب تونس في وجه طلبة العلم إلى أن جبهة التحرير الوطني لم تبق مكتوفة الأيدي، بل كلفت ممثلين في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بأن يسعوا على الأقل لفتح أبواب معاهد وجامعات بلدان أوروبا وأمريكا في وجه الطلبة الجزائريين، خاصة بعد إعلان إضراب 19 ماي 1956م. ونجحت في ذلك لتكون هذه النخبة النواة الأساسية لحركة التربية والتعليم في الجزائر غداة تحررها نهائيا سنة 1962م.<sup>25</sup>

عادة ما تكون الرحلة إلى تونس انطلاقا من بسكرة ومنها يمر على عدة ولايات منها: باتنة وقسنطينة وسوق أهراس وعنابة وتونس. فمثلا كان على طلبة وادي سوف لكي يسافروا الى تونس عن طريق القطار يمتطون أي مطية باتجاه بسكرة (سيارة، عربة، حمير...) ويذكر الشيخ محمد خير الدين الظروف التي

سافر فيها الى تونس قائلاً: "أمضيت العطلة الصيفية في مسقط رأسي بفرار (بسكرة) دون أن أخبر أحدا بما عزمته عليه، وما أن جاء الخريف حتى تزودت وانطلقت للسفر، كأنني ذاهب الى قسنطينة وأنا قاصد تونس، ركبت القطار وحللت بها ليلا قضيت ليلتي الأولى في أحد الأسواق التي تبيت ساهرة، وفي الصباح توجهت إلى جامع الزيتونة واكتريت به سكناً، ونظمت شؤوني الخاصة ثم دخلت الجامع فهالني ما رأيت من فروق بين الحياة العلمية في هذا المسجد العامر والحياة العلمية في مدينة قسنطينة".<sup>26</sup>

أما مولود قاسم نايت بلقاسم (1927م-1992م) فيقول عن رحلته: "سافرت إلى تونس في جانفي 1946م لمواصلة الدراسة بالجامع الأعظم وأذكر أنني قطعت الحدود بين تبسة وتالة في تونس ليلا على البغال مع تجار السوق السوداء". ويؤكد ذلك الأستاذ "محمد الشريف بن الشيخ" الذي كان رفيق دربه حين سافرا إلى تونس قائلاً: "قطعنا المسافات بين الحدود الجزائرية والتونسية على الأقدام عبر الجبال والشعاب خوفاً من الوقوع في أيدي المراقبة الفرنسية.... كانت المغامرة خير وسيلة لتحقيق هذا الطموح مهما كانت الصعاب والمشاكل فاحتملنا وصبرنا".<sup>27</sup>

## 2 - معابر الهجرة ومناطق الاستقرار

## أ - معابر الهجرة

عرفت مسارات هجرة الطلبة الجزائريين إلى تونس ثلاثة اتجاهات شرق ووسط وجنوب الجزائر، ثم تلبها منطقة الغرب وإن كانت غالبية الراغبين في الهجرة فيها قد اتجهوا نحو المغرب الأقصى لعوامل جغرافية واجتماعية، بالنسبة لمسار الهجرة الطلايية الى تونس من الناحية الشمالية والجنوبية الشرقية والجنوبية الصحراوية يقودان الى الجامع الزيتونة بصفة مباشرة وأهم المقاطعات بما قسنينطة وعنابة وسوق أهراس والقالة.<sup>28</sup>

أما الجنوب فكان يعرف بمساراته ومعابره وأهمها وادي سوف وتوقرت وبسكرة وكانت هناك علاقة وطيدة بين سكان هذه الأقاليم وسكان تونس منذ القدم عن طريق الصحراء ولهم دراية بمسالك الطرق وأولى الهجرات الكبيرة من الصحراء تحت ظروف سياسية كانت ابتداء من سنة 1874م والتي ضمت 300 جزائري قطعوا الجنوب مرورا بالجزيرة التونسية وهجرت سكان وادي سوف وتوقرت وبسكرة والتي قدرت بحوالي 2000 فرد و12000 فرد هاجرت من ميزاب.<sup>29</sup>

كما توافدت الهجرات الجزائرية إلى الكاف سواء في شكل عائلي أو عروش، فمن بلدية سطيف 63 أهلي غادروا بدون إذن، وأعلنت الإدارة عن

تنقل ثلاث عائلات أصيلي دوار بن ضياف، ومن تبسة 17 نفرا، ومن عين البيضاء 07 أنفار ومن بلدة المعاريد 25 عائلة غادرة خلصة المنطقة لكنه تم إيقافهم أثناء امتطائهم القطار باتجاه تونس.<sup>30</sup>

أما المسار الثالث الذي كان يقتصر على ارتياد الزوايا والكتاتيب والمدارس الواقعة على مقربة من الحدود الجزائرية التونسية، وهو مسار الوسط الذي تمتله مدينة تبسة بموقعها الجغرافي بين قسنطينة في الشمال ومجموع مدن الجنوب بسكرة ووادي ميزاب ووادي سوف، كان هذا المسار يتخذ كمنفذ لعبور المدن التونسية، كما كان يستقطب في نفس الوقت نماذج من المتعلمين الذين ينزحون إليها من القرى التونسية ويتصبون للتعليم أو الإرشاد.<sup>31</sup>

في هذا السياق يصف مالك بن نبي نوع البعثات التي كانت ترحل من مدينة تبسة في اتجاه مراكز التعليم بنفطة\* كما أشار إلى الطلاب الذين كانوا يأتون من نفطة لتباشر لونا من التثقيف والإرشاد الجماهيري في العشرينات بقوله: « كان في تبسة فوران من الأفكار حقا، يحفظه ويرعاه ويصونه العلماء الذين أخذوا يعودون من الشرق ( شرق الجزائر وهو تونس ) ولا يفوتنا أن نذكر أنهم كانوا يحفظون سنة من تبسة سنها شيخ من نفطة، التي كانت حينذاك في الحدود الجزائرية التونسية المركز الثقافي الذي يؤمه طلاب العلم الذين كانوا قد حفظوا القرآن على ظهر قلب في زاوية سيدي أبي سعيد، أو في زاوية سيدي عبد الرحمن

والذين لم يكونوا قادرين على القيام بدراساتهم العليا في الزيتونة في تونس. وبذلك المركز كانت الثقافة الإسلامية تشع في الجنوب القسنطيني كله وفي بداية هذا القرن كان المركز يديره شيخ خليل يسمى الشيخ سي محمد بن إبراهيم الذي كان يأتي بصورة منتظمة ليقضي فصل الصيف أي فترة العطلة في تبسة لدى صديقه القائد الصديق».<sup>32</sup>

### ب - مناطق الاستقرار

لم يقتصر استقرار المهاجرين على منطقة بعينها داخل البلاد التونسية، بل كان تفرقهم في شتى المناطق بدءاً من الجنوب حتى الشمال، وكانوا في بداية هجرتهم شبه رحل ينتقلون من مكان إلى آخر بحثاً عن الاستقرار والعيش، وكانت منطقة الجنوب الغربي أكثر المناطق في تونس ارتباطاً بالمهاجرين الجزائريين، إذ كانت منطقة العبور لأغلبية المهاجرين، مع العلم أنه لم يستقروا هناك في بداية هجرتهم سوى أعداد بسيطة، نتيجة الظروف المناخية الصعبة وندرة المياه وعدم توفر فرص العمل، استقرت في مناطق "جريش وقبلي وقابس وقفصة وجربة للعمل في خدمة الزوايا.<sup>33</sup>

في أواخر القرن التاسع عشر استقرها "أولاد سيدي عبيد" في المنطقة المحاذية لمنطقة سيدي يوسف وسكان جبال ورغة الذين شكلوا النواة الأولى



لتكوين بلدة ساقية سيدي يوسف وخلال بداية القرن العشرين شهد الجنوب التونسي حركية اقتصادية مهمة تمثلت في الشركات المنجمية في كل من " أم العرش " و " المتلوي " و " الرديف " و " المضيلة " وبهذا أتيح للجزائريين فرصا للشغل حتى بلغت نسبتهم في هذا المجال سنة 1936م 10% من مجموع العمال مقارنة بالتونسيين 40% والليبيين 50%. وبالرغم من طبيعية المنطقة الزراعية إلى أنه كان للمهاجرين نصيبا من التجارة والنشاطات العرفية فيها.<sup>34</sup>

أما استقرار المهاجرين في المناطق الوسطى والشمالية لتونس فتعود إلى بداية الاحتلال 1830م وذلك نظرا لصبغتها الزراعية وشهرتها في إنتاج الحبوب، ومثلت هذه المناطق " بنزرت "،<sup>35</sup> وبعد إخماد ثورة 1871م استقر أغلبهم في الشمال مثل جندوبة وماطر وباجة وبنزرت وبالخصوص تونس العاصمة. وفي نهاية القرن التاسع عشر هاجر سكان القبائل إلى المنطقة الشمالية والوسطى وقدروا بـ 1000 شخص وسكان القطاع القسنطيني الذين قدروا بـ 500 شخص، أما السكان العاصمة اتجهوا في الشمال الغربي وبالضبط في طبرقة والكاف وباجة.<sup>36</sup>

مع مطلع القرن العشرين توجهت إلى تونس أعداد هائلة من الجزائريين نتيجة القوانين الاضطهادية التي قام بها الاستعمار الفرنسي ضدهم مثل قانون الأهالي والتجنيد الإجباري، استقروا كذلك في القيروان وصفاقس وسوسة ونابل وقليبية وقربالية وخنقة الحجاج وزغوان ووادي الرمل والفحص وبئر مشاركة

والحمودية وحجاز الباب وباجة والكاف لوحدها كان يعيش بها 1500 مهاجر

جزائري سنة 1946 م.<sup>37</sup>

تعود كثرة الهجرة الجزائرية نحو منطقتي الشمال والوسط إلى نشاطهما الفلاحي ووجود فرص العمل والمعاملة الحسنة التي يعامل بها التونسي الجزائري، ويشاركونهم محن أهاليهم ويشدون من أزهم ويعرفون بالقضية الجزائرية. وتركز نشاط المهاجرين الجزائريين في البلاد التونسية على العمل الفلاحي المجال الأرحب الذي استوعب أعدادا هائلة من الأيدي العاملة الجزائرية بالإضافة إلى عمل المناجم وأعمال البناء والمصانع ومهن خاصة، ومع بداية فرض الحماية الفرنسية على تونس لم يعد للجزائريين عملهم الخاص بهم بل أصبحوا يخضعون لهيمنة المراقب المدني الفرنسي.<sup>38</sup> وهذا في اعتقادنا سببا في تمرد بعض العروش على الحدود الجزائرية التونسية، ونجد المصادر الموثقة في الأرشيف الوطني التونسي ANT تشير إلى أحداث شهدتها المناطق الحدودية من خلال تقرير حرر في 16 أكتوبر 1880م حول الاضطرابات على الحدود من قبل الوزير الأول التونسي مصطفى بن إسماعيل إلى الوزير الأول الفرنسي وقد جاء فيه أن بعض العروش على الحدود أحدثت هرجا ومرجا وشقت عصا الطاعة وسببت حرجا للحكومة وعلية وجب معاقبتهم على جرائمهم وتماديهم.<sup>39</sup>

بالرغم من الأوضاع القاسية التي عاشها المهاجرون الجزائريون، فإنهم لم يفقدوا الأمل، وحاولوا أن يتبنوا أساليب جديدة في مقاومة الاستعمار الفرنسي، بمشاركة إخوانهم التونسيين في الأحزاب وفي الحركات الوطنية التونسية، فانضموا تحت لوائها وأكسوها طابعا تونسيا - جزائريا، بل وتتابع تغلغلهم في الأجهزة الإدارية والتنفيذية وفي الأحزاب والصحف، كل هذا لتحقيق هدفهم البعيد، ألا وهو مكافحة الاحتلال الفرنسي.

<sup>1</sup> أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، ط4، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992، ص 121.

<sup>2</sup> عمار هلال، "المهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية"، الثقافة، العدد 82 ، الجزائر: 1984، ص 69.

<sup>3</sup> أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، ص ص 114-116.

<sup>4</sup> التليلي العجيلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي 1876-1918، دار الجنوب للنشر، تونس: 2005، ص ص 104-105.

<sup>5</sup> أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، ص ص 121 - 122.

<sup>6</sup> Abbas (Ferhat): La Colonie à la province le jeune Algérien, Paris ; 1931 , P 32-33.

<sup>7</sup> أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5 ، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1998م، ص ص 477-478.

- <sup>8</sup> خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956، ج1، الجزائر: دار البصائر، 2009، ص 297.
- <sup>9</sup> أحمد توفيق المدني، حياة كفاح مذكرات، ج 1، ط 1، في تونس 1905 - 1925، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1976، ص 87.
- <sup>10</sup> نصر الدين سعيدوني، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 480.
- <sup>11</sup> محمد علي دهبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ط 1، الجزائر: المطبعة العربية، 1391هـ - 1971م، ص 20.
- <sup>12</sup> نفسه، ص 178.
- <sup>13</sup> محمد صالح الجابري، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، الجزائر: دار الحكمة، 2007، ص 3.
- <sup>14</sup> محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م- 1962م، ط1، الدار العربية للكتاب، 1983، ص ص 36-37.
- <sup>15</sup> محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م-1962م، ص 4.
- <sup>16</sup> محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م-1962م، تونس: الدار العربية للكتاب، 1983م، ص 100.
- <sup>17</sup> محمد صالح الجابري، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1990م، ص ص 5 - 6.
- <sup>18</sup> عبد الحميد بن باديس، "في تونس العزيزة"، الشهاب، ج 5، المجلد 13، الجزائر: 1937/07/10، ص ص 225-228.

- <sup>19</sup> خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956، ج1، الجزائر: دار البصائر، 2009، ص 252.
- <sup>20</sup> صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ص 26.
- <sup>21</sup> محمد خير الدين، مذكرات، ج 1، الجزائر: مؤسسة الضحى، 2000 م، ص 8.
- <sup>22</sup> أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، ص 122.
- <sup>23</sup> الحبيب بناسي، " فضل الزيتونة على الجزائر"، الشهاب، العدد 125، الجزائر: 27 أكتوبر 1927م.
- <sup>24</sup> محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ط1، المطبعة العربية، الجزائر: 1971، ص 20.
- <sup>25</sup> يحيى بوعزيز، "أوضاع التعليم في الجزائر خلال الثورة (1954م-1962م)"، مجلة الهداية، العدد 160، تونس: سنة 29 أبريل 2004 م، ص 80.
- <sup>26</sup> محمد خير الدين، مذكرات، ج 1، ص 66.
- <sup>27</sup> خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900م-1956م، ج1، ص 978.
- <sup>28</sup> نفسه، ص 268.
- <sup>29</sup> نفسه، ص 271.
- يوسف الجفالي، " الجالية الجزائرية بجهة الكاف من 1881-1929، مذكرة للكفاءة في البحث، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس: 1992م-1993م، ص 168.

<sup>31</sup> محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م-1962م، ص 39.

\* نطفة : إحدى قرى واحات الجنوب التونسي المتاخمة للحدود الجزائرية، تشتهر بنشاطها العلمي، وبانتساب عدد من الشعراء والكتاب إليها في الماضي والحاضر.  
<sup>32</sup> مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ج 1، ترجمة: مروان القنواطي، بيروت،

لبنان : دار الفكر، 1969م، ص 134.

<sup>33</sup> خير الدين شترة، المرجع السابق، ج 1، ص 273.

<sup>34</sup> نفسه، ص 274.

<sup>35</sup> أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1998م، ص 475.

<sup>36</sup> يوسف الجفالي، المذكرة السابقة، ص 47.

<sup>37</sup> خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900م-1956م، ج 1، ص ص 276 - 277.

<sup>38</sup> نفسه، ص 284.

<sup>39</sup> ANT, FA 1881/H/0215/Référence, 0299.

دور الوعي التاريخي في بناء المقاومة الثقافية للمجتمع الجزائري: قراءة في

فلسفة التاريخ لأبي القاسم سعد الله-رحمه الله-

أ. سامية مرابطين / المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة.

يعتبر علم التاريخ ذلك الفرع من المعرفة الإنسانية الذي يستهدف استقراء أحداث الماضي وتحقيقتها وتسجيلها محاولا إبراز الترابط بينها وتوضيح العلاقات القائمة بينها، فكان بذلك الذاكرة القومية للفرد والمجتمع على حد سواء، ولن تتأسس هذه القيمة إلا بما تقدمه فلسفة التاريخ من قراءة كلية واعية تستنبط المعنى من جملة الأحداث التاريخية الجزئية لتؤكد دور الوعي التاريخي في تكريس ثوابت المجتمع وأسس وجوده وتفتح الطريق أمامه لاستشراف المستقبل وتحقيق التقدم والرفي.

ونظرا لهذه الأهمية لم يغفل مؤرخو الجزائر تأكيد دور الوعي التاريخي في تشييد المقاومة الثقافية الى جانب المقاومة العسكرية والمسلحة وتكريس مرتكزات شخصية المجتمع الجزائري ومقوماته، ومن بين هؤلاء شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله (1930-2013) الذي ما فتئ يردد في كتاباته وأبحاثه ضرورة فهم تاريخ الجزائر وأخذ العبر منه، وهذا لن يتم في نظره إلا بالوعي التاريخي، ولمعالجة هذا هذه القضية الفكرية جاءت هذه الورقة البحثية لتتوغل في أعماق فلسفة التاريخ عنده، لذا فالإشكال المطروح: كيف يساهم الوعي التاريخي في تشكيل المقاومة الثقافية من منظور أبي القاسم سعد الله؟ وأين تتجلى مظاهر المقاومة في فلسفة التاريخ عنده؟

أولا: مفهوم المقاومة الثقافية والوعي التاريخي وتجلياتها في كتابات شيخ

المؤرخين الجزائريين.

لاجدال في أن ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات هو ذلك الوعي بتاريخه وقدرته على تسجيل الأحداث التاريخية ومراجعتها لتوظيفها حاضرا والاستفادة منها مستقبلا وهنا بالتحديد تنكشف لنا أهمية التاريخ في أنه يساعدنا على إدراك

ماهيتنا التاريخية وفهم عمق حضارتنا وأمتنا والاستفادة من هذا في صنع الأفضل والأرقى.

وفي الحقيقة لا يمكن الاستفادة من هذه الأهمية إلا بعد تقديم الأحداث التاريخية في صورة كلية مشوقة وجاذبة للعقل الإنساني وباعثة للوعي التاريخي تتجسد من خلالها معالم نظرية فلسفية للتاريخ، استطاع من خلالها الفلاسفة فهم الحاضر واستشراف المستقبل على ضوء الماضي، فشكل هذا نوعاً من السند الفكري والمقاومة الثقافية التي يستند إليها الإنسان لتجاوز مختلف العراقيل التي تواجهه في الحياة.

وإذا شاع بين الكثير منا أن المقاومة لا تخرج عن نطاق الحروب والصراعات العسكرية فإن المقاومة الثقافية أعظم شأنًا وأكثر فعالية من الأنواع البدائية الأخرى، كونها تركز على الوعي الإنساني والقدرة على توظيف السندات الثقافية والتاريخية المختلفة، لذا فإن المؤرخ المتميز هو الذي يحسن تقديم قراءة فلسفية لأحداث التاريخ الماضية يتمحور حولها الوعي التاريخي للأفراد والمجتمعات على حد سواء.

ولقد تفتن العديد من الباحثين لأهمية الوعي بالتاريخ في إدكاء فتيل المقاومة الثقافية لمواجهة مخاطر الاستعمار الثقافي وتحديات الغزو الثقافي الذي مافتى ينخر في هوية الفرد والمجتمع، ومن بين هؤلاء نجد المفكر الجزائري وشيخ المؤرخين الجزائريين أبا القاسم سعد الله -رحمه الله- (1930\_2013) الذي ما توقف في مشروعه الفكري الضخم يلح على ضرورة الاستفادة من التاريخ وتوظيفه في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية، فنجدته يفتتح كتابه "بحوث في التاريخ العربي الاسلامي" واصفا الهموم التي تؤرقه كباحث في التاريخ قائلاً: "إنها بحوث تحمل هموما تقض مضجع كاتبها، وهو يحاول فهم ما كان عليه العرب والمسلمون من منعة وقوة وتأثير، وماهم فيه اليوم من استباحة وضعف وخذلان"<sup>1</sup>.

وقبل التوغل في عرض تحليلات الوعي التاريخي في كتابات سعد الله وجب علينا التوقف أمام المقصود بالوعي التاريخي، إذ يعرف هذا الأخير بأنه "التبصر الدائم



بالتاريخ القريب والبعيد الذاتي والموضوعي الحاصل أي التبصر من خلال التوغل المركز في قراءة صفحات التجارب البشرية الكثيرة والمتنوعة وفحصها وتدبر أبعادها وخلفياتها، واكتشاف المؤثرات التي ساهمت في بعثها وإيجادها قصد التزود والاعتبار<sup>2</sup>، فالملاحظ إذن أن الاهتمام بدراسة التاريخ والتفنن في الكتابة التاريخية يساعدان في حفظ الأمة من الاستلاب والتلاعب بمقومات هويتها الوطنية.

ولقد ظهر الوعي التاريخي بمرحلة حاسمة في تاريخ البشرية في القرن 19، حيث ظهرت في هذا القرن الدولة المعاصرة بمقوماتها الأساسية ومهامها الجديدة التي تضطلع بها والأهداف الأساسية التي حددتها لتطوير مجتمعاتها، وتزامن مع نمو هذا الوعي تغيير على الكتابة التاريخية وعلى فن التأريخ الذي غدا من بين العلوم الانسانية، بمنهج وموضوع وأدوات بحث متميزة.

وتتحلى قيمة الوعي التاريخي إلى كون التاريخ معرفة وتجربة، فالتجربة الإنسانية متواصلة ومتصلة الحلقات، ويعبر عن أحد مقومات الشخصية، حيث أن الفهم الصحيح لمجريات وأحداث التاريخ يعين على بناء الشخصية السوية ووقايتها من الذوبان، فالتاريخ هو الذاكرة القومية، والأمة التي لا تاريخ لها أمة ضائعة في مرحلة صراع وعدم استقرار وهنا تنبني المقاومة الثقافية التاريخية.

ولقد عمل الكثير من المؤرخين الجزائريين على كتابة التاريخ الوطني، وعلى رأس هؤلاء الشيخ مبارك الملي، وأحمد توفيق المدني، وعبد الرحمن الجيلالي وغيرهم، وكانت كتاباتهم ذروة تطور الوعي بالتاريخ الجزائري في تلك المرحلة. ولقد حمل الدكتور سعد الله المشعل في هذه المرحلة المعاصرة مؤكدا على ضرورة التركيز على كتابة تاريخ الجزائر بكل نزاهة وموضوعية، فخط بذلك معالم مدرسة تاريخية جزائرية بمنهج عصري ولسان عربي وروح إسلامية مغدأة بوطنية أصيلة، لتقف في وجه عواصف المشككين في الوحدة التاريخية والهوية الوطنية وفك الارتباط الوثيق

بمخلفات الاحتلال الفرنسي ومخططات المستدمر للقضاء على تاريخ الوطن إذ يقول:

"... فلاكتف هنا بدعوة المؤرخين ولاسيما طلاب التاريخ في المعاهد والجامعات إلى الاهتمام بتاريخ الأمة العربية الاسلامية في شموليته وإلى إعادة النظر في المعطيات التاريخية التي يقدمها الآخرون عنا، وإلى التسلح بالمناهج العلمية لمواجهة تحديات المرحلة"<sup>3</sup>، لقد كانت هذه دعوة من صاحب كتاب "مسار قلم" إلى ضرورة الاهتمام بكتابة تاريخ الجزائر وتاريخ الامة الاسلامية بصفة عامة قبل أن يتعرض للتشويه والتزييف، وهي دعوة ما فتئت تتكرر في معظم مؤلفاته— إن لم نقل— كلها لتعبر عن ذلك الهم الذي كان يحمله رحمه الله خوفا من ضياع تاريخ الجزائر إذ يقول "إن اهتمامنا بقضايا التاريخ قد لا يكون هو نفس اهتمامات المثقفين في المشرق، يرجع ذلك إلى أن تاريخ الجزائر قد تعرض إلى تشويه فظيع على أيدي كتاب "المدرسة الاستعمارية" في غياب مدرسة وطنية موازية، وحين حصلنا على استقلالنا كان علينا أن نصفي تاريخنا من روح الاستعمار وأن نلجأ في ذلك إلى العلم والمنهجية واللغات الأخرى، لأن مؤرخي الاستعمار قد استعملوا كل ذلك ضدنا"<sup>4</sup>.

لقد أراد سعد الله في مشروعه الفكري أن يؤسس لنظرية فلسفية في التاريخ تقوم على مرتكزين أساسيين: أولها: تشريح حالة الانحلال والتدهور التي تطبع تاريخ وطننا وأمتنا على حد سواء وهو ما يهدد كيانها ويجعلها عرضة للاضمحلال والزوال فأكد في أكثر من مناسبة أن مقاومة مخلفات الحركة الاستعمارية في التاريخ لن يكون إلا ببرز نخبة من المثقفين والمفكرين الجزائريين الذين يشرحون الحقائق التاريخية بكل موضوعية بالتركيز على التاريخ الجماعي والابتعاد عن التعظيم والتفخيم لفرد أو حزب أو أسرة ما، أما المرتكز الثاني فقائم في قلبه— رحمه الله— على المستقبل، فمن أبجديات فلسفة التاريخ أن المستقبل مرتبط بالماضي عن طريق الحاضر ارتباطا عضويا ولا يمكن للتاريخ أن يصل إلى مرتبة

الوعي الفلسفي دون وعي بالمستقبل، وهذا بدوره يشير الجزع على المصير، ويتجلى هذا في قوله "من الأكيد أن الذي لا يتقدم يتأخر بالمفهوم الحضاري الجدلي، وسوف نحتاج إذا لم نغير بأنفسنا إلى نوع آخر من الاستعمار وربما أشد عنفا وربما ليقهرنا باسم الصداقة والتعاون تارة وباسم العولمة والتبعية تارة أخرى".<sup>5</sup> وكان رحمه الله مستاء من وضع الكتابة التاريخية مما يهدد وجودنا إذ يقول "الجزائريون من الشعوب التي عزفت عن الكتابة كهواية، ومن ثمّة لم يحذقوها صنعة...، فينما نجد لهم مواقف بارزة في البطولة والدفاع عن النفس وأدوارا في الحضارة، فإنهم لم يكونوا يهتمون بتسجيل ذلك لأحفادهم فيضيع خبرهم ويدركه النسيانويتراكم عليه الضباب وتعمل فيه يد المسخ والتشويه من طرف أعدائه"<sup>6</sup>

إن هذا القلق على المستقبل هو الذي عبر عنه سعد الله بالهموم إذ يقول "إن هذه الهموم هي التي استفزت القلم الذي كتب البحوث وهي التي حركت نبض كل حرف فيها، فالشريط الذي نشاهده منذ عدة عقود ولا يزرع إلا اليأس ولا يقود إلا إلى الإحباط، ورغم ذلك فإن كاتب هذه البحوث لم يكن أبدا متشائما في نظرته إلى المستقبل العربي الإسلامي"<sup>7</sup>.

يظهر لنا من هذه الأمثلة وغيرها أن شيخ المؤرخين الجزائريين كان يهدف إلى تعزيز الوعي التاريخي في ذهن كل جزائري من جهة والتركيز على الكتابة التاريخية الموضوعية من جهة ثانية، وهذه المهمة لا توكل إلى المؤرخ فقط بل إلى كل مواطن معترز بانتمائه ووطنيته إذ يقول "فالقول أن كتابة التاريخ من عمل المؤرخين وحدهم هو قول خاطئ في نظري، إن الكتابة التاريخية قدر مشترك بين جميع المواطنين، ولكن كل فئة منهم لها دورها وتفسيرها وموقفها من الأحداث، وهذا هو الفرق بين المؤرخ وغيره"<sup>8</sup>.

ثانيا: تحليل معالم الوعي التاريخي عند أبي القاسم سعد الله:

لم يؤسس أبو القاسم سعد الله نظرية في فلسفة التاريخ كباقي النظريات المعروفة، إلا أن معالمها بدت واضحة جلية من خلال طرحه لإشكالية الوعي التاريخي في كذا مرة، لأنه كان يؤمن أنه لا سبيل لمقاومة الاستعمار والمخاطر المعاصرة إلا بالتعبئة التاريخية والمقاومة الثقافية على حد سواء، وفي حوار له نشرته جريدة الحقائق الأسبوعية حلل سعد الله واقع الثقافة التاريخية في الجزائر قائلا:

"لدي شعور تدعمه الشواهد والمعاشة وهو أن الجزائري يمر بمرحلة اكتشاف الذات فهو لم يدرس تاريخ الجزائر الشامل، ولا تاريخ العرب والإسلام ولا تاريخ العالم، وتكاد معلومات الجيل الحاكم الآن عن التاريخ تنحصر فيما درسه أو سمعه عن تاريخ فرنسا وبعض رموزها في السياسة والحروب والآداب والفنون وهو الآن يكشف نفسه دون أن يشعر أنه ينتمي إلى وطن صغير اسمه الجزائر، لا إلى إقليم اسمه المغرب العربي أو الشرق الأوسط ولا إلى أمة إسلامية مترامية الأطراف وكثيرة السكان.... وبدل اهتمام الجزائري بما في وطنه من وحدة وتنوع، من ثورة وقوة، أخذ يهتم بعرشه وعشيرته وقريته ومدينته... هذه المحلية الضيقة نتج عنها جهل أو تجاهل للآخرين والتفوق الذاتي."<sup>9</sup>

إن المتأمل في هذا القول يجد أن الوعي التاريخي يكاد يبدو ضيقا عند المواطن الجزائري، وأن معرفة الحقائق التاريخية تكاد تنعدم وإن وجدت فإنها ستكون محلية قائمة على العصبية والقبلية وهو ما يؤدي إلى التشتت والتشردم بدل الوحدة والاتفاق في وعاء الوحدة الوطنية وهو ما يسهل على العدو أيا كان تثبيت معاول الهدم والتخريب وإخماد نار المقاومة من خلال القضاء على ماضينا وتراثنا التاريخي، "إن أول المتصدرين لكتابة تاريخ الجزائر في جميع عصوره-يقول سعد

الله-هم الفرنسيون، بحكم استعمارهم لبلادنا ومعرفتهم لتفاصيلنا وطمعهم في الإبقاء على التأثير علينا والمحافظة علينا في فلکهم" <sup>10</sup>.

ولقد نتج عن غياب هذا الوعي التاريخي عند باحثينا وطلبتنا وشبابنا الإيمان بحقائق مزيفة ومشوهة اعتبرها سعد الله من أخطر مخلفات الاستعمار الفرنسي ومن سلبيات الحركة الكولونيالية التاريخية منها على سبيل الذكر لا الحصر <sup>11</sup>:

✓ نفي الوحدة الوطنية عن المجتمع الجزائري، فالجزائر تبقى في نظرهم منطقة جغرافية من العالم تداولت عليها مختلف الشوب ولا وجود لشعب أو أمة أو كيان أو مجتمع متماسك، وإنما هناك قبائل متنافرة متنازعة تحوض حروبا مستمرة ولا تخضعها إلا القوى كالرومان والأترک والفرنسيين.

✓ تركيز هؤلاء المؤرخين في كتاباتهم على التاريخ الاقتصادي والإداري والعسكري جريا وراء الاستعمار والإدارة وتحركات الجيش وقواده.

✓ لم يهتم المؤرخون الفرنسيون بالتأريخ إلا للعهد (1830-1954) وكتبوا عن سياستهم وتغييرا لحكومات الفرنسية وعن المجرات الأوروبية أما تاريخ العرب والمسلمين فقد ظل عهدا غامضا حسبهم.

إن هذه السلبيات وغيرها ما زالت تنفث سمومها إلى يومنا الحالي لتبقينا تحت التبعية الثقافية والتاريخية للمحتل بعد مرور أكثر نصف قرن على الاستقلال السياسي، وتجسدت هذه التبعية مثلا في عزوف الكثير من الجزائريين عن تدوين تاريخهم "فقد وجدنا الجزائريين بالقياس إلى شعوب أخرى مقلين في تسجيل حوادثهم وأخبارهم،... فبينما تكتب بعض الشعوب الأخرى عن الحادثة الصغيرة في بلادها فتضخمها وتعظمها حتى تصبح حادثة دولية أو قضية إنسانية لا تنسى، نجد الأحداث الجسام في الجزائر تهمل فتتضاءل حتى تضيع من ذاكرة الشعب التي صنعتها" <sup>12</sup>. بل إن غياب بعض الحقائق عن تاريخ الجزائر جعلها

كما يقول "بلاد بلا مؤرخين، والذين تناولوا تاريخها كانوا في الغالب غير مرتبطين بها تاريخيا بل كانوا أعداء لها سياسيا وثقافيا"<sup>13</sup>.

ولتفادي مثل هذه الأخطاء مستقبلا والقضاء على خزعبلات التأريخ الفرنسي في الجزائر دعا مؤرخنا إلى ضرورة التنظير لتاريخ الجزائر وتاريخ الثورة خصوصا في أكثر من موضع ومناسبة، مشيدا بقيمة وأهمية المقاومة العسكرية للمستعمر، لكنها تبقى منقوصة في ظل غياب المقاومة التاريخية، إذ يقول "يمكن القول وبلا مبالغة بأن الثورة الجزائرية هي أعظم ثورة قام بها إنسان العالم الثالث، وهي في نفس الوقت من أعظم ثورات العصر الحديث، ولكن هذا القول سيظل مجرد ادعاء إذا لم تدعمه الوثائق والوقائع، ومن هنا تبرز أهمية تدوين تاريخ الثورة"<sup>14</sup>.

وتتجلى لنا انعكاسات التبعية التاريخية حسبه في العديد من المظاهر التي تأسف لها كثيرا من اعتماد اللغة الفرنسية بدل لغة الضاد واعتبار الإسلام احتلالا للجزائر وثقافة دخيلة عليها وكذا في محاولة تزوير الكثير من حقائق الثورة التي لا تزال إلى اليوم مغيبة "فكلما ذكرت الجزائر تبادر إلى ذهن المتحدث أو السامع تغلب اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية عليها، وقد يعتقد البعض أن ثقافة الجزائر أصبحت كلها فرنسية، وقد يخفف البعض من ذلك الحكم فيظن أنها فقط تحت تأثير الثقافة الفرنسية."<sup>15</sup>، وفعلا أن واقعنا الثقافي لا يزال متفرنسا لغة وفكرا ومن الأسف - كما يقول سعد الله في حواراته المختلفة - أننا نحن الجيل الحاضر نعتزف بما حدث لهويتنا ونلقي باللوم على المحتل ولكننا نفعل حاليا مثله أو أكثر في تدمير هويتنا بأنفسنا، فنحن نحزّب هويتنا بأيدينا لا بأيدي الاستعمار، وما دخل الاستعمار اليوم يتساءل سعد الله حين يتحدى تجار العاصمة أجدادهم ومواطنيهم فيكتبون عناوين محلاتهم التجارية بالفرنسية... أليس ذلك تحطيما للهوية؟ وانسلاخا عن الذات؟<sup>16</sup>.. والأمثلة كثيرة وكثيرة لا يمكن حصرها ولا ذكرها.

وما يزيد الأمر تعقيدا وخطورة انشغال مؤرخينا وباحثينا بتاريخ أقوام لأخرى ويتحدث صاحب كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر عن بداية تجربته التاريخية بكل مرارة قائلاً "فأسأتذتي كانوا يدرسون لي تاريخ اليونان والرومان، وتاريخ أوروبا ونهضتها وثورتها العلمية، والسياسية، والقومية والاقتصادية، بل كان يخيل إلي أنهم كانوا يدرسون لي كل بلد ما عدا الجزائر، وكنت أتساءل مع نفسي: لماذا ذلك؟ أليس للجزائر تاريخ يستحق الذكر؟"<sup>17</sup>.

ومن كل هذه الشواهد والأمثلة يهيب شيخ المؤرخين الجزائريين بضرورة العودة الى تأكيد أهمية التاريخ قراءة وكتابة في ذهن كل جزائري غيور على وطنيته وذلك بكل موضوعية ونزاهة علمية بعيدا عن لغة التقديس المبالغ فيه أو التقليل المخجل بقيمة الأحداث التاريخية إذ يقول "إن الجامعات الجزائرية أصبحت تتوفر على نخبة طيبة من الباحثين في هذا الميدان، وأن جيلا من طلاب الدراسات العليا أخذ يتخرج كل عام، وجميع هؤلاء باحثين وطلابا مطالبون بالكتابة عن تاريخ بلادهم في مختلف العصور، وإذا وجدوا صعوبة في الإصداغ بالرأي فليبقوا آراءهم محفوظة مكتوبة لكي يطلع عليها الجيل اللاحق"<sup>18</sup>.

### ثالثا: من أهمية التاريخ إلى فلسفة التاريخ ودور الوعي التاريخي.

لا يستطيع أحد أن ينكر فائدة الوعي التاريخي في الحفاظ على أصالة الشعوب وذاكرتها في ظل هبوب رياح العولمة والتغيير ونزوح آليات الغزو الثقافي نحو قلاع القومية والوطنية، فكان لزاما علينا الإهتمام بهذا النوع من المقاومة الثقافية التاريخية في زمن لم يعد يعترف بالقوة العسكرية ولا الاستعمارية بقدر ما يسجد خاضعا لهيمنة التبعية الثقافية والسيطرة الإعلامية التي تنتهجها وسائل الإعلام الأجنبية للسيطرة على عقول شبابنا وأبنائنا حتى ينسلخوا عن وطنهم وتاريخهم ولغتهم

ودينهم وحتى انتمائهم السياسي. فالقومية الحقيقية - كما يقول سعد الله - لا تظهر فجأة بل تنمو بقدر نمو الشعب وعيا وثقافة وتوحدا سياسيا<sup>19</sup>.

وتتحلى قيمة المقاومة التاريخية مثلا في واقع الكيان الصهيوني مثلا والذي تعير مؤسساته التربوية والجامعية دورا كبيرا لتاريخهم المزيف وذلك من أجل شحن عقول التلاميذ والطلبة بالتعصب للأرض والوطن والحفاظ على مقدساتهم وممتلكاتهم، فساهم ذلك في تأجيج نار الحقد في نفوسهم والغيرة على وطنهم.

لقد آن الأوان بالنسبة للمجتمعات العربية بما فيها الجزائر للاهتمام بهذا النوع من المقاومة الذي ظهرت بذوره منذ الاحتلال الفرنسي إذ يقول في حديثه عن جبهات المقاومة:

"إن التحدي الذي أبداه الغزاة الفرنسيون للجزائريين قد تولدت عنه ردود فعل مختلفة، مدنية وعسكرية، فالعنف والتعصب الديني والتبجح الفارغ بالحضارة والإنسانية والاستهتار بالدين الإسلامي والقيم الأخلاقية وخيانة المواثيق والاعتداء على الأملاك الشخصية والدينية، كل ذلك أدى إلى أشكال مختلفة من المقاومة كل بحسب طاقته، وكان ذلك مدعاة للبحث عن وسائل الوحدة وجمع الصفوف والعمل المشترك ضد العدو المشترك ومخاطبة المشاعر العليا التي تحرك الجميع كالدين والوطن، وذلك هو ما يعرف بالضمير الوطني"<sup>20</sup>.

من خلال تحليلنا هذا القول نستخرج مقولة العلية في انطلاق فتيل المقاومة والتي تتجلى في الإغارة على مقومات الشخصية الوطنية من طرف المستدمر الفرنسي ما ساعد على بروز الضمير الوطني المشترك الذي نظر فلسفيا لاندلاع حرب التحرير الموقرة كغيرها من ثورات التحرر في العالم.

لقد ساهمت المدرسة التاريخية التي خط معالمها أبو القاسم سعد الله في الحفاظ على هذا الضمير الحي درءا للأساليب التبعية والذوبان ويتجلى لنا ذلك في عدة جوانب منها<sup>21</sup>:



✓ إعادة استنهاض وإحياء التراث الجزائري الإسلامي وإبراز مساهمة الجزائر في الثقافة العربية وتحفيز المبادرات الإبداعية لدى أبناء الجيل من خلال مؤلفات :حكاية العشاق(1983)،رحلة ابن حمادوش(1983)،منشور الهداية للفكون(1987)...الخ،

✓ نصرة القضايا الوطنية الجزائرية للحد من تأثير وجهة النظر الاستعمارية وشحذ اعتزاز الأجيال بجهاد الآباء واستلهم دروس التاريخ كما هو الحال في "الحركة الوطنية الجزائرية" بأجزائه الثلاثة وكذا كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" بأجزائه الثلاثة.

✓ كتابة موسوعة التاريخ الثقافي لتسجيل خلفيات الأحداث الباطنة وعوامل التغيير العميقة،وربط الجزائر بمحيطها العربي الاسلامي ودرء تيارات الاستلاب الناسخة والنزعات الانعزالية الهدامة .

✓ الاهتمام بتحليل القضايا المعاصرة في الفكر والمجتمع والسياسة والتي تجلت بشكل واضح في كتابه :منطلقات فكرية،أفكار جامعة،قضايا شائكة،هموم حضارية،...الخ.

ولقد ألح أبو القاسم سعد الله على ضرورة تنمية الشعور بالوطنية والقومية والتي تعني في نظره الشعور المشترك بين جماعة معينة وتشارك في التاريخ والمصير، وبناء على المعنى الأخير، فإن الجزائريين بالإضافة إلى اشتراكهم في الضمير الوطني، كانوا وما زالوا يؤمنون بالأمة العربية التي يتقاسمون معها التاريخ والثقافة والمصير والحدود الجغرافية، أي أن لدى الجزائريين شعورا قوميا يربطهم بتلك الأمة ارتباطا عقائديا راسخا<sup>22</sup>، وهذا خلافا لما تؤمن به الحركة الكولونيالية التي نفت وجود فكرة القطر الواحد والضمير الوطني للجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي.

كما دعا سعد الله إلى ضرورة تحويل الثورة وإنجازاتها الى جملة من المبادئ والنظريات الفلسفية حتى تساهم في إقناع مختلف شرائح المجتمع في أي عصر بأهمية أهدافها إذ يقول:

"لقد عبرت الثورة الجزائرية حتى الآن عن آمال الانسان المضطهد في كل مكان ووضعت لنفسها مبادئ مستوحاة من التاريخ الجزائري ومن نضال الإنسان، تقوم

على التحرير عن طريق القوة والعقيدة معا والقيادة المشتركة، والتحول الاجتماعي المادي دون التضحية بالعوامل الروحية وتحقيق العدالة الاجتماعية دون الدخول في متاهات الصراع الطبقي، ولكن هذه المبادئ مازالت محلية خاصة بنا، ولم تصبح نظريات يستلهمها ويقتدي بها غيرنا، وأعتقد أن نجاح الثورة هو الكفيل بتحويل الخاص إلى عام والمبادئ إلى نظريات، وعلى الثورة أنتنح الكتاب وأرباب الفكر بأهمية مبادئها وفعاليتها وإنسانيتها أيضا، ذلك أنهم هم الذين يصنعونها في قوالب نظرية خالدة سواء في ديوان شعر حالم أو في كتاب فلسفي جاف، أو في رسالة سياسية نائرة<sup>23</sup>.

اذن يبدو لنا من خلال هذا الطرح دعوة ابي القاسم إلى ضرورة تحقيق التوازن بين العمل والنظر حتى يتم إخراج الحدث التاريخي من قوقعة الزمانية والمكانية إلى صدى العالمية والكلية فيستفيد منها كل دارس لعالم الفكر في كل بقعة من العالم، وهذا لن يتأتى إلا بتحقيق التكامل بين تجربة المناضل وقدرة المثقف والمفكر "إن هناك جيلا صاعدا حسب سعد الله من المثقفين قادرا على تمثل التجربة الثورية للمناضل والتعبير عنها عمليا ونظريا، وليس من الضروري أن يكون المثقف قد عاش الحدث جسما لكي يتمثله ويصوغه... فالتاريخ الحق هو الذي تكتبه الأجيال اللاحقة وليس ذلك الذي يكتبه بعض المعاصرين المتأثرين بالعلاقات الشخصية والايديولوجية والحزبية"<sup>24</sup>. وبهذا يتحرر ابو القاسم من الطرح التاريخي إلى التنظير الفلسفي.

فإذا كان فيلسوف التاريخ هو الذي يستطيع تقديم قراءة علمية لتسلسل أحداث التاريخ وإعطائها معنى كليا بعيدا عن ركام الأحداث الجزئية كما يقول فولتير، فإنه لن يكون للثورة صدى ولا للتاريخ اعتبار في نظر سعد الله الا إذا تبنى المثقف أو المفكر هذه الأحداث، وهنا تنويه بدور الفيلسوف والمثقف في الحفاظ على الوعي التاريخي وغرسه في عقول عامة الشعب من جهة وبني الانسان من جهة أخرى إذ يقول "إن تبنى المثقف للثورة هو الذي سيجعله قادرا على ملء الفراغ الذي يعاني منه تاريخ الثورة، على الأقل الشعبي منه، كما يجعله قادرا على

هضم المبادئ الأساسية للثورة وصياغتها في قوالب نظرية قد تكون أساسا لانطلاقة فكرية جديدة للثورة 25.

### خاتمة

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى تأكيد ملمحين أساسيين في فكر أبي القاسم سعد الله:

✓ أولهما يتعلق بدور المقاومة الثقافية وتحديد التاريخ منها في التصدي للأخطار المحدقة بالوجود القومي والوطني للشعوب والمجتمعات والأفراد على حد سواء، وكما قال ابن باديس ذات يوم "أمة بدون تاريخ فهي أمة لا جذور لها"، لهذا ألح قطب المدرسة التاريخية الجزائرية ورائد التاريخ في العصر الحالي إلى ضرورة الاهتمام بالتاريخ كتابة وقراءة من جهة وأهمية التعبئة التاريخية في الحفاظ على الماضي المشترك وفي فهم الواقع المعاش واستشراف المستقبل والحفاظ على المصير، في ظل تنامي المخاطر المهددة من طرف الغرب والتي قد أرسى معالمه منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر ولا تزال تفعل فعلها إلى اليوم محاولة تشويه تاريخنا وتحريف عقول شبابنا ومسح مقومات الهوية الوطنية من لغة عربية ودين إسلامي وتاريخ حافل بالأبجداد والبطولات .

✓ ثانيهما: تأسيس أبي القاسم سعد الله لمعلم نظرية فلسفية أصيلة في التاريخ وإن لم تبدو ركائزها واضحة للعيان إلا أنه قائمة في مختلف مضامين مؤلفاتها، وتبرير ذلك يتجلى لنا من خلال وجود مقولتي فلسفة التاريخ في مشروعه وهما: العلية والكلية، حيث تمكن مفكرنا من تحديد أسباب تأسيس الوعي التاريخي وهو تأصيل البحث التاريخي وتطهيره من كل شوائب المدرسة الكولونيالية التي علقت به منذ الاحتلال، إيماننا منه بدور التاريخ في تنمية الوعي الإنساني وهو نفس التمثل الذي نجده في نظريات فلسفة التاريخ المشهورة مثل نظرية التقدم أو نظرية الوعي عند هيجل وغيرها، أما مقولة العلمية

فيمكن استقراؤها في دعوته المؤرخين والباحثين في التاريخ إلى ضرورة الخروج من المحلية والقطرية والزمانية إلى العالمية والانسانية والابتعاد عن التفوق على الذات والاكتفاء بتمجيد البطولات والأفراد والشخصيات، بل الالتزام بالموضوعية والنزاهة في البحث ليصبح تاريخ الجزائر ككل تراثا علميا يضاها تاريخ أوروبا أو تاريخ اليونان وغيرهم.

وفي الأخير يمكن أن نقول أن المرحوم أبا القاسم سعد الله كان بحق وحقيقة شيخ المؤرخين الجزائريين الذي حاول التنقيب والكشف عن الحقيقة التاريخية بكل ما امتلك من قوة وبعد نظر وأفق مستقبلي غير محدود المدى، كما يمكن اعتباره فيلسوف المؤرخين الجزائريين دون منازع جمع في مشروعه بين الضمير والانتماء الوطني والقلق على تاريخ ومستقبل الجزائر وبين النزوع للقراءة الشمولية العلمية لتاريخ الجزائر مشيدا بقيمة الوعي التاريخي في تشييد المقاومة الثقافية والتصدي لمشاريع الهيمنة والادماج والذوبان في وعاء العولمة والتبعية الكولونيالية، لأن التاريخ كما يقول كروتشه "كل التاريخ تاريخ معاصر".

ويبقى التاريخ بمثابة ذاكرة الشعوب ومرآة سيرورتها الزمانية لقول الشاعر:

ليس بإنسان ولا عاقل      من لا يعي التاريخ في صدره  
ومن وعى أحوال من قد مضى      أضاف أعمارا إلى عمره

### الهوامش

1- أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003، ص 05.

2- فارس كعوان: المؤرخون الجزائريون ونمو الوعي التاريخي: مساهمة في التاريخ الثقافي والفكري (1830-1962)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراة، جامعة منتوري-قسنطينة-، السنة الجامعية (2010-2011)، ص 06.

3- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007،

ص 04.

- 4-المصدر نفسه،ص.03
- 5-أبو القاسم سعد الله:بحوث في التاريخ العربي الإسلامي،مصدر سابق،ص 07.
- 6-أبو القاسم سعد الله:عن الكتابة التاريخية،مجلة الثقافة،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،العدد 66، 1981، ص 05.
- 7- أبو القاسم سعد الله:بحوث في التاريخ العربي الإسلامي،مصدر سابق،ص 05.
- 8-أبو القاسم سعد الله:عن الكتابة التاريخية،مصدر سابق،ص07.
- 9-جريدة الحقائق الأسبوعية،العدد 21،مارس 2007.
- 10- أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية،ج1،عالم المعرفة،الجزائر،2009،ص.09
- 11- أبو القاسم سعد الله:أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،مصدر سابق،ص 36،37.
- 12- أبو القاسم سعد الله:عن الكتابة التاريخية،مصدر سابق،ص.06
- 13-أبو القاسم سعد الله:أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،مصدر سابق،ص 53.
- 14- المصدر السابق،ص 43.
- 15- أبو القاسم سعد الله:بحوث في التاريخ العربي الإسلامي،مصدر سابق،ص 10.
- 16- حوار مع أبي القاسم سعد الله،جريدة الحقائق الأسبوعية،مرجع سابق.
- 17- أبو القاسم سعد الله:أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،مصدر سابق،ص.52
- 18- أبو القاسم سعد الله:عن الكتابة التاريخية،مصدر سابق،ص 09.
- 19- أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية،مرجع سابق،ص.101
- 20- المصدر السابق،الصفحة نفسها.
- 21- بشير ملاح:مسار قلم أبو القاسم سعد الله،مجلة عود الند،العدد 91،يمكن تصفحها على الموقع الالكتروني: [www.oudnad.net](http://www.oudnad.net)

- 22- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مصدر سابق، ص. 69.
- 23- المصدر السابق، ص. 48.
- 24- المصدر السابق نفسه، ص. 49.
- 25- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مصدر سابق، ص. 49.

University of chahid hamma lakhdar. El-oued. Algeria  
Faculty of social and human sciences



# JOURNAL OF EL MAAREF

For researches and historical studies

*Periodical and international refereed journal*



جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي  
Université Echahid Hamma Lakhdar - El-Oued

Number 05